التربية الإسلامية

بالمؤسسات التعليمية

في ديار الإسلام

تأليف

الدكتور مجاهد توفيق الجندي

الأستاذ بجامعة الأزهر

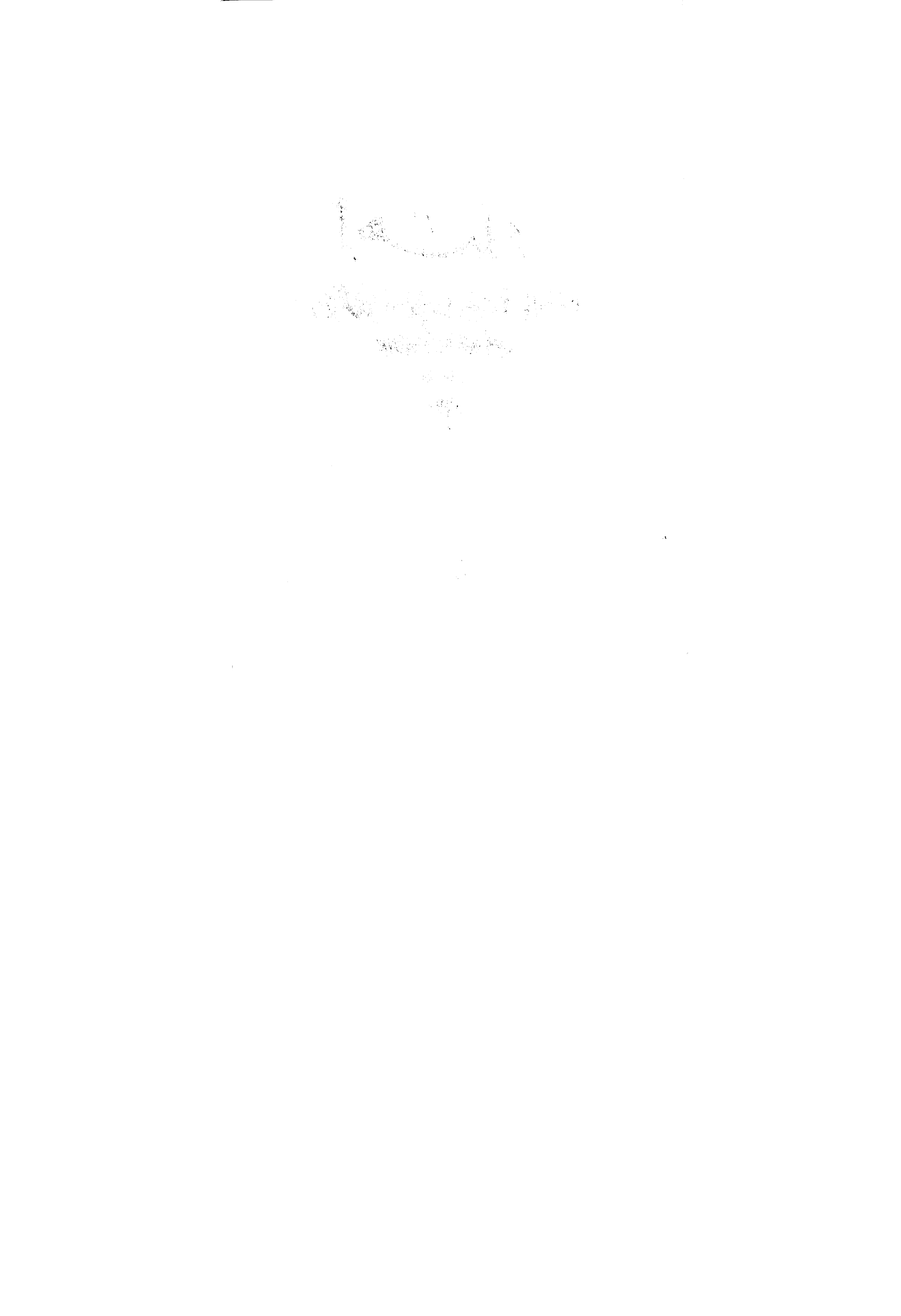
الطبعة الثانية ٢٠٠٠م

إهداء

إلى ابني توفيق الذي أرجو أن ينبته الله نباتاً حسناً
وأن يجعله ذرية صالحة

والله الموفق

د. مجاهد



بسم الله الرحمن الرحيم

« رب اشرح لى صدرى ويسرلى أمرى
واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى »

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى الأمى الأمين وعلى آله واصحابه أجمعين ، ورضى الله عن صحابة رسول الله وعن التابعين وتابع التابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، ورضى الله عن مشايخنا ووالدينا والحاضرين وجميع المسلمين(١) .

« وبعد »

فقد قامت أمتنا بدور بارز فعال فى تمدين العالم وتحضيره ، فى وقت كانت الفوضى والجهالة تغطى مساحات كبيرة وشاسعة عن العالم ، ومن الواجب علينا تجلية ذلك التراث الحضارى العظيم الذى كان لخير أمة أخرجت للناس ، وفى هذا دافع لكل همة عربية وعزيمة اسلامية لبناء مجد حضارى لنا ، على اساس من حضارتنا الزاهرة فى الأيام الخالية ، فمن شأن الماضى المشرق أن يحفز الأجيال الحديثة الى مواكبة الزحف الحضارى والرقى الانسانى .

ان الحاضر لايقوم فى فراغ ، وانما يتصل بجذوره القديمة ويتأثر بها ، ونحن لانستطيع أن نفهم الحاضر او المستقبل الا فى ضوء الماضى ، وما يمكن أن نستخلصه منه من عبر ولن تستطيع أمة أن تنهض وتحقق مثلها العليا اذا لم تكن على صلة بماضيها ، واقفة على ما به من بهاء لتجعله اساس النهضة والبناء ، فلا حاضر لأمة تجهل ماضيها ، ولا مستقبل لأمة تنكر فضائلها وخصائصها ، وهى مما تتصل بالحضارة بأوثق نسب وأقوى سبب ، وبذلك وحده تستطيع تلك الأمة أن تشعر ناشئيها بأن لهم كيانا محترما وشخصية مستقلة .

---

(١) راجع مقدمة تصدير السيوطى الذى نشرنا صورته وتحليله لأول مرة (مخطوط رقم ٣٠٤ بمكتبة الأزهر) فى مجلة الأزهر ص ٤٨٨ ، ٤٩٦ عدد ربيع الثانى سنة ١٤٠٣ هـ (الباحث) .

وهذا كله يـــدفع الامة الى حيث المجد والعظمة ، واى مجد روحى أجدى على العـــالم من مجد العرب واى مجــد ومدنية وحضـــارة اخلد على مر الأيام من حضـــارة الاسلام ، علما وثقافة وفنا وعدلا وسياسة ورشـــدا وحبا وســـلاما وامنا . وعلينا أن نبنى كما بنى آباؤنا من قبلنا حضارة انســـانية كريمة ، يشعر العالم فى ظلالها بالامن والطمأنينة والمحبة التى نفقدتها المخترعات المـــادية للحضارة الحديثـــة ، ولن يتمكن من حمل لواء حضارة الغد غيرنا ، لمـــا لحضارتنا من عالمية وخلود .

ومادمنا قد استطعنا أن نقيم فى المـــاضى تلك الحضـــارة السامية فى عصور التخلف الفكرى والعلمى فاننا اقـــدر على أن نقيم مثلها فى عصور التقدم العلمى وانكشاف المجهول شيئا فشيئا ، اننا اذا فعلنا ذلك نكون قد اوجدنا اكبر محول لتاريخ الانســـانية فى عصرها الحديث ، ويومئذ لابد من أن يلتفت العـــالم ــ بكتله المتناحرة ــ الضـــال سواء السبيل ، ويأخذ عنا ما يخفف من شقائه وآلامه ، وعندئذ ستنتقل الينا القيادة الحضـــارية وتوجيه التاريخ قبل ان يقرر نهاية الانسانية بعض الساســـة من تجـــار الحروب ومجرميها ، وسفاكى دماء الشعوب .

كان مجتمعنا العربى فى أيامه الزاهرة يقوم على حرية الفكر والبحث ويأخذ من العلم بحظ وافر يوم أن سادت العقلية العربية وكان لها الغلبة فى شـــئون الدول ، مجتمعا أنجب الكندى والفارابى وابن سيناء وابن رشد وابن البيطار وابن النفيس والحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والفخر الرازى والخوارزمى ، ونبغ فيه من الفلاســـفة ورجال العلوم الطبيعيـــة كثيرون .

وكانت وحدتنا العربيـــة دائما وسيلة من وسائل صنع مدنية عظيمة فالفلسفة كان يمكن ان تموت لو لم يحييهـــا العرب ــ وعندما أحيا العرب الفلسفة لم يســـتأثر بهذا الاثر الحضارى اهل قطر عربى واحد ، بل ساهم فيه الفارابى واخوان الصـــفا فى المشرق ، كما اســـهم فيه ابن رشـــد فى المغرب .

ووضع الجغرافية العربيـــة أبو زيـــد البلخى من بلخ فى الشرق ، وابن بطوطة من طنجة فى المغرب ولا فرق بين الحريرى البصرى وابن زيدون القرطبى من حيث اثرهما فى بناء صرح الادب العربى الرفيع ، وعلم التاريخ

أسهم فيــه ابن جرير الطبرى من طبرستان بالشرق ، كما أسهم فيــه ابن خلدون الأندلسى الاشبيلى التونسى ، بل اليمنى فقــد كان أجــداده من اليمن .

وعلم الطب لايجحد فضــل العرب فيه ، سواء فى ذلك ابن ســينا من أهل المشرق أو ابن رضوان من أهل الجيزة أو ابن زهر من أهــل أشبيلية . وهم من واضعى أصــول الرياضيات سواء فى ذلك الخوارزمى من اهل الشرق وابن الهيثم من اهــل مصر ، ووضعت أصول الموسيقى العربية فى الشرق على يد اهل المشرق من أمثــال الفارابى وزاد فيها أهل الغرب من امثــال زرياب ، وهكذا كانت من وظائف وحــدتنا العربية بناء حضارة رفيعة ، وهــذه الوظيفة الزم فى الوقت الحاضر بما فيه من تقدم سريع .

وكان من وظائف وحدتنا العربيــة الوقوف فى وجه اعداء العروبــة فى كل عصر ، فالوحــدة العربية هى التى هزمت الروم المرة بعد المرة ، والوحدة العربيــة هى التى هزمت اعداء الاســلام فى اسبانيا وايطاليا وصقلية ، والوحدة العربية هى التى هزمت الاســتعمار الصليبى الغربى والوحدة العربية هى التى جعلت البحر المتوسط بحيرة عربيــة حتى كان لويس الخامس عشر يستأذن سلاطين المغرب قبل أن يرسل سفنه فيه .

كانت لنا فى المــاضى جيوش وأسلحة وفن حربى ، أسقطنا بهــا أقوى امبراطوريتين فى العصــور الوسطى : الامبراطوريــة الفارســية والامبراطورية الرومانية ، ومددنا حــدود دولتنا من حدود الهند الى المحيط الاطلسى ومن جبال طوروس الى المحيط الهندى ، وهزمنا بهــا الصليبيين ، وعندما نقول الصليبيين فاننا نعنى دول « انجلترا وفرنسا والمــانيا وايطاليا مجتمعة » كما هزمنا بها المغول والتتار بعد ذلك .

ان بعث ثقافتنا وحضائتنا الاســلامية من اهم العوامل التى ترتكز عليها نهضتنا وان الأمة التى تبغى مجدا عليها أن تخلق فى الأفراد الشعور بالعزة القومية ، وذلك بالاهتمام بماضيها العريق وربطة بحاضرها ...

لقد أصبحنا وأمســينا فوجدنا أنفســنا وقــد غرقنا فى كل ما هو غربى ودخيل علينا حتى طعامنا وزينا ومساكننا العربيــة أصبحنا نستوردها

من الغرب ، حتى علومنـا ندرسهـا بلغات غير لغتنا مع انهـا جزء من تراثنا العربى الاسلامى الأصيل .

حقا اننا نحن العرب قـد أهملنا تراثنا وفرطنا فيه ولم نلتفت اليه ويجب علينا وقـد بدأنا نهضة مباركة ان نضيف الى دراسـة الحضارة الغربية ما فى حضارتنا من عناصر خالدة حتى يعرف النشء العربى مآثر أجداده فى ميـادين العلوم والفنون ومكتشفاتهم فيها ، ليشعر أن أجداده استطاعوا بالعمل الجـدى أن يشيدوا حضـارة شرقية عربية اسلامية لايزال العالم ينعم بآثارها .

ومما يؤسف له ومن أغرب ما نشاهده اليوم ان نجـد كثيرين خاصة من المثقفين منا ينكرون على العرب مآثرهم فى مختلف العلوم والفنون . بأن العرب أخـذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيدا وطبقوها نجد فى الغربيين من دفعهم الاخلاص للحقيقة لانصاف الحضارة الاسلامية بعض الانصـاف ، فقد اعترف « سارطون » و « سميث » و « كاجورى » بأن العرب أخـذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيدا وطبقوها على حالات كثيرة ، ثم كونوا من ذلك نظريات جـديدة وبحوث مبتكرة ، فهم بذلك قدموا للعلم خدمات جليلة ، ولو انـه ظهر أناس يضربون على نغمة جديدة اقتبسوها من الجاحدين بفضـل العرب والاسلام تدور حول قولهم ان العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم .. ولكن لو لم تكن حضارتنا العربية الاسلامية حافلة بالمـآثر مليئة بالمفاخر سامية رائعة لمـا اشتغل بها الغربيون ولمـاكتبوا عنهـا المجلدات ، ولمـا اهتمت جامعاتهم بهـا والبحث عن آثارها ولغوص وراء كنوزها .

ولكنهم حينما يواجهونا يملى عليهم الحقـد الى اسـاءة العرب ، فيشوهوا كثيرا من الحقائق ليدخلوا الشكوك والريب فى كثير من الحوادث التى تمجد العرب ويأخذوا نظريات العرب واختراعاتهم وينسبون الى غير العرب ، كل ذلك لتثبيط عزائمنا ولادخال اليأس الى نفوسنا وقلوبنا من تجاهنـا .

ومن المؤسف حقا أن تتحقق غايات هؤلاء وما يرمون اليه ، فقـد كان لذلك الأثر الكبير على عقليـة طلابنا وكتابنا ، وأصـبحنا هدامين لكياننا

متكرين ميراثنا لا نرى فيـه خيرا ولا جمالا ولا متاعا ولا انتفاعا ، ورحنا مفتونين بالحضارة الغربية عاكفين عليها مهملين تاريخنا وحضارتنا .

واصبحنا نعـرف دانتي وماكيافيلي وشكسبير ونيوتن واديسون باستير اكثر مما نعرف عن الخوارزمي وابن الهيثم وابن سينا وابن رشد والكندي .. وصرنا نرى في المدنية الأوربية كل الخير وكل الجمال وكل الانتفاع وكل المتاع ...

لقد ازدهرت حضارتنا العربية بضـعة قرون ، اصبحت فيها لغتها الفصحى المتقنة لغة البحث والدرس والكتابة والادب الرفيع ، في تلك الرقعة الفسيحة من العـالم القديم ، المتصلة من أواسط آسيا الى شواطىء المحيط الأطلسي ، وقامت الدراسـات العلمية على قدم وساق في مراكز العلم التي انبثقت في مختلف ارجاء العـالم الاسلامي ، وأصبحت المدارس والجامعات العربية كعبة العلم وطلابه من شتى الممالك والاقطار ، وأثرت الكتب العربيـة — الفلسفية والعلمية والأدبيـة — من طريق الترجمـة والدراسة — اثرها في ايقاظ العقـل الأوربي في بواكير عصر الاحياء(٢) ، وسجل الغرب على لسـان المنصفين من علمائه المحدثين ، ما كان لحضارة الشرق عليه من فضـل يرجع معظمه الى ذخائر الفكر والمعرفة العربية ، التي جمعت — الى نتاج نهضتها في العصر الاسـلامي — ثمار الثقافات القديمة من يونانية وفارسية وغيرها .

وان نظرة الى نظم التربية الاسـلامية — وهي فرع من فروع حضارتنا الزاهرة — خلال العصـور ، في مراكزها المنبثقة من شرق العالم الاسلامي الى المغرب والأندلس ، لتكشف عن عظم هذه الرابطة اللغويـة ، التي جعلت من معارف تلك الأقطار الشاسعة تراثا واحـدا متميز السـمات والخصائص ، تتماسك حلقاته ، وتتعـاون مدارسة ، وينتقـل علماؤه ومثقفوه كيفما شاءوا من مدينة الى مدينة ومن جامعة الى جامعة ، ويتجادلون ويتناظرون ويتبادلون الكتب والدراسـات ، ويتولون مناصب القضـاء والافتاء والتدريس والادارة ، في البلاد التي يرحلون اليهـا ويقيمون فيها ،

---

(٢) راجع : « الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة » بحوث ودراسات اسلامية جمع وتقديم محمد خلف الله احمد — القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

لا يحول دون الافادة منهم اختلاف نسب أو بعــد دار ، وما يقال عن العلماء والدارسين يصـــدق على الأدباء والمتفننين والرحالين والحجاج والتجـــار وغيرهم ، فكل بلد من بلاد العربيـــة وطن لكل متكلم بهـــا ، وتيارات العلم والأدب والثقافـــة والفن غاديـــة رائحة فى محيط ذلك العـــالم العربى الاسلامى الزاخر .

كانت الأمصـــار الاسلامية تتبادل الأساتذة والعلماء النابغين .. وكان العلماء الأعلام الألوف من طلاب العلم تتحلق حولهم فى المساجد والمدارس ليستمعوا لهم ويتلقوا العلم عليهم ، وهم لايبخلون بعلمهم ، وانما يجودون به توحيدا للفكر العربى وللثقافـــة العربية .. وكانت المراكز الثقافيـــة العربية فى بغداد ومصر والأندلس ، تتســـابق الى الفوز بهؤلاء العلمـــاء والترحيب بهم ، وتبذل لهم كل ما تملك من وجوه التكريم لتغريهم بالاقامة فيهـــا .

وكان طلاب العلم هم الآخرون يحجون من بلد الى بلد سعيا وراء الأساتذة الموجودين ليأخذوا عنهم العلم ، وهو ما يعرف فى مصطلح بعض الباحثين بالرحلة فى طلب العلم . ولعبت العواصم الاســـلامية دورا هاما فى تدعيم الفكر العربى فى أقطاره المختلفة فكانت منائر يهتدى بنورها الطلاب من جميع البلاد .

وكانت مكة دائما — ومازالت — ملتقى العلمـــاء والطلاب ومحط أنظارهم ولا سيما فى مواسم الحج ، ونافست (دمشق وبغداد والقاهرة) (القيروان وقرطبة وطليطلة) وغيرها من المراكز الثقافية ، التى كان يحرص الأمراء والولاة على انشـــائها فى اماراتهم وشجع بعضها البعض فى اقامة المكتبات الثقافية ، ودور العلم والحكمة ، وجمع نفائس المخطوطات ، وفى تشجيع العلماء والطلاب على الوفود عليهـــا ، وذلك بتقرير المنح السخية لهم ، واقامة الأروقة لاقامتهم ، واجراء الأرزاق عليهم ..

وهذا التنافس بين الولايات والامارات قـــد شجع التبادل الثقافى ، وأتاح الفرص لنمو العقلية العربية فى كل مكان من بقاع العالم الاسلامى ، وكان العلماء يقرأون كتبهم فى كل بلد يحلون فيه . وكان الطلاب يتنافسون فى كتابة هذه الكتب وحفظها ونشرها بين النـــاس ، مما جعل العالم العربى والاسلامى يمتاز بسعة الأفق ووحدة الفكر والثقافة .

وكان اجتماع علماء كل حاضرة من الحواضر الاسلامية من شأنه اتاحة الفرصة للمناظرة فى المسائل المختلف عليها وفى تصفيتها .

وكان اجتماعهم فى الواقع مجالا يروج فيه العلم والأدب ، ويسمو فيه الشعر والخطابة ويجتمع حول الشعراء والكتاب منهم ورجال الحكم والسياسة من بينهم ، فيتبارون جميعا فى الخلق والتجويد والابتكار ، ومن ورائهم عامة الشعب يسمعون ويستفيدون .

ونتيجة لهذا التنافس بين الحكام ، كانت المراكز الثقافية تزدهر وتقوى ويمتد أثرها للخاصة والعامة .

وقد ادى حرص الدولة الاسلامية على الحفاوة بالعلماء وجمعهم ، أن انشئت الجامعات والمدارس ، فنشأ الجامع الأزهر ، ونشأت فيه أول مدرسة جامعة ، انشأها الوزير يعقوب ابن كلس فى عهد العزيز بالله ، الذى جمع لها العلماء واجرى عليهم الأرزاق . واقام لهم المساكن كما شجع الطلاب من مختلف الأمصار على الوفود الى الأزهر ، بأن خصص لهم مرتبات شهرية تعينهم على طلب العلم ، واقام لهم الأروقة يقيمون فيها ، فكان بذلك أول من فكر فى نظام المنح الدارسية للطلاب ، وأول من عملّ على بناء المساكن لهم .

ثم قامت الدعوة المقاومة مذهب الفاطميين الشيعى ، وتوحيد كلمة المسلمين فى مذهب أهل السنة ، فأقام نظام الملك فى بغداد المدرسة النظامية ، كما انشأ عدة مدارس اخرى على نمطها ونظامها فى مرو وفى اصفهان وفى نيسابور ، واقام الى جانب كل منها مكتبة جامعة وقد عين لهذه المدارس مجموعة من العلماء . وكان على راس مدرسة بغداد الامام القزوينى ومن اساتذتها المشهورين الامام الغزالى .

وكانت هذه المدرسة منتدى للمناظرات بين العلماء الذين يفدون اليها من مختلف البلاد ، وقد تخرج فى المدرسة النظامية علماء أعلام انتشروا فى بقاع العالم الاسلامى كله .

ومن بعد المدرسة النظامية انشئت المدرسة المستنصرية التى انشأها الخليفة المستنصر بالله ، وجعل منها مدرسة جامعة ، وقد كان يدرس فيها المذاهب الأربعة والحساب والهندسة ، وكان فيها

جناح يدرس فيه الطب والصيدلة وأصول الصحة والعلوم الطبيعية .

وكان نظام السكنى داخليا فى هـذه المدرسة ، فيأكل الطلاب فيها دينامون على حساب المدرسة ، ويتقاضون منهـا منحا شهرية تعـادل دينارا واحـدا يوميا لكل طالب ، وكان يفد اليها الطلاب من جميع البلاد الاسـلامية .

وهذه المدارس التى تتنافس فيما بينهـا فى الحصول على الأساتذة الأعلام كانت فى واقع الأمر مراكز للتبادل الثقافى ومصدر اشـعاع للعالم العربى كله ، يفد اليها الطلاب من كل دولة اسـلامية ليتفقهوا فى دينهم وفى أمور دنياهم ، ثم يعودون لارشـاد قومهم ونشر المعرفة بين صفوفهم . ولم تكن مراكز الاشـعاع مقصورة على هـذه المدارس بل كانت هناك مـدارس أخرى فى القيروان والزيتونة وفى فاس وفى اشـبيلية وطليطلة وقرطبة ، وكانت المسـاجد ودور العلم والحكمة هى الأخرى منتـديات علمية يؤمها الاساتذة والطلاب .

وكانت هذه المدارس والدور مبعث نشـاط علمى فريـد ، اذ كان الناسخون يحرصون على متابعة العلماء الزائرين ، ونقل مخطوطات من كتبهم لبيعهـا للوارقين ، وكانت زيارة العلمـاء والطلاب موسما لهؤلاء الوراقين يبيعون فيه ما أخرجته العقول من كتب فى شتى الوان المعرفة ، وكانت مجالا للاجتماعات العلمية بين العلماء والأدباء والشعراء لعرض ما لديهم من نفائس المخطوطات للاطلاع عليهـا والنقل منهـا ، ولنشر ما ابتدعته قرائحهم من القول المـأثور .

وكانت المخطوطات تلعب دورا بارزا وهاما فى التبـادل الثقافى ، إذ كان العلماء يحملون معهم مايستطيعون نسـخه منها الى بـلادهم ليدرسوها ويعلقوا عليهـا ، ويتدارسوها مع طلابهم ، وبهـذا تنتقـل الأفكار من بلد الى بلد فى قافلة هؤلاء العلماء الجوابين وتثبت فى صـدور الحفاظ ، ومنهم تنتقل الى غيرهم بالسماع حينا والنقل حينا آخر .

هـذا النهر الجـارى بين البلاد العربية والاسـلامية الذى تغذية الثقافة العربيـة فى شتى مناحيها ويغذيه العلمـاء الذين لايعرفون للعلم وطنا ولا حـدودا ، ويغذيه طلاب العلم الذين ينتقلون من بلد الى بلد لسماع عالم مشهور أوفقيه ضليع ، حيثما أستطاعوا الى ذلك سـبيلا

والذى تملؤه الكتب التى تنتقل مع التيـــار الصاعد من بلد الى بلد ، والذى تملأ جنباته هبات يقدمهـــا أنصار العلم لطالبيه والراغبين فيـــه ، حسبة لوجه الله ، والوطن العربى هو الذى ربط بين الأمة العربية والاسلامية برباط وثيق ، ووحد اتجاهها وصـــان تراثها ، وحفظ لغتهـــا ، وأحاط مقوماتها بسياج منيع ، رد عنهـــا كيد أعدائها ، وقوى أواصر الوحـــدة بينها وجعلها أمة عظيمة الشأن ذات تاريخ حضارى مجيد وثقافة واسعة ، أسهمت فى حركة البعث الأوربى ، وفى دفع عجلة التقدم العلمى وجعل لها مكانا مرموقا فى تاريخ النهضة الانسانية ، وفى بناء الحضارة الحديثة .

هذا التاريخ المجيد هو ثمرة من ثمار التبـــادل الثقافى بين الـــدول العربية والاســـلامية وقد اسهم فيه المصرى والسورى والعراقى والحجازى والنجـــدى واليمنى والمغربى والاندلسى والسمرقندى والافغـــانى والبلخى والخوارزمى بسهم موفور فقد وضع كل منهم لبنة فيه .

وهذه اللبنات مجتمعة هى التى تمثل وحـــدة المسلمين وتضامن العرب فكل ما انتجته أى دولة او امارة من الامارات العربيـــة والاســـلامية فى الشرق والغرب قد ذاب كله وتبلور فى البوتقة الاســـلامية التى نحمل رايتها جميعا ونؤمن ونعتز بها جميعا .

لقد كان هذا هو ماضينا ، أمـــة واحدة متضامنة دولهـــا متحدة فى جهودها لرفع مكانة الاســـلام والنهوض بالأمة الاسلامية ورفع منـــارها .

فما أحرانا اليوم ان نستلهم ماضينا المشرق ، وأن نعمل متعـــانقين متساندين لنزيل العوائق ونبعث نهضتنا من جديد بعد عهد مظلم أناخ علينا فيه الاستعمار بثقله وقفل علينا النوافذ والأبواب ، وقطع بيننا الوشائج ، لنعيد تيار الحياة الى الأوصال التى قطعها الاستعمار ، كى نمكن لأمتنـــا العربية والاسلامية من ان تهب الى مكانها فى الطليعة قوية متحدة يساندها العلم ، وتدفعها الثقافة الى قمة المجد .

لقد كان اجدادنا وآباؤنا يدعمون صلاتهم عن طريق توحيـــد مناهل الثقافة والفكر وعن طريق تبادل الخبرات والعلمـــاء ، وعن طريق نشر الكتاب العربى ، وعن طريق تبادل الأساتذة والطلاب ، وعن طريق احياء الوعى بالعروبـــة وأمجادها والتمســـك بتقاليدها وعقائدها وعن طريق افساح المجال للتقدم الفكرى بنقل الحضارات والمعارف لتغذية نهر المعرفة

وعن طريق تمثل هـذه الحضارات والمعارف ، لتجرى فكرا عربيا خالصا يعين على التقدم ، بما لايتنافى مع عقائدنا ، ولا يؤثر فى شخصيتنا العربية ، وكانت وسيلتهم الى ذلك انشـاء الكتاتيب والمدارس والجـامعات ودور الحكمة ، وتشجيع الترجمة والتأليف ، واشاعة نور المعرفة ، وبث روح الترابط والاخاء ، وتشجيع العلم والعلماء وتبادل الزيارات والرحلات ، واقامة الندوات العلمية لمناقشة المشاكل بروح عربية خالصة وتصـفية الخلافات بروح علمية بناءة ، وبتعاون العلمـاء وتضافرهم فى ميـادين العلم المختلفة .

وقد نجحوا فى خلق الشخصية العربيـة الاسلامية التى دانت لهـا شعوب الأرض ، وفى خلق الثقافة العربيـة الى قادت العالم ، وأنارت مسالك طريق التقدم للانسانية كلهـا على ما كان من ظروف الحـال فى المـاضى من بعد المسافات ، وتقطع وسائل المواصلات وضعف الموارد . . .

ولكنهم تغلبوا على ذلك بالايمان بالله ، والايمان بأنفسهم وبعروبتهم واسـلامهم وقدراتهم .

ونحن اليوم غيرهم بالأمس ، نعيش فى عالم مترابط الحلقات ، قربت فيه وسائل المواصلات الحديثـة المسافات ، وقضت وسـائل الاعـلام الجديدة على فروق الزمان والمكان ، وحلت الرغبة فى السـفر وتبـادل الأفكار محل الانعزالية واعتزاز كل شخص ببيئته وتفكيره ، واستحدثت فيه أمور تدعونا الى الاستمساك اكثر من ذى قبل بعروة الوحـدة وتحثنا على التضامن لنقف فى وجه الطامعين والمتآمرين على عروبتنا ووحـدتنا وثقافتنا .

اننا نعيش فى زمان سريع التغير ، تتعرض فيه القيم للانهيار ، أمام تيار المـادية الجارف ، ولا سبيل لنا للنجاة بأنفسـنا ووطننا ومقوماتنا ومعتقداتنا ، الا أن نتضامن ونقوى صلاتنا الثقافية والاجتماعية ، لنقف صفا واحـدا فى وجه التيارات الملحدة والتيارات الكامنة فينا ، ووسيلتنا الى تحقيق الوحدة هو أن ندعم صـلاتنا الثقافية بما دعمهـا به آباؤنا الأمجاد — وطريقنا الآن اكثر يسرا ، ووسائلنا اقرب منالا .

ورأى ان المقدمة قد طالت(٣) ، ولذلك أجدنى مضطرا الى الدخول فيما نحن بصدده من موضوعنا وهو « دراسات وبحوث فى التربية الاسلامية » وهى حلقة من حلقات حضارتنا الاسلامية فى عصورها الزاهرة .

* * *

(وقد قمنا خلال هذه الحلقة من حضارتنا بعدة زيارات) كانت هذه الزيارات للمساجد القديمة بالقاهرة والاقاليم ، وللمدارس الباقية والدراسة ، وللزوايا والخانقات والربط والقباب والمشاهد والترب وغيرها من أماكن التعليم ، والتى كانت عامرة فى يوم من الأيام بالحركة العلمية المزدهرة وكذلك متحف الفن الاسلامى وما به من وسائل ايضاح ...

وقد ملئت هذه المؤسسات العلمية بالشيوخ والطلاب وأوقفت عليهم الأوقاف الغنية بمواردها المالية ، بحيث كان الطالب للعلم يكفى مئونة البحث عن مسكن يأويه وطعام يطعمه أو ملبس يلبسه ، فكان العالم والمتعلم كلاهما يعطى جراية يومية ومرتبات شهرية وكسوة سنوية (شتاء وصيفا) بالاضافة الى التوسعة عليهم فى رمضان والمواسم والأعياد وغيرها ...

وقبل الدخول فى الموضوع الذى ألمحت اليه أحب أن أشير الى أن التربية ليست من الأمور البسيطة التى يمكن تدارك الخطأ فيها بسهولة ويسر ، اذ هى تؤثر فى جيل بأكمله وربما فى عدة أجيال ، كذلك لايمكن على أسوأ الفروض — تحمل هذا الخطأ دون أن نحس خطرا على كياننا ، أو ضلالا عن الطريق السوى ، ذلك أن التربية تتعلق تجاربها بالمادة البشرية ، ولذلك كانت على جانب من الخطورة والتعقيد ...

ولذلك كان هناك اختيار دقيق فى اختيار « معلم الصبيان » أو مؤدب الأطفال بحيث يكون على درجة كبيرة من الكفاءة لافى حشو أذهان الصغار بالمعلومات ، ولكن فى طريقة توصيل هذه المعلومات اليهم ، بحيث يكون مثلا أعلا وقدوة طيبة لهؤلاء النشىء منذ نعومة أظفارهم ، ذلك لأن الطفل يمضى أكثر ساعات النهار لأكثر أيام السنة فى صحبة المعلم ، وعلى ذلك

(٣) المقدمة فى رأى علماء الغرب يجب ان تكون واحد الى عشرة من البحث ، كما حكى لنا استاذنا الدكتور بدوى عبد اللطيف وهو منهجه أيضا فى البحث العلمى .

فان المؤدب يشــغل اخطر وظيفة فى المجتمع ، فهو الذى يشكل عقول الصــغار ، ويزودهم بالقيم والاتجاهات ويمدهم بالمواد الثقافيـــة التى تتشكل على هديها انماط سلوكهم الاجتماعى ، وبالاختصار فان المربى هو الذى يعد مواطنى المستقبل ...

وقد فطن اصحاب المؤسسات العلمية وعامة المسلمين الى اهميـــة المربى فى أثره الاجتماعى على الطفل ، لأن عمله يبدأ فى مرحلة جاســمة بالنسبة للطفل ، ولذلك كان المعلم يحصــل على كثير من الأموال والخيرات التى تأتيه من عــدة جهات : منها صاحب المؤسسة وأهل الصبى وأهل الخير وغيرهم ، حتى لا يشعر بالتبرم والسخط على المجتمع ، وينقلب ذلك بالتالى على الصغار شدة وغلظة ، مما قد يهدد مستقبل السلوك فى النشىء ...

وهذا ما يبرر الأهمية القصـــوى لهذا الطور من التربية الاجتماعية ، مما يهيىء مركزا خاصا لمعلم الكتاب أو (المرحلة الأولى) الــذى يجب الاهتمام بشأنه ، وتحسين مركزه الاجتماعى بين طبقات المجتمع .

والملاحظ كذلك أن الطابع المميز للتربية الاســلامية قــديما ، كان يقوم على اهمية التربية الدينية ومفهومها للفضــائل ، وعلى بث ثقافــة دينية فى نظم التعليم عامة . ولاجرم ، فقــد كان الدين سياجا للحياة ، وطابعا لكل المؤسسات الإجتماعية ، حتى أصبح من الضرورة أن يتثقف كل صاحب مهنة ثقافــة دينية ، وبلغ الاهتمام بالتربيــة الخلقية حــد التقديس وقام تقنينها ووضعيتها على اساس الدين .

وسوف نشير الى امثلة من هــذه فى موضعها المناسب ، وتجــدر بنا الاشارة فى هــذا المقام الى مجموعة من الكتب « الخاصة بالتربيــة الاسلامية » والتى لها اهمية خاصة تكاد تكون فى موضوعيتها ومنهجيتهــا بحوثا عصرية تســاعد على فهم البحث بطريقة محسوسة ملموسة . ومن هذه الكتب مثلا كتاب : « آداب المعلمين » لابن سحنون ، والمفصلة لأحوال المعلمين و « احكام المعلمين والمتعلمين » للقابسى أخرجهما الدكتور احمد فؤاد الأهوانى فى كتابه « التربية فى الاسلام » ، و « تعليم المتعلم طريق التعلّم » للزرنوجى ، ولعل من اهم هــذه الكتب « تذكرة السامع والمتكلم فى ادب العالم والمتعلم » لابن جماعة ، اما ماكتب بوجه عام فلا يمكن حصره

فى هـذه العجالة ، ويكفى ان نشير منها الى كتاب « ايها الولد » للغزالى ، وكتاب « السياسة » لابن سينا وأبى نصر الفارابى وغيرهم وغيرهم .

والملحظ لنا أيضا أن علماء التربية ذكروا أن من الواجب التبكير فى غرس الفضيلة فى نفس الناشىء ، لأن هـذا الغرس حينئذ لايحتاج الى عناء ، ولا يجد فى نفس الناشىء ما يعوق تأصيله من الرواسب السيئة السابقة ، بينما يصبـح الانسـان صعب التوجيه اذا تأخرنا فى غرس الفضيلة فى نفسـه ، لأنه حينئذ يكون شبيهـا بالأرض التى نبتت فيهـا حشائش ضارة تعوق نمو النبات الصالح ، وقديما قيل : « العلم فى الصغر كالنقش على الحجر ، والعلم فى الكبر كالنقش على المـاء » .

ولذلك يحسن التبكير بتمهيد نفس الناشىء لتقبل القيم والمبادىء ، وهذا التبكير يحتاج الى حيطة وحـذر ، والى احسان واتقان ، لاننـا لا نريد ان نشحن ذهن الناشىء هنا بمعلومات عن الفضائل والأخلاق ، بل نريد أن نحسن تمهيد التربة العقلية والنفسية عنـده لتقبل الايمـان بالقيم والمثل والمبادىء حينما يصير الناشىء قادرا على ذلك وصالحا له .

ويجب ان نتذكر هنا أن القيم الأخلاقية والروحية لا يمكن أن تنمو فى نفس الطفل بالاكراه والارغام ، وانما تنمو باحياء المشاعر الكريمة واستثارة العواطف النبيلة وضرب القدوة العملية والمثل الواقع ، وببيان ثمرات هذه القيم العاجلة والآجلة ، وتصوير الأضرار الناشـئة عن الاثم والرذيلة ، وتيسير الاطلاع المستمر أو المتكرر على الأقل على ما فى الكون ، ومشاهد الطبيعة من دقة وابداع ونظام وجمال . .

واذا كان الترغيب وسيلة محببة فى التربية والتوجيه ، فلانستطيع اغفال ما للترهيب من تأثير ، فالترغيب يثير القوى والطاقات الخيرة فى نفس الانسان لتنبعث وتؤتى ثمارها ، والترهيب يردع عمالا يليق ، ويقاوم الميول والنزعات الشريرة التى تفسد أو تسىء .

ونعود فنؤكد أن القدوة هى أقوى العوامل لبث الفضائل فى نفس الصغير ، لأن القدوة توجد مشـاهدة حسية ، والخلق اذا صار عملا بهر وجذب ، ثم أن الطفل مولع بتقليد من يكبره ويسبقه ، وهـذا الميل القوى الى التقليد والمحاكاة والمتابعة ليثمر تأصل العادات فى نفس المقلد ، والعادة اذا تأصلت أصبحت كالغريزة ، لأن من شب على شىء شاب عليه

وقد تكون القيم الروحية والفضـــائل الدينية احوج من غيرها الى اظهارها فى اطار الأعمال ، لآن هذه الفضائل لاينال صاحبها كل جزائهـــا عاجلا فى الدنيا ، بل لهذا الجزء بقية أو بقايا تؤخذ فى الآخرة ، والانسان مولع بأن يحصل فى يديه ما يطمع اليه فاذا لم تبهر الفضيلة بقدوتها لم تجذب الطفل اليها كما نريد .

ولابد من ملاحظة أثر العبادات الدينيـــة فى تكوين القيم الاخلاقية ، والاسلام قد قصـــد من وراء تلك العبادات الى هذا التكوين ، ولذلك نجد القرآن الكريم يشير الى الصلاة فى تطهير النفس ونهيها عن الرذايل . فيقول : « واقم الصـــلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشـــاء والمنكر » . ويقول الرسول (ص) فى الحـــديث القدسى : « انما اتقبل الصلاة ممن تواضع بهـــا لعظمتى ، ولم يســـتطل على خلقى ، ولم يبت مصرا على معصيتى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب » .

وفى الزكاة يشير القرآن الكريم الى اثرها فى طهارة النفس وتزكية الأرواح . فيقول الرسول : « خذ من أموالهم صـــدقة تطهرهم وتزكيهم بهـــا » .

ومزج الرسول (ص) بين الصدقة المـــادية والصدقة المعنوية ليكون هناك جمع بين العمل الحسى والشـــعور الخلقى ، فقال : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة وارشادك لرجل فى ارض الضـــلال لك صدقة ، اماطتك الاذى والشوك والعظم عن الطريق صدقة ، وافراغك من دلوك فى دلو اخيك لك صـــدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة » .

وفى الصـــوم نجد ايضا التذكير بالمعانى الأخلاقيـــة فيقول الحديث : « من لم يدع قول الزور والعمل بـــه فليس لله حاجة فى ان يدع طعامه وشرابـــه » .

ومثل هذا فى الحج ، يقول الله تعالى : « الحج أشـــهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب ».

لاحظ علماء التربية أن العبادات مادامت تشتمل على هذا التوجيه الأخلاقى والتذكير الروحى — فوق ما لها من فوائد صحية واجتماعية — فينبغى على المربين أن يحسنوا تحريض الأطفال على اداء هذه العبادات حتى يمارسوها فى الكتاتيب وغيرها من الأماكن ، ويجب على المؤدب أن يتذكر دائما أن أهمال العبادات أو التهاون فى أدائها بانتظام يحطم فى نفس الصغار كثير من المفاهيم الدينية والروحية ، لأن كل مفهوم روحى أو دينى يكسب قوته من تطبيقه والتنفيذ له .

وكان المربى دائما يلاحظ أن فترة الشبيبة ، فترة زمالة وصحبة ورفقة فى الكتاب والملعب والشارع والمنتدى ، وهذه الصحبة بين الأطفال لها تأثير كبير جدا فى تكوين الشخصية حتى جاء فى الأثر : « المرء على دين خليله » وقال عبد الله بن مسعود : « ما من شىء أدل على شىء ولا الدخان على النار ، من الصاحب على الصاحب » .

وكم من صغير كان صافى القلب ، طاهر النفس ، خالى الذهن ، أخذته الصحبة الى من يفسد عليه حسه ونفسه ، وهنا نسمع قول الرسول (ص) : « من أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا ، ان نسى ذكره ، وان ذكر أعانه » وقوله : « صحبة الأحمق شؤم » .

وهنا نتذكر قول الله تعالى : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا » .

ولذلك كانت عين المؤدب دقيقة وعميقة فى ملاحظة الأطفال بحسن استغلال الرفقة بينهم ، لبث القيم الكريمة عن طريقها ، وذلك بمراعاته التجانس بينهم من ناحية الأعمار والثقافة والأخلاق بين المتصاحبين ، بحيث تعصم هذه الصحبة مما يعرض لها من شوائب ، لأن هذه الشوائب قد تبدوا لأول وهلة ضئيلة او تافهة ، ولكنها اذا لم يقطع عليها الطريق تقوض الكثير من القيم الصالحة التى تعمل على تمكين غرسها فى نفوس الناشئة .

ومما يؤسف له أن المؤرخين والفقهاء وفلاسفة الاسلام وأدبائه لم يعنوا بالتأليف فى التربية الاسلامية فى العصور الوسطى العناية التى

تستحقها ، فى حين انهم أسهبوا فى الكتابة عن الحروب والانتصارات فيها والشئون الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ورغم ذلك لايستطيع أحد من المربين والمؤرخين انكار أن التربية الاسلامية هى الأساس المتين لحضارة المسلمين ، وأن المثل العليا فى تلك التربية تتفق مع الاتجاهات الحديثة فى عالم التربية اليوم ، بل اننا لنفخر حين نقول : ان مبادىء التربية الاسلامية الحديثة التى نادينا بها فى منتصف القرن العشرين ، ولم تستطع الدول المتمدينة تنفيذها كلها حتى اليوم قد روعيت ونفذت فى التربية الاسلامية فى عصورها الذهبية ، قبل أن تكون التربية الحديثة قد خلقت بمئات السنين .

وعلى صفحات هذا الكتاب سيكون حديثنا مقصورا على فرع من فروع الحضارة الاسلامية ، الدوحة المباركة العظيمة ، ذلك الفرع هو التربية الاسلامية » .

ونبدأ أولا بالحديث عن فضل العلم والعلماء . ثم عن تحليل لبعض المصادر التى تحدثت عن التربية الاسلامية فى عصورها الزاهرة .

ثانيا الحديث عن اماكن التعليم ومنها : الكتاب كمكان للتعليم الأولى للصغار والطبقة لتعليم المماليك وهى تشبه الكتاب الى حد كبير ، ومنها المسجد والمدرسة والزاوية والخانقاة والرباط والقبة والتربة والمشهد والتعليم فى قصور الخلفاء والسلاطين والتعليم فى البيوت — المكتبات كمؤسسات تعليمية — اسواق الكتب . حوانيت الوراقين ... الخ .

ثالثا : الحديث عن المدرسين والطلاب وكل ما يتعلق بهم .

رابعا : الحديث عن اهم العلوم التى كانت تدرس وطرق التدريس .

خامسا : الحديث عن الأوقاف على طلاب العلم وشيوخهم .

سادسا : حديث عام عن التعليم واثره على التراث الاسلامى وكيف ضيعناه واهتم به غيرنا ... الخ .

ثم الخاتمة واهم المصادر والمراجع واخيرا الفهرس .

الفصل الأول

— أ —

فضل العلم والعلماء :

قدس الدين الاسلامى العلم والعلماء ، وسما بالعلم الى درجة العبادة . وعنى العناية التامة بجميع انواع التربية ، وخاصة التربية الروحية والدينية والخلقية ، ونادى بالحرية والمساواة فى طلب العلم وتكافؤ الفرص بين الأغنياء والفقراء فى التعليم ، وقضى على نظام الطبقات وفرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ، واعطاهما كل وسيلة للتعليم ، اذا وجدت لديهما الرغبة فى العلم والاقبال عليه .

وأول آية نزلت فى القرآن الكريم تحث على العلم وتقدسه وتنوه بشأن العلم والتعليم وفيها أمر للرسول (ص) بالقراءة ، ونلمس ذلك فى اسناد التعليم الى الله فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم »(٤) .

كما نلمح تقديس الاسلام فى قوله الله تعالى : « وقل رب زدنى علما(٥) » مخاطبا الله تعالى ورسوله محمد (ص) وقوله « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط(٦) » حيث رفع العلماء الى أعلا المراتب فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بالملائكة ، ثم ثلث بأهل العلم .

وفى مواطن كثيرة ينوه القرآن الكريم بشأن العلماء ومالهم من مكانة سامية ومنزلة رفيعة قال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » وقوله تعالى حاثا على عدم تعالى العلماء بعضهم على بعض ، ولكى يستزيد كل عالم من العلم : « يرفع الله الذين آمنوا منكم

---

(٤) الآيات الأولى من سورة العلق .
(٥) ٢٠/١١٤
(٦) ٣/١٨

والذين أوتوا العلم درجات(٧) » ، وقوله سبحانه : « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم (٨) » .

الاسلام يحثنا على تحصيل العلم ويعلم المسلمين كيفية السؤال والجواب :

ولما كان المسلمون الأوائل يعلمون علم اليقين أن العلم قد فرضه عليهم دينهم ، ويعلمون قيمة العلم فى حياتهم الدنيوية والأخروية ، كان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون الرسول (ص) على كل ما يعن لهم من أمور الدنيا وشئون المعاملات والحياة .

وكان القرآن الكريم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ينزل بالسؤال والجواب عليهم جميعا معلما ومرشدا ، فمثلا عندما سألوا الرسول (ص)عن حكم الدين فى الخمر والميسر نزل قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما (٩) » . ولما سألوه (ص) عن الأنفال ، نزل قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسو(١٠) » .

وكما فرض الله على المسلم أن يتعلم ، فرض سبحانه على العالم أن يعلم غيره ، وذكر سبحانه أن هذا ميثاق أخذه على أهل الكتاب ، فقال تعالى : « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتو الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه »(١١) .

وقد لعن الله الذين يضنون بالعلم على غيرهم ، قال سبحانه : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ، فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم »(١٢) .

---

(٧) ٥٨/١١
(٨) ١٢/٧٦
(٩) ٢/٢١٩
(١٠) ٨/١
(١١) ٣/١٨٧
(١٢) ٢/١٥٩ ، ١٦٠.

فالعلم مقدس فى نظر الاسـلام ، وهو اسمى شىء فى الحياة لدى المسـلمين ، وللعلماء العاملين منزلة فى الاسـلام تلى منزلة الأنبياء ، حيث قال رسـولنا الكريم : « العلماء ورثة الأنبياء » . فمرتبة العلمـاء تلى مرتبة الأنبياء . وقـد قيل ان العلماء يشفعون للنـاس يوم القيامة بعـد الأنبياء وقال (ص) : (ان مداد لخير العلماء لخير من دماء الشهداء) .

والرسول (ص) دعا الى التعليم واوجبه فقـال : « علموا أولادكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » .

والاسلام لم يفرق بين الأبناء والبنـات فى طلب العلم . فقـد قال (ص) : « طلب العلم فريضـة على كل مسـلم ومسلمة » . من غير تفريق بينهما ، ولم يقف الاسـلام بالدعوة عند نشر العلم وتعليمه فحسب ، بل تعداه الى الاستمرار فى طلبه والبحث والاطلاع ، فقـال الرسـول (ص) : « لايزال الرجل عالمـا ما طلب العلم ، فاذا ظن انه قـدم علم فقد جهل » .

تعليم العلم امانة فى رقاب العلماء :

ولمـا كان التعليم مهنة الأنبياء ومهمتهم فى تبليغ رسالتهم ، والعلماء ورثة الأنبياء فى هـذه الوظيفة المقدسـة ، فانهم اخـذوا على عاتقهم حمل هـذه الأمانة ، وقام العلماء بتوصيلها وادائها خير قيام ، حيث علموا طلابهم بكل الاخلاص المرجو منهم ، فلما عاد الطلاب الى بلادهم كان عليهم ارشاد قومهم ونذارهم ، ويبينوا لهم الطريق الذى يجب أن يسلكوه .

الرسول كان القدوة العملية فى تشجيع التعليم :

بعد ان هاجر محمد عليه الصـلاة والسلام من مكة الى المدينـة واستقر فيهـا ، كان شاغلة الشاغل هو بناء المسـجد ، وخص فيه صفة للتعليم ، فعين اساتذة لتعليم الكتابة من مثل « عبـادة بن الصامت » ، و « عبد الله بن سعيد بن العاص وغيرهما »(١٣) .

ومن الطف ماروى عنه (ص) هو انـه لمـا اسر الأسارى فى بدر ، طلب الفداء لكل واحـد منهم ، فمن كان يعرف الكتابة من الأسرى جعل

---

(١٣) ابن الأثير : اسد الغابة فى معرفة الصحابة حـ ٢ ص ٧٥

فداءه تعليم عشرة من أبناء المسلمين بالمدينة ، وهذا يدل على جواز المعلم المشرك فى ذلك الوقت ولو مؤقتا .

وقد شجع النبى (ص) النساء كما شجع الرجال على تعلم الكتابة ، وأكبر الأدلة على ذلك ما ذكره البلاذرى أن من بين الكاتبات المكيات : الشفاء بنت عبد الله العدوية ، وحفصة العدوية أم المؤمنين ، وأم كلثوم بنت عتبة ، وعائشة بنت سعد بن عبادة ، وكانت تقول (علمنى أبى الكتاب) وكريمة بنت المقداد .

وقال كانت عائشة أم المؤمنين تقرأ المصحف ولا تكتب ، وكذلك السيدة أم سلمة أم المؤمنين كانت تقرأ ولا تكتب(١٤) .

وكانت خطة النبى (ص) فى فداء الأسرى بتعليم الكتابة لأبناء المسلمين ، خطة حكيمة قصد بها تشجيع العلم ، وكانت سببا جوهريا قويا فى ذيوعه وانتشاره .

وقد شجع النبى أيضا تعلم الكتابة وتحسينها ، لأنه كان يختار أجود الكتاب خطا لكتابة رسائله التى يرسلها للملوك فى أنحاء الأرض للدخول تحت راية الاسلام ، ومن ثم اشتعل التنافس بينهم لتعلم وإجادة الكتابة ليحظى كل منهم بشرف الكتابة للرسول (ص) .

وأيضا من الأحاديث الشريفة التى تحث على طلب العلم ، وتشيد بفضل العلماء العاملين قوله (ص) : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم » . وقال أيضا : « الناس رجلان : عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما » .

وقال : « ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » .

وقال الامام على كرم الله وجهه : العلم خير من المال ، العلم

---

(١٤) البلاذرى : فتوح البلدان ط القاهرة ص ٤٧٧ ، سهيلة ياسين الجبورى : الخط العربى وتطوره فى العصور العباسية فى العراق ص ٢٨ ، تطور الخط العربى وأدوات الكتابة بحث ماجستير للمؤلف بكلية اللغة العربية ص ٢٦ .

يحرسك وانت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالانفاق . وقال نظما :

ما الفخر الا لأهل العلم انهم * على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه * والجاهلون لأهل العلم اعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا * الناس موتى وأهل العلم أحياء(١٥)

الامام الشافعي وطلب العلم :

عندما وصل الشافعي الى مرحلة الصبى أرسله والده ادريس للكتاب ليحفظ القرآن وأدب العرب . فكان يجلس دائما على مقربة من معلمه وقت القاء الدرس ، وكان يحفظ جيدا كل مايسمعه ، فاذا ما ذهب المؤدب لقضاء حاجته ، أخذ الشافعي . التلاميذ وحفظهم ما حفظه ، وبهذه الوسيلة قويت عنده ملكة الحفظ فأحبته التلاميذ والتفوا حوله ورفعوه فوقهم واطاعوا أمره ، ولذا كان الأول فى مكتبه هذا ولما رأى معلمه اجتهاده ونجابته ، لم يأخذ منه أجرا على التعليم .

وكان الشافعي ميالا جدا للألعاب الرياضية ، فكان يأخذ الصبيان الى ساحة (مكة المكرمة) وضواحيها ، ويلعب هناك معهم مختلف الالعاب التى كانت سائدة ومستعملة فى ذلك الزمان .

ولما بلغ من العمر تسع سنين كا قد أتم حفظ القرآن كله فترك الكتاب ودخل المسجد الحرام ، وأخذ يجالس العلماء ويحفظ الحديث وعلوم القرآن والأدب وغير ذلك وكان لشدة فقره يجمع العظام ليكتب عليها مذكراته . وكان يذهب الى المصالح والدواوين ، ويجمع بقايا قصاصات القراطيس من تحت أقدام الكتبة ، ليكتب على ظاهرها وفى المسافات الخالية فيها المذكرات ويقول :

---

(١٥) محمد عطية الأبراشى : التربية الاسلامية وفلاسفتها م عيسى الحلبى ط ٣ ص ٥٥

العــلم صــيد والكتابــة قيــده ❋ قيد صيودك بالجبــال الواثقــة
فمن الحماقــة أن تصــيد غزالة ❋ وتفكهــا بين الخــلائق طالقــة

ولم ير الشــافعى فى ذلك غضاضة ، بل على العكس كان يعتقد أن من أهم أسباب الفلاح فى العلم (الفقر) ، ولذلك كان يقول : ما أفلح فى العلم الا من طلبه فى القلة .

ولمــا كثرت العظام والقصاصات عند الشــافعى وضــاق بهــا صندوقه وحجرته ، صمم على حفظ ما جمعه فيهــا عن ظهر قلب ويستغنى عنهــا ، وفعلا عكف فى حجرته على حفظ ما كتبه على العظام والقصاصات بعزيمة صادقة ، حتى أتم حفظها واستغنى عنها ، وخرج من الحجرة وهو يقول :

علمى معى حيثمــا يممت ينفعنى ❋ صدرى وعاء له لابطن صــندوقى
ان كنت فى البيت كان العلم فيه معى ❋ أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

ولم يصــل الشافعى الى هــذا القدر من الذكاء المفرط والحفظ الخارق للعادة والفهم السريع الا بفضــل قوة ايمانه وصدق يقينه وحسن اعتقاده . ومن أقواله فى طلب العلم :

العلم مغرس كل فضــل فافتخر ❋ واحذر يفوتــك فخر ذاك المغرس
واعلم بأن العــلم ليس ينالــه ❋ مــن همــه فى مطعــم أو ملبس
الا أخو العلم الــذى يعنى بــه ❋ فى حالتيــــه عاريــا أو مكتسى
فاجعل لنفسك منــه حظا وافرا ❋ واهجر له طيب الرقــاد وعبس
فلعــل يوما ان حضرت بمجلس ❋ كنت الرئيس وفخــر ذاك المجلس

وقال الامام على كرم الله وجهه فى الفخر لأهل العلم :

الناس من جهة التمثيل أكفـاء * أبوهـم آدم والأم حـواء
فان يكن لهم فى اصلهم شرف * يفاخرون بـه فالطين والماء
ما الفخر الا لاهل العلم انهم * على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل مرىء ما كان يحسنه * والجاهلون لاهل العلم اعداء
ففز بعلم تعيش حيا بـه ابدا * الناس موتى وأهل العلم أحياء

وفى ذلك ايضا يقول أبو الأسود الدؤلى :

العلم زين وتشريف لصاحبه * فاطلب هديت فنون العلم والأدب
كم سيد بطل آباؤه نجب * كانوا الرءوس فأمسى بعدهم ذنبا
ومقرف خامل الآباء ذا أدب * نال المعالى بالآداب والرتبا
العلم كنز وذخر لافناء له * نعم القرين اذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المال شخص ثم يحرمه * عما قليل فيلقى الذل والحربا
وجامع العلم مغبوط به ابدا * ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه * لا تعدلن به درا ولا ذهبا

— ب —

بعض المراجع التى كتبت فى التربية الاسلامية :

ابن جماعة : بدر الدين ابراهيم سعد الله « تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم » ، تصحيح محمد هاشـــم ، حيدر اباد الدكن ، طبعته جمعية دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٣٤ م وعدد صفحاته ٢٣٦ ص .

المؤلف ولد بالشام ســـنة ٦٣٩ هـ وتعلم بـــه وعمل خطيبا بالقدس وولى قضـــاء مصر ثم عاد ثانية الى الشـــام وتوفى ســـنة ٧٣٣ هـ وقد ألف فى الحديث والأحكام وله رسالة فى الكلام على الاسطرلاب بالاضافـــة الى الرسالة التى بين أيدينا . والكتاب يبدأ بداية تقليدية بالحـــديث عن فضل العلم والعلماء ، ثم ينقســـم الى قسمين الأول عن ادب العـــالم والمعلم ، الثانى عن ادب المتعلم . وبه ملحق عن اداب سكنى المدارس .

أما عن أدب العالم فان ابن جماعة يبدأ بالحـــديث عن ادب العالم فى نفســـه فينصحه بمراقبة الله وصيانة العلم والتخلق بالزهد ، وحسن معاملة النـــاس والابستنكف عن الاستفادة ممن هم دونه . ثم يضـــع للمعلم الآداب والقواعد التى ينبغى اتباعها فى دراسته من حيث مظهره ومجلسه ومعاملته لتلاميذه كما ينصح بنصائح مفيدة فى التدريس مثـــل المحافظة على الهدوء والوقار واتاحة الفرصـــة للأسئلة ويتبع ابن جماعة نفس التقسيم بالنســـبة للتلميذ فيتحدث عن أدب المتعلم مع نفسه ومع شيخـــه وفى الدراســـة والتحصـــيل . وينبغى على المتعلم — كما يرى ابن جماعة — أن يراعى آداب معاملـــة شـــيخه لأن طلب العلم علـــى الشيوخ أصلح من دراسة الكتب ويحدد ابن جماعة حقوق المعلم علـــى التلميذ فى صفحات كثيرة . ويذكر ابن جماعة انه على المتعلم ان يبـــدأ بكتاب الله ســـائر علومه ويحفظ من كل فن مختصرا ويتجنب فى البـــدء اختلافات العلماء وينتقل من البسيط الى المعقد ويحتل الكتاب مكانـــة عظيمة فى التربية الاســـلامية وقد حرص المؤلف على أن يضمنه فصلا عن آداب المتعلم مع الكتب ويختم ابن جماعة كتابه بفصـــل عن آداب سكنى المدارس وهى المؤسسات التعليمية التى بدأت فى الظهور فى القرن الخامس الهجرى وكانت قـــد انتشرت فى زمن المؤلف وربما دفع ابن جماعة الى

كتابة هـذا الفصل أن المدرس كانت داخلية توجب تفصيل آدابها لسالكيها من طلاب وأساتذة .

ابن عبد البر : أبو عمر يوسف ، « جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله » القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٣٤٦ هـ ، ٢ ج . المؤلف هو الحافظ الامام شيخ الاسلام حافظ المغرب أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرين عاصم النمرى القرطبى ولد بقرطبة سنة ٣٦٨ هـ ونشأ بها ولازم فقهاءها وعلماءها وجال فى غرب الأندلس مدة ثم تحول الى شرقيه وسكن مدينة وانية وبلنسية وشاطبة وتولى قضاء اشبونة وسنترين فى أيام ملك بن الافطس وتوفى سنة ٤٦٣ هـ بمدينة شاطبة ولابن عبد البر عدة كتب اخرى مثل : التمهيد بما فى الموطأ من المعانى والاسانيد ، كتاب الاستذكار فى شرح مذاهب علماء الامصار ، كتاب الكافى على مذهب مالك وغير ذلك كثير .

والكتاب الذى بين ايدينا مكون من جزأين يهمنا منه الجزء الأول لأن المؤلف ناقش فيه صلب العملية التعليمية وجوانبها الهامة فى ذلك الوقت فى بلاد الأندلس خاصة وبلاد الاسلام عامة وهو بذلك يعتبر هاديا لأهم الأفكار والاتجاهات التعليمية التى كانت موجودة فى ذلك الوقت .

وقد ابرز ابن عبد البر وجهة نظر الاسلام فى أهمية العلم والسعى فى طلبه والحض على الاستزادة منه وذلك فى أول كتابه موضحا اتجاها من اهم اتجاهات العقيدة الاسلامية .

وقد قارن فى هذا المجال بين أهمية العلم موضحا أهمية العبادة ووضعها على قدم المساواة واستشهد فى ذلك بأقوال الرسول والفقهاء والعلماء والمحدثين وقد ناقش المؤلف مكانة العلماء والمعلمين واحترام شأن الساعين الى العلم .

كما تكلم فى فصل آخر عن التعليم فى الصغر وجمع فى ذلك الفصل طائفة من التوجيهات والارشادات لجوانب التربية فى هذه المرحلة من حياة الانسان .

كما ناقش فى فصل آخر موضوع الرحلة فى طلب العلم والسعى

اليه والصبر فى سبيل الاستزادة منـــه وتكلم عن طريق تحصـــيل العلم والمعرفة ، وقـــال أن أول العلم استماع فحفظ فعمـــل فنشر .

وهو يدعم آراءه بالعديد من الاحاديث والأقوال التى سمعها أو رويت عليه من فقهـــاء عصره أو علماء الأجيال الســــابقة وقد أورد المؤلف بعض طرق التعليم وقـــال أن أفضلها طريقة المناقشة والحوار بين المعلم والمتعلم وأن يثير المدرس شوق التلاميذ بالألغاز التى تحتاج الى سؤال من جانبهم ويمكن للمعلم فى هـــذه الحالة أن يوجه العملية التعليمية الى المواضيع التى يود أن يدرسها .

وقد تكلم ابن عبـــد البر كذلك عن آداب العملية والتعليمية فشرح واجبات المعلم وحقوقه وكذلك موقف المتعلم من معلمه والأصول التى يجب اتباعها خلال العملية التعليمية حتى يتم الأفادة منها بصورة سليمة .

والكتاب فى مجموعة بيان للفلسفة التعليمية فى تلك الفترة وان كان مصبوغا بالصبغة الفقهية والأحاديث والأقوال والاستدلال بمواعظ السلف الا أنه عن طريق ذلك يجمع آراء من عاصروه ومن سبقوه فى كيفية معالجة العملية التعليمية التى كانت تدور فى الغـــالب فى ذلك الوقت حول علوم الـــدين .

الزرنوجى : برهان الدين « كتاب تعليم المتعلم ، طريق التعلم » . الآستانة . مطبعة الجوائب ، ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م ٤٦٠ ص المؤلف من علماء القرن الثالث الهجرى من الذين درسوا على يـــد الفقهـــاء وعلماء البحث الشرعى فى تلك الفترة وتنقلوا بين بلاد المشرق العربى ومغربه . وقد طبع هـــذا الكتاب لأول مرة سنة ١٨٢٦ هـ فى تونس ثم أعيد طبعه مرة أخرى فى مطبعة الجوائب بالآستانه ســـنة ١٢٩٢ هـ .

ويتكون الكتاب من اثنى عشر فصـــلا وخاتمة وذلك بعـــد مقدمة قصيرة عرض فيهـــا المؤلف لسبب تأليف الكتاب فقـــال انه لاحظ أن كثيرا من التلاميذ لايتبعون الطرق الصحيحة فى التعليم مما يؤدى الى اجهادهم دون الوصـــول الى نتائج مثمرة ومن هنا أراد أن يعرض فى هذا الكتاب بعض شروط العلم والتعلم الصـــحيحة وقـــد تكلم المؤلف فى الفصـــل

الأول عن العلم وفضائله وتميز المتعلم على غيره وأن التعلم وسيلة للحياة أفضل روحيا وماديا .

كما ذكر أن المعلم لايقتصر على دراسة الفقه والنحو فحسب بل يجب أن يجاوز ذلك الى دراسة العلوم الأخرى كالطب مثلا ويرى أن ترك الحياة دون علم هو مضيعة لها .

وقد تكلم الزرنوجي فى الفصل الثالث عن الشروط التى يراها واجبة فى المدرس الصالح من حيث توفر العلم وتناسب السن والبعد عن اللغو وهو يسترشد خلال ذلك بأقوال الفقهاء والحكماء أمثال أبى حنيفة وغيره وقد اوصى المؤلف فى هذا الفصل بضرورة الصبر والمجالدة والتعمق فى الدراسة والبعد عن السطحية فى التعامل مع العلوم . كما دعى الى تعظيم المعلم واحترامه حتى يخلص فى تأديه رسالته كما حث على ضرورة مواظبة التلاميذ .

وتكلم المؤلف فى الفصل السادس عن طرق تدريس الأطفال وأن يبدأ معهم المعلم بما هو قريب الى اذهانهم سهل على أفهامهم وأن يستعمل معهم التكرار ويبتعد عن الموضوعات المملة وقد دعى الزرنوجي الى أن يفهم المتعلم كل ما يكتبه لأنه يرى أن المتعلم اذا كتب شيئا لا يفهمه فان ذلك يذهب فطنته وأن العبرة بما يفهم لابما يحفظ ويقول فى ذلك المجال « فهم حرفين خير من حفظ سطرين » وقد ذكر أن التعود على الحفظ مع عدم الفهم مضر لانه يصبح عادة تضيع المعرفة وتضيع العقل .

وقد حرص الزرنوجي على أن تتم العملية التعليمية عن طريق المناقشة المفيدة وهى خير من أن يكرر التلميذ الالفاظ التى تلقنها دون اقتناع كما أوضح المؤلف اهمية الملاحظة فى استيعاب المعلومات لأنها تؤدى الى فهم العقل للدقائق وحب العمل مع العلم ورأى ضرورة كسب المعاش اذا كان ذلك مفروضا الى جانب العلم ولو أنه حبذ التفرغ لأنه فى رأيه أكثر فائدة حيث لايجعل الدارس همه الأول الكسب كما أوصى الزرنوجي بالارتحال فى طلب العلم وعدم الاقتصار على المعارف المحلية كما قال أن أكثر الأشياء فائدة للدارسة هى التمرن على الحفظ بقراءة القرآن وتقليل الأكل أى عدم الافراط فيه وصلاة الليل .

الطوسى : نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن . « رســالة فى فضــل العلم وآداب المتعلمين » . (مرتب على ١٢ فصلا ، مخطوطة بقلم معتاد وعلى هامشها تفسيرات بخط احمد الهزاز الجرينى بن شاهجهان فرغ من كتابتها فى شهر صفر ســنة ١٠٧٤ هـ ١٦٦٣ م باصفهان مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ب ١٩١١٣) .

يعرف المؤلف بالخواجة نصير الدين الطوسى نسبة الى بلد طوس وقد عاصر الغزو المغولى لأراضى الخلافة العباسية واتصــل بهولاكو . واشتغل مع المغول بصــفة خاصــة فى علوم الفلك واسس لهم مرصدا والحق به مكتبة بالعربية والفارسية .

كما اهتم أيضــا بالأخلاق ومن ضمن مؤلفاته فى الأخلاق والعلم ألف رسالته التى تعرضها هنا وهو يمثل بهــا الاتجاه العام فى الفكر الاسلامى الذى عالج التربية لا كعلم مســتقل وانما فى سياق معالجته للأخــلاق أو الفقه أو الفلسفة والرسالة تبدأ ببيان فضــل العلم الذى يحتاج اليــه الانسان ويكون له هدف أو غرض وتكلم عن الفرق بين فرض العين وفرض الكفاية منــه .

ثم تحــدث المؤلف عن أهمية النيــة فى طلب العلم وما ينبغى أن يتحلى به المتعلم من خلق وصبر واجتهــاد واحتقار للدنيا وهى النزعة التى انتشرت مع انتشار التصوف فى المجتمع الاسلامى بعد القرن الخامس الهجرى .

وبعد أن تحدث نصير الدين الطوسى عن أهمية انتقاء الأستاذ — وهى مســألة بالغة الأهمية فى التربية الاســلامية حيث كان التلاميذ احرارا فى اختيارهم لأساتذهم يوضح بعض طرق اداب طلب العلم والاســتذكار وخاصة فيما يتعلق بالوقت المناسب للدراسة .

أما يتعلق بطرق التعلم والتدريس فان الطوسى يوضــح أثر التعود على الحفظ كما ينصح بالابتداء بالبسيط والانتقال منه الى الصعب والفهم قبل الحفظ كما يشير الى أهمية فاعلية التلميذ ومشاركته فى الدروس عن طريق المناقشة وان ذلك اكثر فائدة من التكرار .

وينصح المتعلم بألا يعكف على علم واحــد بل ينتقل بينهما منعا للملل .

ويذكر أن سن الشباب هى أفضـــل الأوقات لطلب العلم كما أن وقت السحر أفضل الأوقات للدراسة . وينهى نصير الدين الطوسى رســـالته بالحديث عن أخلاق التلميذ وأخلاق المعلم وقـــال أن التلميذ يجب أن يكون شاكرا عطوفا عفيفا كريما مجدا فى طلب العلم قليل الشـــبع قليل النوم متجنبا لرفاق الســـوء وأهل الفساد ... الخ أما المعلم فأهم ما ينبغى أن يتحلى به هو الشفقة بالمتعلمين والنفع لهم .

القابسى : أبو الحسن على بن محمد بن خلف . « رســـالة أحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين » . و : « التعليم عند القابسى » تأليف أحمد فؤاد الأهوانى . القـــاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٥ م / ١٣٦٤ هـ من ص ٢٤١ الى ص ٣١٨ مؤلف هذه الرسالة هو أبو الحسن على بن محمد بن خلف المعافرى المعروف بابن القابسى .

وقد ولد فى مدينة قابس (التى تقع على المســـافة بين طرابلس وسفاقس) ســـنة ٣٢٤ هـ وتوفى ٤٠٣ هـ وقـــد رحل المؤلف خلال حياته الى الشرق ثم عاد الى القيروان وكان حافظا للحـــديث عالمـــا زاهدا وله كتب كثيرة قيل انهـــا بلغت خمســـة عشر كتابا منهـــا كتاب « الممهد » فى الفقه وكتاب الاعتقادات وكتاب البعد عن شبه التاويل وغير ذلك كثير ويعتبر هـــذا الكتاب من أهم المؤلفات الاســـلامية التى عالجت موضوع التربية كما أنه يعتبر من أندرها نظرا لأن كاتبه من سكان المغرب الاسلامى وهو يعالج بذلك نظريات التربية الاسلامية عامة .

ويتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء تكلم القابسى فى الجزء الأول منها عن فضائل القرآن وشروط قراءاته وأماكنها ، أما الجزء الثانى فهو يمس العملية التعليمية بطريقة مباشرة فيناقش موقف الوالد الذى لا يعلم ابنه ويعتبر هـــذا موضوعا هاما حيث أن التعليم الأولى كان يقع على عاتق الأب فى ذلك الوقت ولم يكن هناك دافع الى تعليم الأبناء سوى الشعور بأهمية العلم وكان هـــذا مرتبطا فى أذهان النـــاس المقـــدرة على قراءة القرآن وحفظ نصوصه .

تكلم القابسى عن الأماكن التى يتعلم فيهـــا الصبية « الكتاب » كما تكلم ايضـــا عن تعليم الأنثى . ورأى فى هـــذا المجال أن يقتصر تعليمها فضائل القرآن وشروط قراءاته وأماكنها ، أما الجزء الثانى يمس العملية

على العلوم المفيدة كعلوم الدين واللغة فى راية كما ناقش آراء الفقهـــاء فى جواز التدريس لقاء أجر معلوم وخاصـــة فيما يتعلق بتدريس العلوم الدينية وتكلم المؤلف أيضـــا عن منهج التعليم فى ذلـــك الوقت وفروعـــه كالكتابة والخط والاعراب والقراءة .

وقد عالج القابسى موضـــوعا هاما من مواضـــيع العملية التعليمية فتكلم عن العلاقة بين المدرسين والتلاميذ وموضوع العقاب وتحدث عن الضرب كما اشترط المؤلف تكافؤ الفرص بين الصبية فى التعليم وتعرض لطرق تهذيب التلاميذ فى المدرســـة وتنظيم علاقتهم مع بعضهم .

أما الجزء الثالث فيناقش فيـــه القابسى موقف المعلم من العمليـــة التعليمية وواجباته نحوها لكى تتم بصـــورة سليمة كما ذكر عـــدة أمور متفرقة عن اختيار مكان العملية التعليمية وانتقالهـــا من مكان الى آخر وعلاقة المدرس بالآباء وغير ذلك .

الفصل الثانى

اماكن التعليم فى الاسلام

اولا — المرحلة الأولى — مرحلة الكتاب :

المكاتب او (الكتاتيب) :

المكاتب جمع مكتب ، والكتاتيب جمع كتاب وقد اختلف اللغويون فى وضعها الأصلى فقد ورد فى « لسان العرب » : الكتاب موضع تعليم الكتاب ، الجمع كتاتيب والمكاتب(١٦) . وذكر المبرد : أن المكتب هو موضع التعليم ومن جعل الموضع الكتاب فقد اخطأ . والمكتب هو موضع التعليم فى رأى الفيروزابادى ويخطئ رأى الجوهرى فى أن الكتاب والمكتب بمعنى واحد(١٧) .

وقال البستانى : الكتاب جمع الكاتب وموضع التعليم ، والجمع كتاتيب والمكتب موضع التعليم وجمعها مكاتب(١٨) .

ومن هذه التعريفات كلها يظران اللغويين اتفقوا على أن المكاتب هى من مواضع التعليم ولكنهم يختلفوا فى شأن الكتاب ، فبينما يجعله بعضهم مرادفا للمكتب وموضعا من مواضع التعليم يعبر البعض الآخر عن الصبية المتعلمين ويعد استعماله بمعنى موضع للتعليم خطأ(١٩) .

ولكن الثابت أن كلا من المكتب والكتاب مترادفان فى الأذهان بمعنى واحد ، وهو مكان تعليم الصبيان منذ صدر الاسلام والاستعمال الاصطلاحى لكلمتى (مكتب وكتاب) يفيد بأنهما موضع للتعليم الأولى(٢٠) .

---

(١٦) لسان العرب : مادة كتب .

(١٧) القاموس المحيط : مادة كتب .

(١٨) عبد الله فياض تاريخ التربية ، بغداد ١٩٧٢ ، ص ٥٨

(١٩) د. سعيد اسماعيل : معاهد التعليم الاسلامى / ط دار الثقافة بمصر ، ١٩٧٨ م ص ٧٧

(٢٠) انظر الاغانى للأصفهانى ، جـ ٥ ص ٣ ، والبيان والتبين للجاحظ جـ ١ ص ٢٩٧

وهذا ما نميل اليه ونؤيده ، ويرتبط اســم الكتاب فى الأذهان بتعليم القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة والحســاب وقد وجد أول ما وجد فى الاسلام ، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن جبير فى رحلته وكذلك ابن بطوطة من وجود حلقــات للأطفال فى المســاجد يلتفون فيها حول تعليم القرآن وبعد ذلك ظهرت كتاتيب ملحقة بالمســاجد وأخرى منفصلة عنها(٢١) .

وكان القرآن الكريم هو المحور الأساسي الــذى تدور حوله الدراسة فى الكتاب كما أشار الى ذلك ابن خلدون(٢٢) .

وقد كان الكتاب بمثابة المرحلة الأولى فى التعليم كما كانت المدارس بمثابة المرحلة العــالية أو الجامعية حيث كان الصبى يبدأ فيهــا حياته الدراســية وقد كان هناك نوعان من المكاتب وهما المكاتب الخاصــة ، ومكاتب الأيتام أما المكاتب الخاصــة فهى التى يقوم بانشائهــا من يتخذ من التعليم حرفــه لــه ويأخــذ عليــه أجرا وكان يطلق عليهم اســم المؤدبين(٢٣) .

وأما مكاتب الأيتام وهى التي كان ينشؤها أهل الخير والعلم لتعليم الأيتام والفقراء من أولاد المســلمين مجانا ويوقفون عليها الاوقاف ويسير العمــل فيها وفق شروط الواقف وتصرف فيهــا المعاليم النقدية والعينية لهم(٢٤) .

وقد وفرت هــذه المكاتب المجانية الفرص لتعليم صــبيان المسلمين الأيتام والفقراء ممن لايقدرون على التعليم فى المكاتب الخاصــة مما يعــد مفخرة من مفاخر الاســلام وقد شاع فى هــذا العصر بناء هذه المكاتب

---

(٢١) د. أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٥٠ ، د. سعيد اسماعيل : معاهد التعليم الاسلامى ، ص ٨٤

(٢٢) انظر : المقدمة لابن خلدون ، ص ٥٣٧ و ص ٥٣٨

(٢٣) المقريزى ، الخطط ج ٣ ص ١٦٣

(٢٤) ابن الحاج : المــدخل ، ج ٢ ص ٣١٤ ابن الاخوة : معــالم القربة ، ص ١٧٠ ، الشيزرى نهاية الرتبة ص ١٠٣ ، د. احمد شلبى : التربية الاسلامية ، ص ٤٢

المجانية بجوار المســاجد والمدارس والخانقاوات والأربطة والزوايا واطلق عليهــا « مكاتب السـبل »(٢٥) . لأنها كانت تبنى بجوار اسبلة الميـاه أو فوقهــا وكان يخصص لكل مكتب من هــذه المكاتب المجانيــة مؤدب يســاعده عريف يقومان بتعليم الصغار القراءة والكتابــة وحفظ القرآن الكريم وكان يطلق على المؤدب أحيانا اســم الفقيه . أو المعلم والى جانبهما المكتب في بعض الأحيان الذى يقوم بتعليم الصبيان الخط والكتابه(٢٦) .

وكان الغرض من التعليم فى الكتاب نوعان : غرض علمى يرمى الى تزويد الصبى بمبادىء العلوم من قرآن ونحو ولغة وقراءة وكتابــة وحساب وغرض يرمى الى تحســين أخلاقه ، وتربيته التربية الصحيحة السوية ولذلك كانت طريقــة التعلم والتعليم فى هــذه المكاتب طريقة علمية دينية منظمة . وكان يشترط على المؤدب « أن يترفق بالصغير وأن يعلمه السـور القصـــار من القرآن ويدرجه بذلك حتى يألفه طبعا ، ثم يعرفه عقائــد السلف ثم أصـــول الحساب وما يستحسن من المراســلات ، وفى وقت بطالة العــادة يأمرهم بتجويد الخط على المثــال ، ويكلفهم عرض ما املاه عليهم حفظا غائبا (غيبا) لانظرا .

ومن كان عمره ســبع سنين أمره بالصــلاة ويأمرهم جبر الوالدين والانقيــاد لأمرهم بالســمع والطاعة والســلام عليهما وتقبيل أياديهما عند الدخول عليهما ويضربهم على اساءة الأدب والفحش فى الكلام وغير ذلك من الأفعــال الخارجة على قانون الشرع ولا يضرب صــبيا بعصــا غليظة تكسر العظم ولارقيقة لاتؤلم الجســم بل تكون وسطا ، وينبغى على المؤدب ألا يستخدم احد الصبيان فى حوائجه واشغاله(٢٧) .

وكان الصبى عندما يختم القرآن يحتفل بــه احتفالا كبيرا يصلى

---

(٢٥) حجة السـلطان برســباى د. محمــد أمين تاريخ الأوقاف ص ٣٣٧

(٢٦) د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٥١ حجة جمال الاستادار ، وحجة برسباى ، حجة الغورى .

(٢٧) حجة جمال الدين الاستادار ، ١٥٦ أرشيف المحكمة الشرعية .

بمن حضر صـــلاة التروايح فى رمضان(٢٨) واذا ما أتم حفظه جيدا يقام له نوع آخر من الاحتفـــال يسمى (الاصرافة) حيث تزين أرضية المكتب وحيطانه وســـقفه بالحرير ويقوم أهـــل الصبى بتزيينه كما يزينون النساء بقلائد الـــذهب والعنبر ، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه اطباقا فيهـــا ثياب من حرير وعمائم ويسير بين يديه صبيان المكتب ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه لبيته وعندئذ يدخل المؤدب أو الشيخ ويعطى اللوح لأمة فتعطيه ما تقدر عليه ما مال(٢٩) .

أما الصبى الـــذى يتأخر فى حفظ القرآن أو يعجز عن حفظه حتى البلوغ وكان يصرف ويحل محله صبى آخر صـــغير ، حيث كان المكتب يخضـــع لاشراف طبى فيزورة طبيب فى كل شـــهر عند تنزيل الايتـــام للكشف على الصـــبيان ومعرفة من بلغ منهم ، فمن وجـــده الطبيب قـــد بلغ اخبر به الشـــيخ فان وجده لم يتم الحفظ صرفه وجاء بغيره مكانه ولم يكن يستثنى من ذلك الا حالات قليلة(٣٠) .

وكان عـــدد الأطفال أو الصبيان فى المكتب يتراوح بين القلة والكثرة تبعا للوقف الموقوف عليه .

وكان الأطفال المنزلون فى هـــذه المكاتب يختارون من فئات ثلاثة من ابناء المسلمين :

١ — الأيتام وهم الفئة التى انشئت من أجلهـــا مكاتب الســـبيل بدليل انه أطلق عليهـــا اسم (مكاتب الأيتام) فمعظمها كانت تشترط أن يكون الأطفال المنزلون بالمكاتب من الأتيام(٣١) .

٢ — ابناء الفقراء : وهم الفئة الثانية من حيث العـــدد وكان وجودهم بالمكتب مترتبا على وجود الأيتـــام ، لأن المكتب كان يرتب أساسا لتعليم

---

(٢٨) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٢٥٢ ، التبر المسبوك ، ص ٩٨ ، ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٣٠١

(٢٩) ابن الحاج : المدخل ، ج ٢ ص ١٧٠ وما بعدها .

(٣٠) حجة السلطان الغورى ، ٨٨٣ أوقاف .

(٣١) حجة بهادر البيعيدى ، رقم ٢٩ محفظة ٥ دار الوثائق القومية .

الأيتام ، فاذا رأى الناظر ان ينزل بعض الفقراء فله ذلك بشرط الا يزيد العدد عن ما حدد فى وثيقة الواقف بعد انزال الأيتام وتشير حجة السيفى قلمطاى الى ذلك صراحة فتقول : « من بلغ من الايتام الحلم تطع ونزل الناظر غيره وكذلك ان كان من أولاد الفقراء عند تعذر الأيتام(٣٢) .

٣ — أبناء الجند المتقاعدين : ويبدو أن هذه الفئة لم تكن كثيرة فى المكاتب حيث لم نعثر عليها الا فى وثيقة واحدة وهى حجة السيفى بهادر السعيدى اذ يقول : « ويرتب الناظر عشرة من الصبيان الفقراء الذين لم يبلغوا الحلم من الأيتام وغيرهم ممن أبوه حى فقير من الجند البطالين وغيرهم من فقراء المسلمين ومساكينهم(٣٣) .

وبعض المكاتب لم تكن تقتصر فى تعليمها على الاطفال والصبيان فقط ، بل كان ينزل بها بعض الرجال وهى بذلك بمثابة مراكز لمحو الأمية(٣٤) .

ولكن هل يجوز للمؤدب او معلم الكتاب بأن ينزل به زيادة عن العدد الذى حدده الواقف يبدو أن ذلك كان ممكنا بشرط ان يكون المكان متسعا والوقف كافيا ، ولم يشغله ذلك عن تعليم العدد الذى حدده الواقف فى شروطه ، هذا اذا سمح الواقف او لم يحدد العدد المطلوب فى حجته أما اذا حدده فالمؤدب فى هذه الحالة ملتزم بتنفيذ شروطه .

والاتعرض للجزاء أو الطرد(٣٥) . والى جانب التعليم المجانى فى هذه المكاتب كانت تصرف للصبيان المعاليم وهى مبالغ معينة من المال بالاضافة الى قدر من الخبز مقداره رطلان فى معظم المكاتب .

---

(٣٢) انظر : حجة المؤيد شيخ ، ٩٣٨ أوقاف حجة فرج بن برقوق ، ٦٦ ، محفظة ١١ ، دار الوثائق ، حجة تانى باى الرماح ، ١٠١٩ أوقاف ، وغيرها .

(٣٣) حجة السيفى قلمطاى ، ٦٨ ، محفظة ١١ ، دار الوثائق القومية .

(٣٤) حجة السلطان قايتباى ، ٨٨٦ أوقاف .

(٣٥) انظر حجة نصر بن عبد الله الجركسى ، ٥٣٢ أوقاف حجة السيفى ازبك ١٩٨ ، محفظة ٣١ ب دار الوثائق .

وكانت المعاليم تختلف من مكتب لآخر حسب شروط الواقف وغناه ، أما مقـدار الخبز فيكاد يكون ثابتا فى معظمها(٣٦) .

وكما كانت هناك مكاتب لتعليم أولاد المسـلمين من الأيتام والفقراء كانت هنـاك مكاتب خاصـة للنصارى لتعليم أبنائهم . ويمكن من يريد من المسـلمين ادخال ابنه فيهـا لتعليمه ، بعض العلوم التى يجيدهـا النصارى كالحساب مثلا ولكن ذلك لم يكن شائعا خوفا من التأثير على عقيدة الأطفال المسلمين(٣٧) .

ولم تكن هنـاك سن معينة لابتـداء الدراسة حيث يرجع هـذا الى استعداد طفل فى سن خمس سنين(٣٨) كذلك لم تكن هنـاك سـن معينة للانتهـاء من الدراسة حيث يرجع هـذا الى اسـتعداد الطفل وميوله وقابليته للتعليم(٣٩) .

ويبدو أن كثيرا من المكاتب قـد اختصت بتعليم الصـبيان فقط ، ولكن كان هنـاك مكاتب مشتركة لتعليم الصـبيان والبنات كما يتضـح من كلام ابن الحاج عن مؤدب المكتب حيث يقول « وينبغى له أن كان له ولد صغير » الا يترك أحـدا من صبيان مكتبه يحمله ذكرا كان أو أنثى والمنع فى الانثى أشـد ولايستأذن فى مثل هذا الآباء(٤٠) .

ولكن تعليم البنـات فى المكاتب كان يحاط بكثير من القيود فقد نهى عن تعليمهن الكتابة « ولا يعلم الخط لامرأة ولا جارية » لأن ذلك مما يزيد المرأة شرا وقيل ان المرأة التى تتعلم الخط مثل الحية تسقى سما(٤١) .

---

(٣٦) حجة قايتباى ، والمؤيد شيخ ، وجوهر اللالا ، والسيفى أزبك ، والسيفى تلمطاى وغيرها .

(٣٧) ابن الحاج ، المدخل جـ ٢ ص ٣٢٦ ، الأهوانى : التربية فى الاسلام (رسالة القابسى) ص ٣٠٩

(٣٨) ابن حجر رفع الاصر عن قضاة مصر ق ١ ص ٨٥

(٣٩) الابراشى : التربية الاسلامية ، ص ١٩٣

(٤٠) ابن الحاج : المدخل ، جـ ٢ ص ٣٢٢

(٤١) ابن الاخوة معالم القربة ، ص ١٧١ ، الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١٠٤

ومعنى ذلك انه كان يسمح بتعليم الحديث والقرآن للبنت دون تعلم الخط والكتابة . ومع ذلك لم يمنع من وجود نساء كثيرات فى العصر الاسلامى مشهورات فى الحديث والأدب والفقه . مع جودة الخط .

كما سيتضح من خلال حديثنا عن تعليم المرأة وأثرها . وسنذكر الآن نماذج من معلمى ومؤدبى الكتاتيب وبعض المحتسبين عليها . وكان بعضهم يتقاضى عن التعليم أجرا وهذا هو الغالب والبعض الآخر كان يقوم بالتعليم احتسابا لوجه الله تعالى . وبعضهم علم بمكاتب القاهرة وبعضهم كان يعلم فى داره . والثالث جلس ببلدته يخدم أبناءها ويعلم بكتابها وقد وصل بعض هؤلاء المؤدبين الى منصب القضاء والبعض الآخر كانت ثقافته محدودة ضيق الأفق .

كما كان بعضهم قبطيا لايدين بالاسلام خاصة بدرسو الحساب ويبدو أن دخل هذه الوظيفة كان ضئيلا لم يكفهم مؤنة الحياة . فالتمسوها فى بعض الحرف الشريفة كضفر الخوص . والتجارة والتكسب بسقى الماء خاصة فى أوقات شدة الحر واملاء أو نسخ الكتب بالأجرة أو مؤذنا فى مسجد أو مدرسة وغيرها ومن هؤلاء :

١ ــ سلامة بن محمد أحمد بن ابراهيم الادكاوى(٤٢) الصوفى المالكى « تصدى لاقراء الأطفال احتسابا » .

٢ ــ ابراهيم بن على بن نصير بن عطاء الله القاهرى المالكى « المقرىء فى الجوق ويعرف بابن الفوال كان خيرا مأنوس القراءة يتكسب بها وبتأديب الأطفال(٤٣) .

---

(٤٢) ادكو من أعمال ثغر الاسكندرية (التحفة السنية ص ١٣٨ وفى الضوء اللامع نسبة لادكو بالقرب من ساحل البحر الضوء اللامع ج ١١ ص ١٨٣

(٤٣) الضوء اللامع ، ج ١ ص ٩٦

٣ — محمد بن على البارنبارى الدمياطى الشـافعى(٤٤) ويعرف بالشارمساحى(٤٥) ولد سنة ٨٢٠ هـ ١٤١٧ م ببارنبارة ثم انتقل مع والديه لدمياط تصـدى بها لتعليم الأطفال .

٤ — أحمد بن حسن الشهاب الطنانى(٤٦) ثم القـاهرى الحنفى المؤدب ، كان يؤدب الأطفال بحانوت بالزجاجيين ، وله نيابة عن المحتسب للنظر فى فقهـاء المكاتب ، يقرأ المتأهل ويمنع غيره .

٥ — القاضى زين الدين عبد الرحمن الفهنى(٤٧) انتقل الى القاهرة وهو شـاب ، فنزل فى مكتب اليتامى بمدرسـة صرغتمش ، ثم ترقى الى أن صار عريفا .

٦ — عبد الملك بن محمد الزنكلونى المصرى الرجل الصـالح كان يسكن فى دار بجوار جامع عمرو ويؤدب الأطفال .

٧ — قارون بن حسن الهربيطى الصحراوى الشافعى (٧٧١ هـ — ٨٤٢ هـ — ١٣٨٠ — ١٤٣٩ م) كان يؤدب الأطفـال ويقرئهـم بمكتب البيمارستان(٤٨) .

٨ — أحمد بن على البنبى(٤٩) ثم القاهرى الجيزى الشافعى نزيل الخروبية ومؤدب الأطفال ٧٧٠ — ذى الحجة ٨٤٨ هـ / ١٣٦٩ — ١٤٤٥ ،

---

(٤٤) بارنبارة بلدة من اعمـال الدقهلية والمرتاحية التحفة السنية ص ٥٠ أما السخاوى فيقول انها نسبة لبارنبارة بالمزاحمتين بالقرب من من رشيد الضوء اللامع جـ١ ص ١٨٨ ، وفى التحفة السنية (بورنبارة) تتبع فوة ولعلها التى يقصدها السخاوى والتحفة السنية ص ١٣٧

(٤٥) شارمساح من الدقهلية والمرتاحية التحفة السنية ص ٥٤ أما السخاوى فيقول انها قرية من ريف مصر .

(٤٦) طنان مركز قليوب من القليوبية التحفة السنية ص ٧٤

(٤٧) فهنا وكفورها قرية من الغربية مركز زفتى الآن التحفة السنية ص ٧٤

(٤٨) الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٠٦

(٤٩) بنب أصلها بمم من اعمـال ابيار وجزيرة بنى نصر (التحفة السنية ص ١١٣) .

لما جعل المؤيد شيخ الخروبية مدرسة انتقل البنبى الى الجيزة وقطن هذه المدرسة وتصدى لتعليم الاطفال بها .

٩ — على نور الدين الضرير المقرىء (ت فى صفر سنة ٨٥٣ هـ ١٤٤٩ م) كان يؤدب الأطفال بالمسجد المجاور لجامع المغاربة بباب الشعرية .

١٠ — على نور الدين شيخ المعياد بزاوية الشيخ على البطائحى السدار برأس حارة الروم من القاهرة (ب فى ذى الحجة ٨٥٢ هـ — ١٤٤٩ م) كان يؤدب الأطفال فى هذه الزاوية(٥٠) .

١١ — محمد بن محمد العجمى الأصل السمنودى الشافعى تصدر لتعليم الأبناء ببلده .

١٢ — احمد بن حسن المحلى الشافعى المقرىء ويعرف بابن جليدة ، أم بجامع العمرى بالمحلة تصدر لاقراء الأطفال دهرا ، وت فى شوال ٨٧٤ — ١٤٧٠ م(٥٢) .

١٣ — احمد بن محمد الشهاب التركمانى القاهرى الشافعى ولد بالقاهرة ٧٨٤ هـ — ١٣٨٢ م اقرأ الأطفال . تكسب فى بعض سنى الغلاء بسقى الماء .

١٤ — الشيخ تقى الدين ابو بكر الابيارى المصرى الصوفى (ت ٩٤٤ — ١٥٣٧)م كان يقرىء الأطفال احتسابا ولم يتقاضى على التعليم أجرا .

كما كان كريما موردا للفقراء ببلدة أبيار لا ينقطع عنه الضيف ومع ذلك لا راتب له ولا معلوم بل ينفق من حيث لا يحتسب(٥٣) .

هذا عن تعليم أطفال الشعب من الأيتام والفقراء ، اما تعليم اطفال المماليك ، فقد كانوا بمنأى عن الشعب المصرى واطفاله لينشئوا نشأة خاصة حيث لا يعرفون لهم أبا أو أما الا السلطان أو الأمير .

---

(٥٠) الضوء اللامع ج ٣ ص ٣٢٠

(٥١) سمنود احدى مراكز الغربية الآن ، التحفة السنية ص ٨٠

(٥٢) الضوء اللامع ، ج ١ ص ٢٧٩

(٥٣) شذرات الذهب ، ج ٨ ص ٢٦٠

تربيــة وتعليم المماليك

تمهيد : بعد أن تكلمنا عن تعليم الأطفال الصغار فى الكتاتيب يجدر بنا أن نتكلم عن تعليم المماليك الصــغار ايضا وكيف كانوا يربون فى طباق القلعة .

وليس من المعقول ونحن نتكلم عن التعليم ان نهمل تعليم المماليك وقد كان فيهم الفارس المغوار والأديب الأريب والفقيــه البارع والطبيب النطاسى والقاضى المــاهر وغيرهم وكلهم يدافعون عن شرف الاســلام وعزتــه .

وقد تعددت الأصــول التى جاء منهــا المماليك اذ نجد منهم الأتراك والجراكسة والمغول والصقالبة واليونانيين والأسبان والألمــان وغيرهم . وقد ســاعد ذلك على ادخال العديد من العناصر الثقافيــة التى تنتمى الى هذه الأصول وان كان انتشــارها قد ظل محدودا نظرا لأن المماليك كانوا يمثلون ارستقراطية حاكمة بوصفهم الجهــاز الحربى الذى استأثر بحكم البلاد والدفاع عنها وهم فى الأصــل عبيدا يمتلكون بالمــال ويستخدمون كحرس للسلاطين : يشتريهم الســادة بقصد استمرارهم فى حكم البلاد عن طريق حكومة أقلية عسكرية .

وعلى هــذا فقد كانوا أرقاء بحكم النشــأة والمصدر ، متعطشين للدماء بحكم التربية والاحتراف . فلما زاد عددهم استولوا على الحــكم وراحوا يستأسدون على النــاس المســلمين بالنهب والرشــوة والجلد والخوزقة والتوسيط حتى تناقص عــدد سكان مصر بسببهم عن طريق الهجرة وعــدم الاستقرار وعن طريق المجاعات والأوبئة الى نحو المليونين والنصف تقريبا .

وكانوا مقدرين أيام الفراعنة بنحو ثمانية ملايين تقريبا وقد اقتصرت تربية المماليك على رهط اجنبى عن البلاد ظل الى ان اختفى من مسرح التاريخ يأنف الاختلاط بالمصريين ، ويرى أنهم دونه وعلى ذلك ظلت تربيتهم وثقافتهم بمعزل عن الشعب المصرى وثقافته .

كان كبار الأمراء يشترون الغلمان من المماليك ليكونوا عدة لهم ثم يعلمونهم ويربونهم فى قصــورهم ثم ينقلونهم الى الكتاب الخــاص ثــم

يصقلونهم فى ميـــادين السباق والبراز والحرب أى أن تربية المماليك كانت تتميز بالتعليم الحربى مـــع قليل من التعليم المـــدنى ، فكانوا كما يقول سير وليم موير « يربون فى مـــدارس الحرب ومعـــاهد العلم وكانوا فى حداثه سنهم ينبغون أحيانا فى الفلســـفة والفقه والعلوم والعربيـــة وفى الفروسية واستخدام الأسلحة فيصيرون بذلك جديرين بالوظائف السلمية وولاية الأمور(٥٤) . ولكن ذلك لم يدم طويلا وأكبر الظن أن تطاحن أحزابهم على حكم البلاد ، وانهماكهم فى تكثير أعوانهم وحاشيتهم ، وأخذهم بالمران الحربى ، صرف كبار أمراء المماليك عن أخذ غلمانهم « بالفلســـفة والفقه والحرب » .

وأن بقيت لهم عتاد الحرب وعدته ، فبرعوا فى ركوب الخيل والضرب بالسيف والرمح .

كما أنهم لم ينسوا أيضـــا أن يتعلموا القراءة والكتابة(٥٥) . وفى أول عهد ســـلاطين المماليك كان هناك عرفا سائدا الا تجلب التجار الى مصر الا صـــغار المماليك فأول ما يبدأ المملوك تعليمه ما اصطلح على تسميته برسم الكتابة(٥٦) وهو أن يحفظ المملوك أجزاء من القرآن الكريم أو القرآن كله .

ولكل طائفة من المماليك فقيه يحضر اليهـــا كل يوم ويأخذ فى تعليمها القرآن والخط وآداب الشريعة والصـــلوات والأذكار ، فاذا شب الواحد منهم عن الطوق علمه الفقيه شيئا من الفقه وأقراه فيه مقدمة فاذا صـــار الى سن البلوغ قام معلمه بتعليمه أنواع وفنون الفروسية والحرب من رمى

---

(٥٤) سير وليم موير : تاريخ دولـــة المماليك فى مصر ، ترجمـــة الأستاذين ، محمود عابدين وسليم حسن ، ص ١٨٨

(٥٥) د. أحمد عزت عبد الكريم : التعليم فى مصر فى عصر محمد على ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٥٦) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٧٦ .

السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف ، ويشرح لهم ميادين القتال(٥٧) ، نظريا وعمليا وغير ذلك .

وقد قام على تعليم الفروسية للمماليك معلمون اشتهروا باجادة فنونها المختلفة من الطعن والضرب والرمى بالسيف والقوس بل أن بعض هؤلاء الاساتذة ألفوا كتبا تناولت أصـــول الفروسية وآدابها ومراحل التعليم الحربى والطرق المختلفة لتلقين المتعلم أساليب الفروســـية وممارســـة الألعاب التى تســـاعد على الاتقـــان والاجادة . وكذلك تخريج المماليك وتوظيفهم .

وينتقل المملوك بعـــد تمرينه وعتقه الى الخدمة فى الجيش المملوكى ، فيتدرج فى أطوارها رتبة بعد رتبة حتى يصـــبح من الامراء فيبلغ بذلك بعد أن تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الاســـلام واهله بقلبه واشتد ساعده فى رماية النشاب .

وقد جنح بعض المماليك ــ حسب موهبة كل منهم الى الدراســـة الفقهية أو اللغوية أو الفنون كالخطوط والتجليد والزخرفـــة او غيرها من الدراسات الدينية الأخرى فصار لذلـــك منهم الخطاط المذهب واللغوى والمهندس والحاسب الفلكى وما الى ذلك .

---

(٥٧) وهو ما يطلقون عليـــه فى الجيش اليوم « تختة الرمل وهى عبارة عن نموذج مصغر لميدان القتـــال جيشنا وجيش العدو ، منافذنا التى يمكن ان ينفذ منهـــا ومنافذه التى يمكن ان تقتحم تحصيناتها ومواقع خطوط الدفاع والهجوم والمجاور الرئيسية والفرعية لسير المركبات ثم للمشاة وغير ذلك . تكون غالبا فى مكان مرتفع عن الأرض ومرسوم عليهـــا مرتفعات تمثل الجبال ومنخفضات تمثل الوهاد ويستخدم فى عمل ذلـــك الرمل والزلط والحجارة والخشب وغير ذلك من الحديد والسلك الشائك) الباحث .

وفى أثناء المراحل التعليمية المختلفة لتعليم المماليك فى الطباق أشرف على هـذه المرحله جميعها جماعة من الطواشية(٥٨) لانهم المسئولون عن جماعة المماليك وتربيتهم وسلوكهم وعـدم اختلاط الكبار بالصـغار منهم وكيفما كان الامر فقـد اعتنى السلاطين بتربية المماليك ، فى الادوار الأولى من حياتهم ، فخصصـو لهم عـددا من الخـدم واكابر رؤسـاء النوب يفحصون حال الواحد منهم ويناقشونه ويؤاخذونه على حركاته وسكناته ، فاذا علم واحـد منهم أن مملوكا من المماليك اقترف ذنبا او اخـل برسم ، أو ترك شـعيرة أو ادبا من آداب الـدين والدنيا ، قابله بالعقوبة على قدر جرمه .

ففى صفر سنة (٨٠١ هـ — ١٣٩٨ م حـدث خلاف وشقاق بين بعض المماليك المتعلمين وحقد هـذا على صـاحبه ، فأملى اسمه ضمن مجموعة منهما اياها باحـداث فتنه وشغب وذهب الى الفقيه ليشـهد على ذلك وليكتب تقريرا عن هـذه الحادثة ، وحملها المملوك الى السـلطان فلما قرئت عليه احضر المذكورين واخبرهم بما حـدث ، فرموا سيوفهم وحلوا أوساطهم وقالوا « يوسطنا السـلطان ، والا يخبرنا بمن قـال هـذا عنـا » . فسلم السـلطان اليهم المملوك ، فضربوه ما يقرب من الف عصـا ، فقال بعد العقوبة « انا اختلقت هـذا حنقا من فلان وسمى هذا الشخص الذى خاصمه فأحضر الفقية الـذى كتب الورقة ليضرب بالمقارع ويسمر ثم يشفع فيه من القتل ليسجن بخزائة شمايل(٥٩) وهـذا جزاء من يثير فتنة أو شغبا فى طباق المماليك أن يضرب على يده بشدة » .

---

(٥٨) الطواشية جمع طواشى ، وهو ما يطلق عليه الفقهاء المجبوب والممسوح فالمجبوب هو من قطعت انثياه ، وتطلق عليه كتب التاريخ الخصى ، أما الممسوح فهو ما قطع منه عضو التذكير مع الخصيتين ، ولكل من النوعين أعمال نيطت بهما فالخصى كان يكلف بأعمال المشروبات وتوزيع الشربات فى المناسبات والممسوح هو من يـدخل مع حريم السـلطان والأمراء الى الحمام حتى يدلك لهن جسمهن ونظرا لانقطاع شهوته ترك لهـذا العمل كأنثى مع أنثى وكان يقوم بعملية الخصى هـذه جماعة من اقباط مصر لان المسلم يأبى هذا العمل اللانسانى .

(٥٩) بدائع الزهور جـ ١ (ط المسانيا)ص ٥١٣ ، ٥١٤ .

(طباق القلعة وتربية المماليك):

ونبدأ حديثنا عن طباق القلعة والتي تشبه الكتاتيب ومنها :

١ ـ **طبقة الرفرف** : أصل الرفرف من عمارة الملك الأشرف خليل بن قلاوون بقلعة الجبل وقد جعله عاليا يشرف على الجيزة ، وبيضه وزخرفه ، وصور فيه أمراء دولته وخواصها وعقد عليه قبة على عمد زخرفها وزركشها وكان دائم الجلوس فيه . ثم هدمه أخوه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢ هـ ـ ١٣١٢ م وعمل به برجا بجوار الاسطبل ونقل اليه بعض المماليك فأصبح طبقة لهم .

٢ ـ **الطبقة الصندلية** : نسبة الى الأمير الطواشي صندل بن عبد الله المنجكى(٦٠) العابد الصالح الزاهد ، خازندار الملك الظاهر بوقوق وعظيم دولته(٦١) .

٣ ـ **طبقة الغور** : هى الخاصة بسكن المماليك المجلوبين من بلاد الغور (أفغانستان الحالية) اذ كانت كل طبقة تسمى بأسماء الجهات التي ينسب اليها سكانها وقد تعلم بهذه الطبقة السلطان قنصوه الغورى .

٤ ـ **الطبقة الأشرفية** : وقد جلس بها الأمير « ططر » بعد موت المؤيد شيخ يدير أمر الدولة ثم سكنها .

٥ ـ **الطبقة الخامسة** : التي أنشأها السلطان قنصوة الغورى وكانت سببا في ثورة الجلبان عليه بل ثورة خاصكيته عليه أيضا مما اضطره الى الغائها .

ونظرا لكثرة الشغب في طباق القلعة الأخرى خاصة بعد انشاء الغورى للطبقة الخامسة من خاصته ، اضطر الى الغائها ، وتوزيع

---

(٦٠) ترجمته بالمنهل الصافي ، مجلد ٢ ورقة ٢١٦ ، الضوء اللامع ، ج ٣ ص ٣٢٢ نمرة ١٢٤

(٦١) خطط المقريزى ، حـ ٢ ص ٢١٣ ، النجوم الزاهرة جـ ١٥ ص ٥٠٤ حاشية رقم ١ ، زبدة الكشف المماليك ص ٢٧ ، الضوء اللامع حـ ٧ ص ٢١٠

(٦٢) النجوم الزهراء ، حـ ١٤ ص ١٦٩

مماليكها على الطباق الاربع ، كما كانوا من قبل ، وأصبح العسكر شيئا واحدا فى تفريق الجامكية ، وبطل أمر الطبقة الخامسة بعد أن كثر القيل والقال فى أمر الطبقة الجديدة .

٦ — طبقة الحوش : نظرا لكثرة الدبيب والجرى والشغب بين الجلبان ، هدمت هذه الطبقة ووقعت يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول ٩١٦ هـ — ١٥١١ م فقتل تحت الردم عدد من المماليك وجرح آخرون وأصيبوا بالعطب ، « كانت حادثةمهولة » .

هذه تقريبا أشهر طباق القلعة التى تعلم فيها المماليك ، وهناك طباق أخرى غير مشهورة ويفهم من المراجع أن طباق القلعة كانت اقساما بعضها للصغار وبعضها لمن يلونهم ممن أنهوا حفظ القرآن وتعلم الكتابة والحساب ، والا فأين يتعلمون فنون الحرب قبل أن يبرزوا للسباق والرماح فى الميدان .

وسنذكر طائفة من مؤدبى المماليك ومعلميهم ومنهم القضاة وغيرهم . ومنهم المعلمون الخصوصيون للسلاطين وأبنائهم والأمراء وأولادهم ومماليكهم ، وكان منهم كذلك الخطاطون والمهندسون والفلكيون والأصوليون وغيرهم ومنهم :

١ — أبو الفتح المنوفى القلعى الشافعى (٨٢١ / جمادى الآخرة — ٨٨٩ هـ / ٤١٨ — ١٤٨٤ م) كان يجيد اللسان التركى ، لذا درس عند الأمير يشبك من مهدى . درس للمماليك القرآن وغيره بالطبقة الصندلية .

٢ — احمد بن على الشهاب أبو العباس الأنصارى النشرتى تكسب باقراء المماليك بالطباق السلطانية .

٣ — محمد بن أحمد أحمد الكنانى العسقلانى الطوخى(٦٣) . الأصل — طوخ بنى مزيد — القاهرى الشافعى المولود بالمدرسة البكارية بالقاهرة كان يقرىء المماليك ببعض طباق القلعة .

٤ — كما قام بعض العلماء بتعليم السلاطين انفسهم أو أبناءهم ، وكذلك أمراء المماليك أو أبناءهم ، نذكر منهم العلامة « محمود بن محمد

---

(٦٣) راجع : التحفة السنية ، ص ٨٦

بن ابراهيم بن احمد الاقصرائى القاهرى الحنفى » اتصـل بالمؤيد شـيخ فعظم قـدره ودرس الفقـه لولده ابراهيم(٦٤) ومن اجل هـذا قرره المؤيد فى تدريس الكشاف بمدرسته ، وزادت منزلته لدى الظاهر « ططر » .

٥ — محمد الشمس بن الجندى كان رجـلا صـالحا يقرأ القرآن ويقرئه المماليك بالطباق وكان يقرئه أولاد الظاهر جقمق(٦٥) .

تخرج الفرسان الصغار :

لم تعطنا المراجع المعاصرة ما يشفى غلتنا نحو سير الدراسة ، وشكل الطبقة التى يقيم فيهـا المماليك وهل يدرسـون فيها فقط او يبيتون فيها أيضـا ، وما هى المدة التى يقضيهـا المملوك الصغير حتى ينتقـل الى مرحلة الفروسـية ، وما هى المدة التى يقضيهـا المملوك الشاب فى تعلم فنون الحرب وغير ذلك أسئلة كثيرة ، الاجابات عليها هى مجالات لأبحاث جديدة وشيقة .

وليس الا النجوم الزاهرة هى التى أعطتنـا اشـارة سريعة عن تخريج المماليك ، حيث يذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى : أن عادة السلطان برقوق ألا يخرج لمماليكه الجلبان خيلا الا بعد اقامتهم فى الأطبـاق عـدة سنين ، وأنه لايخرج فى سـنة واحدة خرجين ، وانما كان يخرج فى كل مدة طويلة خرجا من مماليكه ، ثم يتبعه بعـد ذلك بمدة طويلة بخرج آخر وهذه كانت عادة ملوك السلف(٦٦) .

---

(٦٤) البدر الطالع ، جـ ١ ص ١٣ — ١٦
(٦٥) الضوء اللامع ، جـ ٤ ص ٢٩٧ نمرة ٧٨٩
(٦٦) النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ١٩٩

ثانيا — المساجد والجوامع ودورها فى الحياة العلمية :

تمهيـــــد :

لمـا كانت رسالة المسـجد هى رسالة الاسـلام الخالدة ، وكان للمسـجد قديما آثاره فى المجتمع الاسـلامى ، وهى الآثار التى قامت عليها دولة الاسـلام الكبرى ، ولمـا كان المسـلمون يتطلعون من خلال القرون الغابرة الى تلك المسـاجد ويرجون أن يعود اليهـا مجدها القـديم ، حيث كان المسـجد — بالاضافة الى كونه بيت عبـادة — مدرسة للعلم والادب ، ومعهدا لنشر المذاهب الدينية ، والآراء الفلسفية ، والنظريات السياسية .

من أجل ذلـك كان الحـديث عن دور المسـجد ليس فى النواحى العلمية فحسـب ، ولكن أيضـا فى كونة مكانا للافتاء والقضـاء ، ومقرا لشـحن المجاهـدين المسـلمين بالزاد الروحى حيث ينطلقون منـه الى ساحات الجهاد ، ومركزا يرتاده المسـلمون ليتعلموا أصول دينهم ومقارعة الخصوم ، والقدرة على الاقناع عن علم ومعرفة بأحكام الدين ، وليكون أيضـا دار ندوة يجتمع فيهـا المسلمون للتشاور فى أمور دينهم ودنياهم وساحة تتجمع فيهـا الجيوش ، وموضعا لاستقبال السـفراء والقصاد وغيرهم .

وبالاضافة الى ذلك فقـد كان الخلفا يتلقون فيه البيعة من الناس ومن على منبره يحددون سياساتهم تجاه رعاياهم ...

كان المسجد كذلك فى العصـور الوسطى الاسـلامية مكانا لتثبيت المراسيم وما يريـد أن يقوله السـلطان أو الأمير للنـاس فى النواحى الاقتصـادية والاجتماعية ، حيث قام — بكل الفخر — بدور هام كوزارة الاعلام فى وقتنا الحاضر .

وسنفصل ما سبق ان شرحناه باختصار حتى تتضح الصـورة لذى عينين وذلك من خلال الصفحات التالية .

وقـد سمى المسجد « بيت الله » فلا يحتاج الداخل فيه الى استئذان ولا الى استئناس للدخول سواء كان للدراسة أو للتعبد ...

وسنشير أولا الى التخطيط المعمارى للمسجد ثم نعقبه بالحديث عن استخدامات المسجد ..

التخطيط المعمارى للمسجد :

ارتبط انشـــاء المساجد بالعقيدة الاســـلامية التى تغلغلت فى نفوس معتنقيهـــا لسماحتها وملائمتها لطبيعة النفس البشرية ، ولحرصها على الاسعاد فى الدارين .

ولذلك نجـــد القرآن الكريم يحث على انشـــاء المساجد فى نحو قوله تعـــالى : « انما يعمر مســـاجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقـــام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشى الا الله » .

وقد ظهر تخطيط المســـجد أول الأمر من النوع الذى يتوسطه صحن مكشوف محاط بأربعة أروقة (أواوين) اكبرها رواق القبلة وبه المحراب الذى يوجه المســـلمين نحو القبلة .

والمنبر الـــذى يعلوه الخطيب ليلقى خطبة الجمعة والأعياد ، وبـــه الأريكة أو دكة قارىء القرآن قبل الجمعة ، ومن عليهـــا يبلغ المـــأمومين صـــوت الامام هذا وقـــد كان كل ايوان من الأواوين الأربعة الســـابقة بمثابة مدرسة لتدريس مذهب من المذاهب الأربعة الاسلامية وهى : الحنفى والشافعى والمـــالكى والحنبلى وذلك بعد ظهور المدارس الاســـلامية وهو النوع الذى تطور فى العصر المملوكى واطلق عليه المتقاطع المتعامد .

أهم العناصر التى يتكون منها المسجد :

يتكون المســـجد عادة من عدة عناصر هى بيت الصـــلاة (رواق القبلة) والمقصـــورة ، والصحن ، والمحراب أو القبلة ، والمنبر ، والمئذنة وغيرها ، ومن أهمها :

١ — رواق القبلة أو بيت الصلاة :

ويحتوى على سقيفة تحملهـــا صفوف من الأعمدة(٦٧) المتصلة ببعضها من أعلا عن طريق عقود أو اقواس وقـــد تكون هذه الصفوف متعـــامدة على جدار القبلة ، ويطلق على الممر الواقع بين صفين من الأعمدة (فى

---

(٦٧) جمع عمود ويطلق البعض عليه أسطوانة ، وهو يتكون معماريا من : قاعدة ، وبدن ، وتاج .

هذه الحالة) اسـم « بلاطة » أما اذا كانت الصفوف موازية لجـدار القبلة فالمر الواقع بين صفين من الأعمدة يسمى حينئذ « أسكوب » .

ولكل مسـجد محراب ، وقـد يكون بالجامع اكثر من محراب ، وعلى يمينه يقع المنبر الذى يصنع عادة من الخشـب المزركش وقد يصنع من الرخام أو الحجر أو الطوب وغير ذلك ، وهو عبارة عن درج يصـعد عليه الامام لالقاء الخطبة .

وفى وسط رواق القبلة تقريبـا بناء محمول على اعمدة قليلة الارتفاع يسمى « الدكة » يصـعد اليها المؤذن للأذان داخل المسـجد قبل اداء صـلاة الجمعة كما هو الحال الآن فى المساجد الكبيرة .

٢ — صحن المسـجد :

صحن المسـاجد الاسلامية الكبيرة القديمة يكون مكشوفا دائما ، ومن ثلاث جهات تحيط بـه فى الغالب ثلاث سقائق محمولة على صف أو أكثر من الاعمدة .

ويتوسط الصـحن احيانا بناء مثمن الشـكل تقريبا ، تعلوه قبـة كانت تحفظ فيها الأموال وقـد عرفت هذه القبة « ببيت المـال »(٦٨) .

وكان صحن المسـجد يكسى بالفسيفساء أو يفرش بالحصى ، وعلى جانب من جوانب المسـجد تقام المئذنة التى أصبحت فيما بعد من ابرز العناصر المعمارية فى المساجد .

وتشير الدكتورة سعاد ماهر الى أن تخطيط المسـجد فى الغـالب مربع فى العراق وايران ومسـتطيل فى مصر والشام وشـمال أفريقيا ، ويرجع السبب فى ذلك الى ان اماكن العبادة السـابقة على الاسلام فى بلاد ما بين النهرين ، كانت ذات تخطيط مربع ، وهى بيوت النـار « معابد

---

(٦٨) عبد العزيز محمد اللميلم : رسالة المسجد فى الاسـلام بحث ماجستير بكلية اللغة العربية سنة ١٩٧٥ م ص ١٤

المجوس » أما فى غرب العـــالم الاسلامى حيث كانت تنتشر المسيحية فكانت كنائسهم معظمها ذات تخطيط مستطيل(٦٩) .

أما المقصـــورة فى المســـجد فهى حجرة جانبية يجلس فيها السلطان أو الأمير الى أن يحين وقت الصلاة ...

والحقيقة انهـــا بدعة اقتضتها الظروف السياسية لحمايـــة الحكام من خطر التعرض للاغتيالات السياســـية ، وذلـــك منـــذ أيام معاويـــة بن ابى سفيان ، حينما تآمر ثلاثة من الخوارج لقتل معاوية وعلى بن أبى طالب وعمرو بن العـــاص ، فلما نجا معاوية امر بانشـــاء المقصورة حفاظا عليه مستقبلا من الاغتيال ، ثم اصبحت تقليدا ســـار عليه الخلفاء والحكام من بعـــده .

استخدامات المســـجد(*) :

استخدم المســـجد منذ انشائه فى عصـــور الاسلام الزاهرة مجلسا للشورى ومحكمة للقضـــاء ودارا للافتاء ، ومدرســـة لحلقات العـــلم ، وثكنة للجيش تخرج منه السرايا وتجهز الجيوش للجهاد فى ســـبيل اعلاء كلمة الله ، وفيه كانت تســـتقبل الوفود القادمة الى المدينـــة للدخول فى الاســـلام .

فقد كان المســـلمون اذا فتحوا بلدا ، أنشـــأوا فيه مسجدا جامعا ، دلالة على أن هـــذا البلد أصبح جزءا من الدولة الاســـلامية ، وكان انشاء

---

(٦٩) د. سعاد ماهر : مساجد مصر واولياؤها الصـــالحون حـ ١ ص ١٨ ، وللرد على راى المستشرقين بخصوص اقتباس نظام المسجد من المعابد والكنائس يراجع كتاب د. احمد فكرى : المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ط دار المعارف بمصر .

(*) المسجد هو مكان السجود ، ويطلق عادة على مكان الســـجود صغر أو كبر : أما الجامع فهو المكان الكبير الواسع الذى يقام عادة فى البلدة أو المصر ويتسع عادة لعدد كبير من الناس لايقل عن اربعين شخصا عند الشافعية ، الذين اشترطوا لصحة الجمعة فى المصر ان تكون فى مكان واحد بالبلدة وهو الجامع الذى يجمع أهل البلدة جميعا .

المسجد اعلانا لسيادة دين الله ولم يكن معناه قط سيادة الغالبين على المغلوبين ، ففى خطب الجمعة الأولى التى القيت فى جوامع كل من البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان والزيتونة والأزهر وغيرها لاتجد أية اشارة الى انتصار او فتح أو غلبة وانما تجد شكرا الله تعالى على فتح البلد او ذاك للاسلام ، عكس ما نشاهده فى العصور المتأخرة من أن المنتصرين كانوا اذا فتحوا بلدا ، رفعوا عليه راية الفاتح ، وعلم الدولة المنتصرة فوق العاصمة ، دليلا على النصر والقوة والسيادة(٧٠) .

كان المسجد فى العصور الوسطى هو كل شىء فى حياة المسلم ، فهو **المعبد** الذى يعبد فيه الله ينسى المسلمون فيه أحقادهم وشرورهم ومطامعهم وفسادهم ، ويدخلون اليه بقلوب متفتحة للايمان مطيعة بالخشوع ، ثم يقومون صفا واحدا يستوى فيه الصغير والكبير والغنى والفقير والعامل والمدير ، اكتافهم متزاحمة ، واقدامهم متراصة ، وجباههم جميعا على الأرض يستوون فى شرف العبودية لله رب العالمين .

وكان المسجد هو **البرلمان** ، فان المسلمين ماحزبهم أمر ولا عرض لهم عارض الا نودى « الصلاة جامعة » حيث يجتمع المسلمون للتشاور فى درء الأخطار وحل المعضلات والمشكلات .

وهو **النادى** : ان قدم أمير بلدا كان أول ما يدخله هو المسجد الجامع ، ومن فوق منبره يعلن سياسته التى سينتهجها فى حياته .

وهو **المدرسة** : ففى المسجد وضعت أساس الثقافة الاسلامية التى اثرت حياة المسلمين علما وفقها وحديثا وتشريعا ، وملئت الأرض نورا واشعاعا . .

وهو **المحكمة** : فأمام اعمدة المساجد الجامعة واساطينها وعلى بسطها أقيمت المحاكم ، وصدرت الأحكام العادلة التى سطرت أروع صفحات القضاء البشرى ، ولطالما تخاصم فيها العمال مع أمير المؤمنين امام القضاة ، الذين حكموا للعمال على أمير المؤمنين لاخوتا

---

(٧٠) د. حسين مؤنس : مساجد الاسلام والمسلمين فى شتى العصور — مجلة العربى عدد ٥٦ رمضان ١٣٩١ هـ — نوفمبر ١٩٧١ م .

ولا وجلا من ســـلطته وسطوته ولكنهم لا تأخذهم فى الحق لومة لائم . كل هذا كان يجرى فى رحاب المسجد وبين جنباته .

وقد استخدم المســجد ليكون **منتدى** لجماعة المســلمين ، به تقوى روابطهم ، وتتوثق بـــه صلاتهم ، فيتشاورون فيما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم ، ويتباحثون فيما يعود بالخير على جماعتهم ، فكانت تقــام فيه صــلاة الجماعة خمس مرات فى اليوم ، ثم تقــام فيه مرة كل اســبوع صلاة الجمعة ، ثم صلاة العيد مرتين فى العام .

وأخير وليس أخيرا كان المســجد يقوم بدور **الاعلام** ، حيث كان السلاطين والملوك والأمراء كلما أصــدروا مرسوما من المراسيم الاقتصادية أو الاجتماعية نقشوه على حجر من الرخام ووضع فى صــدر المسجد من الداخل أو الخارج حيث يراه كل الداخلين اليه .

وقد اختير المســجد مكانا للاعلام والاعلان — وهى مهمه اعلامية تشــبه ما تقوم بــه المؤسسات الصحفية فى عصرنا الحاضر — لأنه مكان اجتماع النــاس للصلاة الجامعة والجماعة ، كما أن قدسية المســجد تمنع الناس من أن يمسوا الاعلان بسوء .

وهذه المراسيم كانت تعالج بعض أوجه القصور الموجودة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية وغيرها .

ومن المراسيم الاجتماعية مرســوم صدر عن الســلطان « برقوق بن انس العثمانى » أول ســلاطين المماليك الجراكسة بمصر ، عثر عليه المرحوم الأثرى حسن عبد الوهاب ، وهو مثبت الآن أمام باب المدرســة الاقبغاوية على يسار الداخل الى الأزهر من باب المزينين .

ونصــه هو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، رســم بالأمر الشريف الســلطانى الملكى ، الظاهر أبو ســعيد برقوق عز نصره ، أن موجود من يتوفى الى الله تعــالى من الفقراء المجاورين بالجامع الأزهر ، وأرباب وظائفه ، ولم يكن لــه وارث شرعى ، يكون لصــالح الجامع الأزهر ، بمقتضى العلامة الشريفة بتاريخ ســابع شــهر ربيع الأول ســنة ٧٩٢ اثنتين وتسعين وسبعمائة »(٧١) .

---

(٧١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٧٦

واهم استخدامات المسجد على الاطلاق هى الناحية التعليمية : فقبل ظهور المدرسة كمؤسسة تعليمية فى العصور الوسطى الاسلامية ، كانت المساجد أقدم معاهد التعليم بمصر وغيرها من البلاد الاسلامية ، ولم يقلل من شأنها ظهور المدارس وكثرتها وانتشارها ، اذ بقى المسجد واستمر ليكون افضل اماكن التعليم ، نظرا لكثرة المنتفعين بالعلم فى المساجد عنها فى المدارس ، ولعدم اختصاص المساجد بفئة معينة دون أخرى كما هو الحال فى المدارس التى كانت تخضع للائحة الواقف التى تحدد العدد ونظام الدراسة واوقاتها وغير ذلك(٧٢) .

والدراسة بالمساجد تتميز بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة ، سواء كان ذلك فى اختيار مواد الدراسة ومناهجها وأسلوبها وأوقاتها وغير ذلك .

ولايشترط فى دخول الطالب للمسجد سنا معينة ، بل يدخله الصغير والكبير والغنى والفقير ، وهو مفتح الأبواب لكل داخل لا فرق بين جنس وجنس ولون ولون ، فهذا أبو بكر القرشى ، وأبو ذر الغفارى ، وأبو موسى الأشعرى اليمنى ، وبلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى وغيرهم كل أولئك يتلاقون فى رحاب المسجد ينهلون من مناهله كل حسب طاقة ومبلغ قدرته .

ولم يقتصر دخول المسجد على الرجال فقط ، بل اشتركت النساء أيضا ، حيث سعت النساء الى المساجد يشهدن الجمع والجماعات . ويسمعن الدرس والعظات والخطب فقد قال رسول (ص) : « لاتمنعوا اماء الله مساجد الله » .

بل ان النساء كن يشاركن فى المناقشة بالمسجد ، واكبر دليل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان يخطب ذات يوم ، وأراد أن يحدد المهور خشية مغالاة الناس فيها فيحجم الشباب عن الزواج . فقامت امرأة من صف النساء فى المسجد قائلة : ان هذا أمر ليس لك يا عمر ، وكيف تفعل والله تعالى يقول : « وان أردتم استبدال زوج

---

(٧٢) د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر المماليك ص ١٦٠.

مكان زوج وآتيتم احـــداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينـــا » .

وتدبر عمر مقـــالة المراة فاستبان له صوابها ، فلم يكبر عليه التراجع عن رايه ، فالرجوع الى الحق خير من التمادى فى البـــاطل ، وقال قولته المشهورة التى تناقلتها الأخبار « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

لازم التعليم الدعوة الاســـلامية منذ ظهورها ، ولاريب أن التعليم كان ومازال من مستلزمات تطور وازدهار المجتمع الانســـانى . . واذا كان الاســـلام هو النظام الموجه للحياة عند المســـلمين بكل مظاهره ، لذا فقد كان فهمه ودراسته أمرين لابد منهما لأفراد الجماعة الاســـلامية .

فالتعليم اذن كان من مســـتلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربيـــة الاســـلامية الصحيحة التى تهدف الى الدعوة الاســـلامية ، ولمـــا كان النبى (ص) يســـتهدف من عمله هذا بناء أمة جـــديدة ، وانشاء حكومة توامها العدل والمســـاواة ، وتحقيق التكافل الاجتمـــاعى فلابد اذن من وجود طبقة متعلمة مســـتنيرة تتحمل عبء الدعوة الاســـلامية ، ولهـــا قوة الحجة والقـــدرة على الاقناع ، ولمـــا كان هـــذا لايتوفر الا بتوفر التعليم بين طبقات المجتمع وتســـهيله على كل منهم ، فقد كان النبى عليه الســـلام يسعى الى نشر التعليم بين افراد المجتمع المســـلم ، ولهذا فقد اتخذ النبى (ص) مسجده مدرسة لتعليم أصحابه .

وقد كان (ص) يملى على صـــحابته من كتـــاب الوحى فى حلقته بالمسجد من امثال زيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان كل ما يوحى اليه من كتاب الله ، قـــال أنس بن مالك رضى الله عنه : كان الصحابة رضوان الله عليهم اذا صـــلوا الغداة قعدوا حلقـــا حلقا يقراون القرآن ويتعلمون الفرائض والسنن .

وكان « عبادة بن الصـــامت » رضى الله عنه يعلم اهـــل الصـــفة القراءة والكتابة ، ولعل هـــذا كما تقول دائرة المعارف الاســـلامية هو الأصـــل فى اتخاذ مســـالكن للطلبة بالمدارس ، لأن المساجد القديمة كانت تحوى مساكن لهم .

من هـــذا المنطلق اصبح المسجد المكان الطبيعى والملائم لتلقى العلوم ، وهو المعهد الأول لنشر العلم ومكان التعليم فى العالم الاســـلامى ، وأصبحت

المساجد فى عهد الرســـول والخلفاء الراشدين مراكز تهذيبية وتعليمية ، كان لها الأثر الكبير فى نشر الوعى الدينى الصحيح وبث روح المعرفة فى نفوس المســـلمين .

ولقد كان للمســـجد — فى عهد رسول الله وصحابته الأخيار ومن سار على نهجهم — منـــذ الصدر الأول مكانة رفيعة ، واهمية بالغة فى اعلاء كلمة الله ، وتعميق مبـــادىء العقيدة السمحة فى نفوس المسلمين حيث أن المسجد لا يكون الا لله سبحانه وتعالى .

وبالاضافة الى الناحية التعليمية للمســـاجد ، فقد استفاد المسلمون منهـــا فى النواحى الاجتماعية ، ففيهـــا يقيم الناس احتفالاتهم فى الاعياد والمواسم الدينية والاجتماعيـــة ، ويعقدون فيهـــا عقود الزواج . ويشير الزركشى الى استحباب عقـــد النكاح فى المســـجد لحديث روى عن النبى (ص) أنه قال : « اعلنوا النكاح فى المسجد »(٧٣) .

وبالرغم من أن المســـجد مفتوح لكل طالب علم ، الا أن الكثير من العلماء قـــد اوصى بعـــدم دخول الأطفال للمســـجد لأنهم لايتحفظون من النجاسة ، ولأن النبى (ص) قال : « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم لأنهم يســـودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات » . ولذلك اتخذت الدروب وأطراف المساجد الكبيرة زوايا لتعليم الأطفال .

والى جانب هـــذا وذاك كانت المســـاجد تستخدم كمستوعات للكتب ، واصبحت خزائنها غنية بهـــا لاسيما الكتب الدينية منها ، والتى كان الناس يهبونهـــا ويوقفونها على الفقراء من طلبة العلم الشريف ، ومن جملة من وقف كتبهم : الخطيب البغدادى حيث وقفهـــا لعامة المســـلمين ، وسلمها قبل مماته لأحد أصدقائه المدعو « ابو الفضل بن خيرون » .

ومن بين الذين وقفوا كتبهم على أهل العلم : الشيخ على بن سليمان الابشادى حيث وقف مكتبة كاملة وادوات كتابة وكراسى للجلوس عليها ،

---

(٧٣) الزركشى : اعلام الساجد بأحكام المساجد تحقيق المرحوم الشيخ أبو الوفا المراغى طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية سنة ١٣٨٤ هـ ص ٣٦٠ .

على طلاب رواق الفوات(٧٤) التـــابع لرواق الريافة(٧٥) بالجامع الأزهر الشريف كما سنشير الى ذلك بالتفصـــيل عند حديثنا على الأوقاف على طلاب العلم من هذا الكتاب .

١ — المسجد النبوى بالمدينة المنورة :

انتقلت الدعوة الاسلامية من البلد الحرام — مكة — الى البلد الطيب — المدينة — من الخفاء الى الظهور ، ومن الافق الضيق المحدود ، الى الرحاب الفسيح الذى لاحد له .

انتقلت وبين جنباتها التعاليم السامية التى تكفل الســـعادة والسلام لخير الانســـانية ... وما أن وطئت أقدام صاحب الرسالة (يثرب) حتى بنى مسجده الكريم « على تقوى من الله ورضوان » .

(أ) ليقوم بدوره الايجابى فى بناء الدولة الاســـلامية ، والدور القيادى لمـــا بعده من مساجد .

(ب) وفيه نزل الوحى على رسول السلام .

(جـ) وبين جنباته كانت الصفوة المختارة من أجلاء الصـــحابة ، تتعلم وتتثقف وتتلقى توجيه السماء ممن لاينطق عن الهوى .

(ء) ومن هذا المكان الطاهر انطلقت جحافل المجاهدين تغزو وتفتح ، وتنشر نور الاسلام فى المشرق والمغرب لتقيم صرح العدالة بين العالمين .

(هـ) كما كان مركزا للخلافة الاسلامية أيام أبى بكر وعمر وعثمان .

---

(٧٤) الفوات : هم جماعة من الطلاب الذين فاتهم الدور فى الجراية ، ويعتبرون من المنتظرين دورهم فيها ، ولذلك فهم فقراء اعتنى المسلمون بهم نظرا لظروفهم الصعبة ومنهم هذا الشيخ الأبشادى الذى وقف كتبه عليهم خاصة .

(٧٥) المقصود بالريافة : أهل الريف ، وكان لهم رواق كبير خاص بهم بالجامع الأزهر .

(و) وكان المكان المفضل والمختار لمجلس قضاء عمر بن الخطاب ، وتدبير شئون دولة الاسلام الفتية .

وقد تخرج من حلقات العلم بهذا المسجد أجلاء الصحابة وفحولها مثل : على بن أبى طالب ، وزيد ابن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله ابن مسعود ، والمقداد بن الأسود ، وأبى عبيدة بن الجراح .

كما كان للتابعين — ابناء هذا المسجد — دورهم القيادى ، فمنه تخرج سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام ، ومن بعدهما ابن شهاب الزهرى وأنس بن مالك وغيرهم .

وكان عمر بن الخطاب يرسل مع كل قائد من قواد جيوشه ، صحابيا جليلا من خريجى هذه المدرسة المحمدية ، ليعلموا الناس أمور دينهم ويرشدونهم الى ما يصلح شئون دنياهم ، منهم : عبد الله بن مسعود فى العراق ، وعبد الله عمرو بن العاص مع أبيه فى مصر .

هؤلاء الذين فتحوا الدنيا بأخلاقهم وعدلهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم ورماحهم ، فكانوا بحق أساتذة العالم وملوك الدنيا ..

وتخرج من جامع الرسول (ص) بالمدينة جهابذة العلماء الفقهاء والمحدثين أمثال البخارى ومسلم وابى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، فكانوا مصابيح الهدى وشموس العلم ، غرف الناس — ومازالوا — من بحار علومهم ، واقتبسوا من كنوز أدبهم ومعارفهم .

٣ — مسجد البصرة :

جرى العرب فى فتوحاتهم على أن يؤسسوا فى الاقطار التى يفتحونها عواصم جديدة يختارون موقعها بما يتفق ومصالحهم العامة والخاصة ، وكان الغرض من هذه المدن الاسلامية تكوين قواعد حربية ومراكز للجيش وصبغ البلاد بالصبغة الاسلامية ، وكان لابد من بناء مسجد جامع فى وسط العاصمة للأغراض سالفة الذكر .

ويعتبر « مسجد البصرة » أول مسجد أنشىء بعد الفتوحات الاسلامية ، وقد اختط هذا المسجد «عتبة ابن غزوان » والى البصرة

سنة ١٤ هـ ، وكان عبارة عن صحن مربع مكشوف ، أحيط بسور من القصب وما لبثت النار أن أتت عليه ، ثم بنى بعد ذلك باللبن والطين وسقف بالعشب .

وأول تجديد له سنة ٤٤ هـ على يد « زياد بن ابيه » عامل معاوية بن ابى سفيان على البصرة وقد بناه بالآجر والجص وسقفه بخشب الساج ، واتخذ له أعمدة من حجر منحوت .

وقد لعب هذا المسجد دورا بارزا فى النهضة العلمية والأدبية . فى العصر الأموى فنيه جلس الكثير من الفقهاء والعلماء يلقون الدروس الدينية وغيرها ، ومن اشهر من جلسوا للتدريس فى مسجد البصرة : الحسن البصرى الذى تلقى علومه على يد « ربيعة الراى » فى مسجد المدينة .

وكانت حلقة الحسن البصرى فى هذا المسجد تضم العديد من القراء من بينهم تلميذه « واصل بن عطاء » الذى اعتزل مجلسه اثر خلاف وقع بين الاثنين فى مسألة عقيدية ، تتعلق بأفعال العباد الاختيارية ، هل هى من خلق الله أو من خلق العبد بقدرة أودعها الله فيه ؟

مما حدا بواصل الى اعتزال حلقة الحسن البصرى ، وتكوين حلقة أخرى فى نفس المسجد .

وقد عنى واصل واتباعه عناية كبيرة بعلم الكلام ، وقالوا ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر ، وانما هو فى منزلة بين المنزلتين ، ومن هنا ظهرت » فرقة المعتزلة « .

وكان الادباء والشعراء يتخذون من هذا المسجد مركزا لرواية الشعر والأدب ، وعن رواية الشعر تفرعت رواية اللغة وعربيتها ، وظهرت طائفة من الباحثين اللغويين ، عرفت اذ ذاك بأصحاب العربية الذين كانوا الرواد الأوائل الدراسات اللغوية .

وكان هذا المسجد مقرا للعالم الجليل « الخليل بن احمد الفراهيدى » الذى يعتبر بحق أول من الف وصنف فى اللغة ، كما انه واضع علم العروض وئق المعاجم فى العربية ، وقد عاش معظم حياته فى البصرة

متزهدا متعففـــا ، وقد ألف الخليل فى هـــذا المسجد كتبه والتى من اشهرها كتابه « العين » الذى يتكون من اثنتى عشرة الف الف كلمة .

ويروى أن اعرابيا دخل مســـجد البصرة ، فانتهى الى حلقة يتذاكرون فيها الأشـــعار والأخبار فجلس وهو يســـتطيب كلامهم ، ثم اخـــذوا فى العروض ، وتباحثوا فى أوزان الشـــعر ، فلما سمع المفاعل والفعول ظن أن الملأ يأتمرون به ، فخرج مسرعا وهو ينشد :

قد كان أخذهم فى الشعر يعجبنى ✻ حتى تعـــاطوا كلام الزنخ والروم

لمـــا سمعت كلاما لســـت أفهمه ✻ كأنـــه زجـــــل الغربان والبوم

وليت منفلتـــــا والله يعصـــمنى ✻ من التقحـــم فى تلـــك الجراثيـــم

ومن تلاميذ الخليل العلامة « سيبويه » الـــذى كان امام البصريين فى النحو بلا منـــازع ، ويقال ان الحريرى صـــاحب المقامات التى محاضرات عن الشعر فى هذا المسجد ، كانت بعيدة كل البعد عن الدين والصلاة(٧٦) .

٤ — مســـجد الكوفة :

مدينة « الكوفة » تعتبر ثانى مدينة أحدثت فى الاسلام بعد « البصرة » وبعد تخطيط المدينة كان المســـجد بالطبع هو أول ما أنشىء فيها ، فقد أختطه « ســـعد بن أبى وقاص » ســـنة ١٧ هـ ، كان مربع الشكل يحيط به خندق عوضا عن الجدارن ، بهدف منع الحيوانات من دخوله ، أوولوج النـــاس اليه بدون طهارة ، وكان له سقف يقوم على أعمدة من الرخام .

وقد قام المغيرة بن شـــعبة بتوسيع مسجد البصرة وبنائه ، ثم اعاد بناءه « زياد بن أبيه » ســـنة ٥١ هـ ويشير البلاذرى الى أن زيادا أنفق على هـــذا الجامع بسخاء ولم يبخل عليه ، قـــال زياد : انفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثمانى عشرة مائة »(٧٧) .

---

(٧٦) عمر أبو النصر : تاريخ الحضارة العربية الاسلامية قبل الاسلام وفى العهد الاموى ص ٣٤٢

(٧٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٦ ط . م الموسوعات .

اصبح مســجد الكوفة مركزا من مراكز العلم ، تدرس فيــه علوم الفقه والــدين واللغة . فقــد جلس فيه على بن أبى طالب يلقن الناس أصــول الدين والفقه المبنى على التجرد ، واستنباط مفهومه من الكتاب والســنة ، وجلس فيه أيضــا عبد الله بن مســعود وعبد الله بن حبيب الســلمى لتدريس القرآن ، كما ظهرت فى هــذا الجامع مدرسة التفسير كان على رأس حلقتها واشــهر معلميها سعيد بن جبير ، وعلى بن حمزة الكســائى ..

وفى هــذا الجامع وضــع « أبو الأسود الدؤلى » علم « النحو » باشــارة وتوجيه من الخليفة على بن أبى طالب ، فالعرب قد اختلطوا بغيرهم من الأمم اصــحاب البلاد المفتوحة ، وتصاهروا معهم وظهر نتيجة لذلك جيل جــديد لم يســهل عليه قراءة القرآن فى المصحف قراءة صحيحة ، وظهر اللحن والتحريف فى قراءة القرآن .

ولقد فزع أبو الأســود الدؤلى يوما عندما ســمع قارئا يقرأ قــول الله تعــالى : « ان الله برىء من المشركين ورســوله » بجر رســوله بدلا من فتحهــا ، ومعنى هــذا أن الله برىء من رســوله براءته من المشركين وهو كفر صريح بلا ريب .

وهكذا تورط كثير من المســلمين فى اخطاء لغويــة بالغة الخطورة اساءت الى المعنى القرآنى اذ ليس من الســهل على الجيل الجديد أن يميز بين الحروف المتشابهة فى الشــكل المختلفة فى الصوت ولم يســهل عليه رفع ما يجب رفعه ، ونصب ما يجب نصبه ، وجر ما هو واجب الجر ، ويقف عندما يكون الوقوف محتوما ...

ومن ثم جلس ابو الأســود فى مسجد الكوفة واحضر رجلا ومصحفا ، وصــبغا يخالف لون المــداد المكتوب به المصــحف ، وكلف الدؤلى الرجل أن يضع نقطة فوق الحرف المفتحة اذا فتح الدؤلى فاهه المفتحة ونقطــة تحت الحرف اذا كسر فاهــه للكسرة ، واذا ضــم الدؤلى فاهه جعــل الرجل النقطة امام الحرف للضــم ، واذا اتبع شيئا من تلك الحركات

« غنة » جعـل نقطتين فوق الحرف أو تحته أو امامه للدلالة على التنوين . وصار الشخص يتابع الدؤلى حتى اتى على آخر المصحف(٧٨) ..

وفى مسـجد الكوفة كانت تتلى على النـاس كتب الخليفة ، فكثيرا ما كان الوالى يبعث مناديه لينادى فى الطرقات العـامة لدعوة اهلهـا « الصـلاة جامعه » .

ومعنى هـذا أن الوالى يريد أن يبلغهم أمرا أو يشرح لهم سياسة ، ومما يـدل على ذلك هو أن منادى « زياد بن أبيه » كان ينادى فى طرقات الكوفة قائلا : « ألا برئت الذمة من رجل : من الوفاء والشرط والحرس لم يحضر المسجد »(٧٩) .

ويحكى صاحب كتاب الاغانى أن مسـجد الكوفة كان محلا لانشاد الشـعر ونقده ، فيروى أن الكميت بن زيد ، وحمـاد الراوية اجتمعـا بهـذا المسـجد فتذاكرا اشعار العرب وأيامها ، فخالفه حماد فى شىء ونازعه ، فقـال له الكميت : « اتظن أنك اعلم منى بأيام العرب وأشعارها قـال : وما هو الظن ، هـذا هو الله اليقين ، ثم تناظراو تساءلا وارجئا الى أجل آخر »(٨٠) .

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن المسجد لم يقتصر على الناحية الدينية فقط بل تعداها الى شتى أنواع المعارف الأخرى ..

ومن على منبر هذا المسجد أمر الخليفة الأموى « عبد الملك بن مروان » الشاعر « الأخطل » مدحه على المنبر رغم أن الأخطل هذا مسيحى ..

ولعل من أسـباب ازدهار الحيـاة العلمية والادبيـة فى كل من مسـجدى البصرة والكوفة فى العصر الأموى فى العراق هو انصراف اهله

---

(٧٨) د. عبد العزيز مرزوق : المصحف الشريف : دراسة تاريخية فنية ص ١٦ ، وانظر القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ١٥٥ ، ص ١٦٠.

(٧٩) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٥٣

(٨٠) أبو الفرج الأصفهانى : الاغانى ج ١٦ ص ٣٢٩ ط دار الثقافة بيروت سنة ١٩٥٩ م .

عن السياسة ، ووجهوا كل اهتمامهم الى الاشتغال بالعلوم والآداب حتى لايتعرضوا لاضطهاد ولاة الأمويين .

كما ان اكثرية اهل العراق راوا ان العلم هو خير السبل التى ترفع من قدرهم وتعلى من كرامتهم ، فاقبلوا على تعلم العربية وعلوم الدين حتى يحتلوا المناصب الكبرى فى الدولة والتى قصرها الخلفاء على كل من يجيد العربية ، ولو كان ذلك مسيحى وغير عربى .

٥ - جامع عمرو بن العاص بالفسطاط(٨١) :

كما فعل العرب عند تأسيس البصرة والكوفة بدأ عمرو ببناء مسجد وشيد الى جواره دارا له ، واسند عملية توزيع الخطط بين جماعات القبائل الى قادة الجيوش فى الفتح ، فوزعوا الأرض حول الجامع على جماعات القبائل ، واخذوا يشيدون المنازل والمساجد نحو الشرق والجنوب والشمال ، وكان النيل يحدها من الغرب .

وما كاد عمرو بن العاص ينتهى من تأسيس الفسطاط حتى أقام فى وسطها جامعه العتيق امام المساجد ومطلع الانوار اللوامع ، طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه وواظب على القيام بنواحيه(٨٢) .

وقد كان جامع عمرو حين اسس يقع على شاطىء النيل الشرقى فى منطقة بها أشجار وكروم وكان يشغل مساحة طولها خمسة وعشرون مترا وعرضها خمسة عشر ، ويقال انه اشترك فى تحرير قبلته ثمانون

---

(٨١) هو الاسم الذى اطلقه العرب على المدينة الجديدة واول عاصمة اسلامية لمصر ، ويقول القلقشندى : انها بضم الفاء ، ويقال لها فستاط وفساط بتشديد السين ، ويقول الجوهرى : انه يجوز فيها جميعا كسر الفاء ، ومعنى الفسطاط الخيمة وهى التى نصبها عمرو بجوار حصن بابليون ، فلما أراد الرحيل للاسكندرية لفتحها وجد حمامتين قد باضتا وأفرختا ، فقال لقد تحرما منا بحرم وأقر الفسطاط مكانه ، وبنى مكانه بيته وبنى الناس حوله (الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة لابن ظهيرة ص ١١٣ ، القلقشندى ج ٣ ص ٣٢٦) .

(٨٢) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٥٩

رجلا من الصحابة وقيل ثمانية فقط . ومع ذلك قيل ان هذه القبلة انحرفت نحو الشرق اكثر مما يجب ، وكان يحدد قبلته عمد قائمة بصدر الجدار .

وقد استوحى عمرو فى تخطيط مسجده وداره والعلاقة بينهما مسجد النبى (ص) وداره فى المدينة المنورة ويتوسط الجامع صحن تحيط به الأروقة من جهاته الأربع ، ويعلوا الرواق الغربى احدى مئذنتى الجامع ويحمل السقف على عدد كبير من الأعمدة التى تكونت بينها أول جامعة فى الاسلام . . .

وقد بلغت حلقات التدريس فيه بضعا واربعين(٨٣) حلقة لاتكاد تنفض منه ، وهو — كما أشرنا — أول جامع اقيم بمصر ، وسمى منذ ذلك الحين بجامع الفتح ، أو تاج الجوامع حينا ، وبجامع مصر وجامع عمرو حينا آخر .

وكان هذا الجامع أساس التنظيم العمرانى للمدينة ، والمركز الدينى الذى التفت حوله بقية مراكزها العمرانية والقلب الذى كان ينبض بحياتها ، وكان تشييد المساجد الجامعة فى الاسلام اساس العمران فى جميع البلاد الاسلامية المفتوحة التى يراد صبغها بالصيغة الاسلامية البحتة(٨٤) .

كان هذا سنة ٢١ هـ وفى سنة ٥٣ هـ زاد فى مساحته الوالى « مسلمة بن مخلد الأنصارى » واقام فيه اربع مآذن جعل الوصول اليها من مراق خارج الجامع ، ثم زاد فيه الوالى عبد العزيز بن مروان سنة ٧٩ هـ ، وفى سنة ٩٢ هـ أمر الوالى « قرة بن شريك » بهدم المسجد واعادة بنائه وتوسيعه ، حيث أدخل فيه دار عمرو بن العاص ، كما أمر بعمل محراب للمسجد مماثلا للمحراب الذى احدثه عمر بن عبد العزيز بمسجد المدينة .

---

(٨٣) المواعظ والاعتبار (المقريزى) جـ ٢ ص ٢٥٩ .
(٨٤) الفسطاط : د. السيد عبد العزيز سالم ص ٤٤

وقــد توالت الزيــادة فى جــامع عمرو حتى ســنة ٢١٢ هـ حيث تضاعفت مســاحة المســجد هذه المرة على يد والى مصر العبــاسى من قبل المــأمون عبد الله بن طاهر ، وتعتبر هــذه الزيادة أضخم التوسعات فى المسجد ، كما تعتبر ايضا خاتمة التوسعات التى حدثت فيه .

وكان للجامع ثلاثة عشر بابا ، ثلاثة منهــا بالجدار البحرى ، وخمسة فى الجدار الشرقى ، وأربعــة فى الجدار الغربى ، وواحــد فى الجــدار القبلى .

ومنذ انشــاء هذا الجامع ســنة ٢١ هـ وهو يخطو خطوات واسعة فى نشر مبادىء الدين الاســلامى وتعاليمه القويــة ، وكان نواة حركة علمية كبرى ليس فى مصر وحــدها ، بل فى مدن اخرى كثيرة ، ومن ثم أصــبح مركزا علميا هاما لنشر الحضارة العربية والاســلامية واشعاعها ، ولذلك قصــدة الاساتذة من كل بلاد العالم الاســلامى لينهلوا من فيض علمه العزيز .

اشهر الأساتذة الذين جلسوا لافادة الناس فى هذا الجامع :

١ ــ عبد الله بن عمرو بن العاص : كانت له حلقة يدرس فيهــا لعدد كبير من الطلبة متنا وشرحا ، وحلقة أخرى يدرس فيها « السريانية » التى كان يجيدها .

ويعتبر هــذا العالم أول من جلس للتدريس بهذا المســجد ، والذى الف فيه ايضــا عدة كتب له منها :

كتاب « الصادقة » ، « اقضية الرسول » ، و « اشراط الساعة » وبهذا يعتبر عبد الله بن عمرو أول فقيه ومعلم بمصر .

٢ ــ الامام الشافعى : رحمه الله الذى قدم الى مصر ســنة ١٩٩ أو ســنة ٢٠١ هـ حيث كون حلقة كانت أول مدرسة للفقه الشــافعى ، وذلك بعد أن عرض مذهبه على الناس .

ومن مؤلفات الشــافعى التى قيل أنه الفهــا فى هذا المسجد وكانت سببا فى شهرته كتاب الأم فى الفقه الشافعى ، وكتاب السنن فى الحديث .

وبقى الشـــافعى فى هذا المســـجد يفيض على الناس من علمه حتى مرض مرضه الأخير .

٣ — **محمد بن جرير الطبرى** : الذى قـــدم الى مصر ليدرس فى هذا المســـجد بطلب من ابى الحسن بن سراج ، ولعل اشـــهر دروس الطبرى هو املاؤه شـــعر الطرماح فى هذا المســـجد(٨٥) بالاضافة الى حلقاتـــه فى التفسير والحديث والفقه واللغة والشعر .

٤ — **القاضى اسماعيل بن اليسع الكوفى** : الذى رحل من العراق الى مصر وهو أول من أدخل المذهب الحنفى اليهـــا ، حيث جلس بمسجد عمرو يدرس فى حلقته مذهب الامام ابى حنيفة النعمان .

كما جلس للتدريس بهذا المســـجد ايضا من اهل مصر : عبد الله ابن عبد الحكم المؤرخ الشـــهير صاحب فتوحات مصر ، وابو عبد الرحمن بن عبد الله بن لهيعة المصرى ، وعبد الله بن وهب المصرى .. وغيرهم وغيرهم كثيرون .

كما كانت هناك حلقـــات للوعظ والارشـــاد بجوار حلقـــات العلم والدرس .. ومن اشهر الوعاظ بهذا المسجد الليث بن سعد .

وكان بهذا الجامع عدة زوايا من اشهرها(٨٦) .

١ — زاوية الامام الشافعى : نسبت اليه حيث قام بالتدريس فيها ، وحل محله بالتدريس فيها اعيان الفقهاء الشافعية .

٢ — الزاوية المجدية نســـبة الى منشئها مجد الدين وزير الملك الأشرف موسى بن العـــادل ، وقـــام بالتـــدريس فيهـــا قاضى القضـــاة عبد الوهاب البهنسى .

---

(٨٥) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ ٦ ط ٢ ص ٤٣٢

(٨٦) راجع خطط المقريزى ط النيل جـ ٤ ص ٣٠

٣ — الزاوية الصاحبية : انشـأها الصاحب . تاج الدين محمد ، وعين لها مدرسين ، احدهما شافعى والآخر مالكى .

هـذا وقد سار التعليم فى هذا المسـجد مسيرة اكبر الجامعات فى الوقت الحاضر ، وكان خير ينبوع انتهل منـه الطلاب والعلماء حيث كان يدرس به سائر العلوم من طب وفلك ورياضـة وهندسة جنبا الى جنب مع العلوم الدينية والعربية(٨٧) وقد اعتنى الخلفاء والأمراء بهذا المسجد عناية فائقة حتى نهايـة دولة المماليك حيث هجره رواده واقتصر الامر فيه على اقامة الشعائر الدينية .

٦ — جـامع القيروان(*) :

شرع القـائد عقبة بن نافع الفهرى فى بنـاء مدينة (القيروان) سـنة ٥٠ هـ ، وكان اول ما اختطه فى المدينة هو مسجدها الجامع .

وكان هـذا المسجد مدرسة وثكنة أكثر من جامع ، واستمر هـذا المعهد يقوم بعمله التثقيفى كمركز اسـاسى بعامة ديار المغرب والأندلس من سـنة ٥١ هـ الى سـنة ٥٥٥ هـ حيث انتقل التعليم الرسـمى الى جامع الزيتونة ، وكان لجامع القيروان المقـام الرفيع ، والدور الذى قام به فى الثقـافة العربية العالية وتعليم أوربا فى عصـورها المظلمة يحتاج الى مصنف كبير(٨٨) .

وكانت القيروان فى منتصف القرن الثـانى مرجلا يغلى بالدراسات والنقاشات المذهبية ، واصبحت حلقاتهـا نواديا للتفكير الاسلامى ومسارح فلسفات وملل ونحل ...

---

(٨٧) راجع للتوسع عن هذا الجامع : د. محمد جبر أبو سـعدة : الحركة العلمية فى جامع عمرو بن العاص فى القرنين الأول والثانى للهجرة رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية — جامعة الأزهر .

(*) القيروان معناها القافلة .

(٨٨) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة فى المغرب — ط معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ص ١٣.

وأدرك الوالى « هرثمة بن أعين » ما فى هـذه الحرية الفكرية من خطر والتى ادت الى انحلال سياسى فأسرع بتأسيس الأربطـة « رباطى طرابلس » و « رباط المنستير » سـنة ٨١ هـ . الا انـه عندما أسس الرباط كان التعليم القيروانى قـد بدأ يشق لنفسـه مجرى خاصا بـه فى الكلام عن نحاته والترجمة لهم ، فالنـاس يتحدثون عن نحاة البصرة والكوفة ولايتكلمون عن نحاة القيروان ، مع أن أصـحاب طبقات النحاة قد ترجموا لهم فى شىء من الاطناب(٨٩) .

وفى أواخر القرن الثانى الهجرى ظهرت فى ميدان التعليم ظاهرة جديدة وهى « الرحلة فى طلب العـلم » من « الأنـدلس » و « المغرب » الى « القيروان » من ناحية ومن « القيروان » الى مدينة « الفسطاط » وكذلك « بغداد » وغيرها من ناحية ثانية .

فطالب العلم اذا ما اجتاز المراحل التعليمية عامة الموجودة بالقيروان شد الرحال الى المشرق قصـدا الى الحج الدينى والحج العلمى ، وهذا ما جعل الحج من الفرائض التى يحرص كل مغربى على أدائهـا ، وطالب العلم ينتقـل على مهل دون استعجال من مدينة علم الى اخرى ، وكلما سـمع بأستاذ زاره وحضر حلقته واخـذ عنه اجازة فى سماعاته ، او نقل من املائه تصانيفه بعد أن يقابلها عليه رواية ودراية(٩٠) .

هذا وقـد صار جامع القيروان — فى عهد الدولة الأغلبية بالقيروان وأفريقية ومؤسسها ابراهيم بن الأغلب — صار كعبة العلم بالديار المغربية والأندلسية وصقلية وسردانية ومالطة وبعض سواحل ايطاليا .

وحدث به شىء من الاكتفاء الذاتى فلم تعـد الرحلة فى طلب العلم مستفيضة كما كانت ، فقـد اصبح بالجامع جناحان : جناح للرجال ويدرس به العلامة « سحنون » صـاحب المدونة ، وكانت ابنته تدرس فى جناح النساء ، وكذلك يحيى بن عمرو وابنته(٩١) .

---

(٨٩) نفس المرجع ص ١٦٠

(٩٠) نفس المرجع ص ١٩

(٩١) نفس المرجع ص ٢١

٧ — المسجد الأقصى فى مدينة القدس :

انشـــاه الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واعاد بناءه الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ســـنة ٦٥ هـ ثم توالت الزيادة عليه فى العصر العباسى ..

ويقع هـــذا المســـجد فى بيت المقـــدس ، وهو اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، وهو ايضـــا ثالث المســـاجد التى لاتشـــد الرحال الا اليهـــا ، واليه اسرى بالنبى صـــلى الله عليه وسلم ، واليه اتجـــه المســـلمون مع النبى (ص) فى صلواتهم سبعة عشر شـــهرا تقريبا الى ان حولت القبلة الى البيت الحرام بمكة .

واول من بناه نبى الله ســـليمان بن داود عليه الســـلام ، وفى هذا المكان نذرت ام مريم ما فى بطنها ان يكون محررا لوجه الله خالصـــا لخدمته تعـــالى .

والمســـجد الأقصى هو مهد الأنبياء ومتعهد الأولياء ، وثـــانى البيت الحرام فى البناء ، واول القبلتين حال الابتداء ، ومن صخرته المقدســـة المعراج حيث عرج بخاتم الأنبياء عليه الصـــلاة والسلام من حضرة القدس الى حضرة القـــدس ، وبســـط له بساط الأنس ، ودنا من ربه مقـــاما لم يبلغه الخليل ولا الكليم ، ولا وصـــل اليه ملك مقرب ، ولا نبى كريم ، وقد أم فى ذلك المسجد النبيين ، وصعد منه الى أعلى عليين(٩٢) .

وكثير ما نجد فى كتب التراجم كلمة « القدسى(٩٣) » وهو نسبته الى « المسجد الاقصى بالقدس » وهو كناية عن كثرة خريجى هـــذا المســـجد من اعلام المســـلمين الذين درســـوا بالمسجد الأقصى ويشير بعض المؤرخين

---

(٩٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار جـ ١ ص ١٣٣ ط دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٤ — ١٩٤٣ م .

(٩٣) راجع مثلا : الضوء اللامع لأعيان القرن التاسع للسخاوى ، الكواكب السائرة للغزى ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى وغيرها .

الى ان الامام الغزالى حجة الاسلام رحمة الله ، القى دروسا فى هذا المسجد بل انه الف جزءا من كتابه « احياء علوم الدين به » واتم الباقى منه بالجامع الأموى بدمشق ، وهذا المسجد لايزال محط انظار المسلمين والمسيحيين على السواء .

٨ — الجامع الأموى فى دمشق :

يتالف هذا المسجد من صحن مستطيل وايوان رئيسى طوله مائة سنة وثلاثون مترا وعرضه سبعة وثلاثون مترا ، ويشير الدكتور زكى محمد حسن الى احتمال ان يكون تصميم هذا الجامع متأثرا بنظام الكنائس السورية(٩٤) .

وقد شيده الوليد بن عبد الملك بين سنتى ٨٨ ، ٩٦ هـ (٧٠٧/٧١٤م) واستقدم له الصناع والفعلة من انحاء الدولة الاسلامية . وقد اقيم فى منطقة مقدسة مكان معبد وثنى قديم استعمل فيما بعد كنيسة ، استرضى الوليد المسيحيين وعوضهم عنها وبناه على انقاضها(٩٥) .

ويعتبر هذا الجامع من الناحية الفنية والمعمارية آية من آيات الفن العربى ، فقد انفق الوليد عليه خراج سبع سنين ، ودام بناؤه ما يقرب من ثمان سنوات ليخرج بعد ذلك جامعا عظيما يتناسب وعظمة عاصمة الأمويين .

وقد غالى الوليد فى نقش الجامع وزخرفته .. فكان محرابه مرصعا بالجواهر وفوقه قناديل من الذهب والفضة ومحلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية ، ومن ثم اتهم الناس الوليد بالاسراف والتبذير وقصر النظر ، ولكن اتضح قيمة هذا العمل فى ولاية الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى راى ان خزينة الدولة تاثرت بهذا الانفاق على الجامع ، وهم بخلع القناديل واستبدال السلاسل الذهبية فى الجامع بالحبال .. الى أن جاء وفد فى سفارة من قبل امبراطور الروم ، ورغبوا فى زيارة المسجد . فوكل بهم « عمر » مرشدا يعرف لغتهم فلما دخلوا المسجد وراوا

---

(٩٤) فنون الاسلام ص ٤١

(٩٥) احمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها — المدخل ص ٢١٦

عظمته وبهاءه ، نكس رئيس الوفـــد راسه واصفر لونـــه فسأله من معه عن حاله فقـــال : « انا معشر اهل روما نقول ان بقاء العرب قليل ، فلما رايت مابنوا علمت أن لهم مدة لابد أن يبلغوها » .

فلما وصـــل هذا الحديث الى مسامع الخليفة عمر بن عبد العزيز قال : « انى أرى أن مسجدكم غيظ على الكفار ، وترك ما عزم عليه »(٩٦) .

الجامع الأموى كان مركزا من مراكز الثقافة الأسلامية :

فقـــد اشتمل على حلقات الدرس والعلم التى يقوم بهـــا شـــيوخ فضلاء من العلماء والفقهاء ، يدرسون للطلاب مختلف العلوم ، كما يوجـــد به مساكن للطلبة الغرباء ، بالاضافة الى زوايا عدة كانت فى المســـجد يتخذها الطلبة للنسخ والانفراد .

وممن جلسوا للتدريس فى هـــذا المســـجد ، الخطيب البغـــدادى ســـنة ٤٥٦ هـ وكانت له حلقة كبيرة كان النـــاس يجتمعون اليه فيهـــا صبيحة كل يوم ليقرا لهم دورســـا فى الحديث وكذلك حجة الاسلام الغزالى كانت له حلقة شهيرة ، وقـــد أكمل كتابه « احياء علوم الدين فى هـــذا الجامع » ـ كما سبق أن اشرنا .

٩ ـ جامع الزيتونة بتونس :

لعب هـــذا الجامع دورا بارزا فى خدمة الثقافة والفكر الاســـلامى لافى تونس وحـــدها بل فى شمال الصحراء وجنوبها بعد أن أصبح جامعة للدراسات الاسلامية والعربية(٩٧) .

بناه الوالى الأموى « عبد الله بن الحجاب » بتونس سنة ١١٤ هـ — ٧٣٢ م ، ثم اعيد بناؤه فى عهد محمد بن الاغلب حيث اهتم الاغالبة بتعميره وتجديدة وترميمه ..

---

(٩٦) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ـ مرجع سبق جـ ١ ص ١٩١ ، رحلة ابن جبير ص ٢١١ دار التراث ـ بيروت سنة ١٩٦٨ م .

(٩٧) د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاســـلامى والحضـــارة ط ١ جـ ٦ ص ١٧٥٧

وكان هـــذا الجامع من اهم مســـاجد المغرب ان لم يكن أهمها على الاطلاق لقـــدم عهده ، واحتفاظه بعناصره الزخرفية والمعمارية الأولى منذ نشأته ، ثم بشهرته كجامعة علمية قديمة مازالت تدرس فيهـــا علوم اللغة والفقه والتاريخ الاسلامي(٩٨) .

وتاريخ هذا الجامع كان يكتنفه الغموض حيث أغفل المؤرخون وصفه في مدوناتهم التاريخية بالاضـــافة الى أنه كان مغلقا في وجه المستشرقين وغيرهم من غير المســـلمين ، فلم تقم حوله اية دراســـة علمية وظل بعيدا عن الدراســـة حتى قيض الله له رجلا غيورا على تراث وحضارة الاسلام هو الدكتور أحمد فكرى الـــذى قام ما بين سنـــة ١٩٣٢ ، سنة ١٩٤٨ بعمل دراســـة علمية على هذا الجامع ، ونشر أولى ابحاثه عنه في مجلة الجمعية المصريـــة للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٢ بالجزء الثـــاني من ص ٢٧ — ص ٦٤

ولكن هـــذه الدراسة يغلب عليها الطابع الأثرى ، ومازال التاريخ العلمى لهذا الجامع بحاجة الى جهود الباحثين .

ومن جامع الزيتونة خرجت الثورات المتتالية التى قامت بها البلاد الأفريقية على حكم العبيديين في أيام المعز بن باديس الصنهاجي بالقيروان والمستنصر الفاطمي بالقـــاهرة في القرن الخامس الهجرى .

وفي عهد الحفصيين وفي القرن الســـابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ازدهر التعليم في هـــذا المسجد ، وظل ينشر الثقافة العربية الاسلامية ، وتقوم حلقات المســـجد باعداد المدرسين والأئمة والوعاظ والقضاة وكتاب الرسائل وغيرهم ، وأصبح لعلمائه مكانة سامية في المجتمع .

وحفل هـــذا القرن بالعديد من الأساتذة الذين جلسوا للتدريس في الزيتونة مثل العلامة ابن جابر الوادئاشي صـــاحب الفهرس المفصل الممتع

---

(٩٨) د. سعيد اسماعيل على معـــاهد التعليم الاسلامى — دار الثقافة بالقـــاهرة ١٩٧٨ ص ١٢٤ ، د. عبد الهـــادى التازى : رواق المغاربة بالأزهر أو البعثة الدائمة للمغرب بمصر — بحث قدمه سيادته في الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر .

والـــذى جمع فيه تراجم شيوخه والكتب التى أخذها عنهم وأسانيدهم فى تلك الكتب . وهـــذا الكتاب مازال مخطوطا فى مكتبة الاسكوريال .

وكذلك العلامة ابن رشـــيد الفهرى بفاس ســـنة ٧٢١ هـ وصاحب الرحلة الشهيرة المسماة « ملء الغيبة بمـــا جمع طول الغيبة فى الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكـــة وطيبة » ا وقـــد كانت رحلته طويلة حافلة بالعجائب والمشـــاهدات وشملت الاندلس والمغرب الأقصى والجزائر وتونس ومصر والشـــام والحرمين الشريفين وقـــد ذكر فيهـــا أعلاما من الأساتذة التونسيين مثل ابن هارون الطائى وابن زيتون .

وفى القرن الثـــامن الهجرى ظهر علم آخر من أعلام الزيتونـــة هو « ابن عرفة » والـــذى اشتهر بتحقيق الفقه المـــالكى نظرا ونقلا ، وتصنيفه المختصر الـــذى قال فيه الأبى : « ما وضع فى الاســـلام مثله لضبطه فيه المذهب مســـائل وأقوالا مع زوائد مكملة والتنبيه على مواضـــع مشـــكلة وتعريف الحقائق الشرعية »(٩٩) .

وفى ســـنة ١٩٣٣ م صدر مرسوم اعتبر فيه جامع الزيتونة جامعة ، وسمى شيخه مديرا ، جعلت الدراســـة به على ثلاثث مراحل :

١ — الاعدادية : وتنتهى بشهادة الأهلية .

٢ — المتوسطة : وتنتهى بشهادة التأهيل .

٣ — العالية وتنتهى بشهـــادة العالميـــة مع التخصص فى القراءات وعلوم الشريعة والآداب ، ثم الحق بعد ذلك بالتعليم الثانوى وأضيف الى مناهجه اللغات الأجنبية وبعض المواد العلمية العصريـــة وخاصة بعـــد استقلال تونس .

---

(٩٩) محمد الفاضل بن عاشـــور : امتزاج الأزهر بالزيتونـــة (فى التوجية للاجتماعى فى الاسلام) مجمع البحوث الاسلامية جـ ٤ سنة ١٩٧٢ ص ٨٥

١٠ — جامع المنصـــور ببغـــداد :

يعتبر أقـــدم مسجد جامع أنشيء ببغداد ، وقـــد أصبح من أشـــهر مراكز التعليم فى المملكة الاسلامية ، وقبلة أنظار الطلاب والعلماء فى ذلـــك الوقت ..

اسسه « الحجاج بن ارطاه بأمر من الخليفة العبـــاسى أبى جعفر المنصـــور الذى أسس عاصمته الجديدة « بغـــداد » ســـنة ١٤٥ هـ والتى كثر علماؤها والراحلون اليهـــا حتى ألف « الخطيب البغـــدادى » كتـــابا احتوى على نحو ٨٧٣١ ترجمة ضمنه علماء بغداد وزهادها ، وأســـماه « تاريخ بغداد » .

ومما يـــدل على ان المنصـــور كان يحتل مكانة ســـامية فى نفوس العلماء أن الخطيب البغدادى لمـــا حج شرب من ماء زمزم ، وسأل الله أن يحقق لـــه ثـــلاث حاجات عمـــلا بقول ســـيدنا رســـول الله (ص) « ماء زمزم لمـــا شرب له » فكانت الحاجة الأولى : أن يحـــدث بتـــاريخ بغداد ، والثانية أن يملى الحـــديث بجامع المنصـــور والثالثة : اذا مات أن يدفن عند قبر بشر الحافى .

وقـــد جلس ابراهيم بن نفطويه المتوفى سنة ٣٢٣ هـ ــ سنة ٩٣٥ م (وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهانى) الى اسطوانـــة بجامع المنصور خمسين سنة لم يغير محله منها(١٠٠) .

كما كان الكسائى يجلس فى هـــذا المسجد يدرس علوم اللغة التى اشتهر بهـــا ، وكان من تلامذته الفراء والأحمر وابن الســـعدان . كما كان أبو العتاهية الشـــاعر المشهور يملى فى هـــذا المسجد من شعره ، ويقال بأن شيخا من اهل الكوفة دخل هـــذا المسجد ، فاذا شيخ عليه جماعة وهو ينشـــد :

---

(١٠٠) آدم ميتز : الحضارة الاســـلامية فى القرن الرابـــع الهجرى جـ ١ ص ٣٣٢

لهفى علـى ورق الشـبـاب * وغصونه الخضر الرطـاب
ذهب الشـبـاب وبـان عنى * غـير منتظـر الايـاب
فـلأبكين علـى الشـبـاب * وطيب أيـام التصـابى
ولأبـكين مـن البلـى * ولأبـكين مـن الخضـاب

وكان ينشـد ودموعه تسيل على خديه ، فلما رأى الكوفى ذلك انضم الى الحلقة وكتب الأبيات وسـأل عن الشيخ فعرف انه ابو العتاهية ، وفى مسـجد المنصور ، أملى « أبو عمر الزاهـد » كتابه الياقوت وقـد بدأ يحاضر فى ذلك الكتاب شـهر المحرم سـنة ٣٢٦ هـ ، ولمـا استعاد قراءته هذبه وزاد عليه(١٠١) .

ومن على منبر هـذا المسجد دعا « البساسيرى » صـاحب بغداد ، فى خطبة الجمعيـة للخليفـة الفاطمى بمصر(١٠٢) ولـذا فقـد قام جامع المنصور هذا بدور بارز فى النواحى العلمية والثقافية والسياسية .

١١ — جامع قربـة بالأندلس :

أسس هـذا المسجد فى عهد الأمير الأموى « عبد الرحمن الداخل » فى الأندلس بمدينة قرطبة سنة ١٧٠ هـ — ٧٨٦ م ، وأراد أن يجعله مماثلا لجامع دمشـق فى الشام فجاء مسـتطيل الشكل طوله خمسة وسبعون مترا وعرضه خمسة وستون مترا .

ولقـد أصبح للمسجد بعد الزيادات التى كان آخرها زيادة وتوسعة « المنصـور محمد بن أبى عامر » — واحـد وعشرون بابا كلها ملبسة ومكفتة بالنحاس والفضـة ، ويحتوى على مقاصير مسقفة للنسـاء وعدد

---

(١٠١) احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ١٠٧ .

(١٠٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ ط دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٥٩ هـ

أعمدته ألف ومائتان وثلاثة أعمدة كلهـا رخام ، وجدار المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء(١٠٣) .

وصار هـذا المسجد بعد توسعته هذه يفوق معابد الشرق قاطبة بعظمته وروعته ، حتى اعتبره العديـد من الجغرافيين والأثريين والمؤرخين المسلمين أروع الأمثلة للعمارة والفن الاسلامى والمسيحى على السواء ، فى العصر الوسيط .

ومنذ أن فتح المسلمون قرطبة وهى تشتهر بتفوقها العلمى والثقافى ، ويضرب بأهلها المثل فى اقتناء الكتب والاقبال على العلم والأدب ، حتى أصبح ذلك شرطا لازما من شروط التعيين والرياسة ، وذاعت شهرتها فى العصور الوسطى فى العالم أجمع .

وكان الفضل الأعظم فى تلك الشهرة يرجع بالطبع وقبل كل شىء الى جامعها الـذى يعد من الناحية الفنية من أروع أمثلة العمارة الاسلامية والمسيحية ، ومن الناحية العلمية أعظم جامعة اسلامية تدرس فيها علوم الدين واللغة ؛ ويفد اليهـا طلاب المسلمين والمسيحيين للدرس والتحصيل من غرب أوربا .

وكان ممن درس فى هذا الجامع وتلقى علومه فيه الراهب « جيربير » أو « جربرت » الـذى أصبح « بابا » فيما بعـد باسم « سلفستر الثانى » (٣٩٠ هـ — ٣٩٤ هـ) وقـد قيل عنه بأنه انتجع اسبانيا طالبا العلوم الطبيعية والرياضية ، فبلغ من العلم فى هـذا الجامع مبلغا خيل العامة من الناس اذ ذاك انه ساحر .

وليس هناك من شـك بأن كثيرين من نصـارى الأندلس الذين كانوا يعيشـون تحت ظل المسلمين قد تعلموا فيه علوم العربية واستعربوا — اى تثقفوا بالثقافة العربيـة — اضافة الى تعلم العلوم الأخرى اذ وجدوا أنفسهم مضطرين الى مشـاركة المسلمين فى حياتهم ، ورغبـة فى تقلد

---

(١٠٣) أحمد بن محمد المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ٢ ص ٨٥ ، ٨٨ ط ١ سنة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٩ م .

المناصب الكبرى فى الادارة والدواوين الحكومية ، وقد نبغ منهم وظهر فى آداب اللغة العربية الكثير من الكتاب والشعراء .

وكان جامع قرطبة هذا احدى روائع اربع اشتهرت بها حاضرة الخلافة الأموية بالأندلس وفى ذلك يقول الشاعر :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة * منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة * والعلم أعظم شىء وهو رابعها

وقد حفظ لنا المقرى نصا لأبى محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الولينى يصف فيه المسجد عندما جاء الى قرطبة ، جاء فيه ذكر حلقات الدرس والعلم داخل المسجد فيقول : « وصفيك مع اخوان صدق تنكسب العلوم بينهم انسكاب الودق ... نسمع صورة التنزيل كيف تتلى ونتطلع صور التفصيل كيف تجلى »(١٠٤) .

وقد بقى هذا المسجد قبلة تهفو اليه قلوب المسلمين من كل مكان فى اوربا ، كما كان جامعة اسلامية يقصدها العلماء كما يقصدها الطلاب ايضا ، اذ كانت قرطبة فى ذلك الوقت مستقر العلماء وينبوع العلوم .

وبعد سقوط الأندلس اجريت بالمسجد كثير من التغييرات والتشويهات التى لحقت به من الأسبان ورغم هذا وحتى الآن لايزال المسجد يحمل طابع الفن العربى الاسلامى ، وفى هذا الصدد يقول الدكتور جوستاف لوبون(١٠٥) : « ولا يزال جامع قرطبة من المبانى المهمة ، مع ما أحدثه الاسبان فيه من التلف والفساد ، ومع تلك الكنيسة التى اقاموها فيه لتطهيره ، ومما صنعه الاسبان ان كلسوا زخارف جدره وكتاباته ، ونزعوا منه فسيفساء ارضه ، وباعوا تحف سقفه الخشبية المحفورة ، فيجب على من يرغب فى تمثل ما كان عليه جامع قرطبة أن ينظر الى محرابه الذى

---

(١٠٤) د. السيد عبد العزيز سالم : مساجد ومعاهد ج ٢ ص ١٥٢ .

(١٠٥) حضارة العرب — تعريب عادل زعيتر ط ٢ مطبعة دار احياء الكتب العربية سنة ١٣٦٧ هـ ص ٣٥٢

تفلت وحده من التخريب ، وأما محراب جامع قرطبة فاننا نعترف بانه من اجمل ما تقع عليه عين بشر » .

وهذه شهادة لهـا ثقلها ووزنها فى التاريخ من شخص لايدين بالدين الاسلامى « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

١٢ — جامع القرويين بالمغرب :

يعود انشـاء هذا المسـجد الى سنة ٢٤٥ هـ فى القطـاع الغربى لمدينة فاس فى مكان يـدعى « عدوة القرويين » ويعود الفضـل فى بنائه الى « فاطمة ابنة محمد بن عبد الله الفهرى القيروانى » الـذى انتقل من القيروان الى فاس مع المهاجرين القيروانيين الذين فروا أمـام هجرات الهلاليين للشـمال الأفريقى ، مما حـدا بكثير من العلماء الى أن يفروا من هـذا الزحف من القيروان الى فاس حيث وجـدوا فى المغرب الأقصى موئلالهم .

وفى سـنة ٥٣٨ هـ ابتدأت بهـذا الجامع حلقات التدريس فى علوم الفقه والشريعة يعقـدها علماء أجلاء وفدوا من القيروان ، ونقلوا معهم جل العلوم الدينية .

وفى عهـد المرابطين ازداد ازدهار الجـامع واصـبح منـذ ذلـك الحين معهـد علم ودراسـة تخرج فيـه الآلاف من المغـاربة فى أجيال متعاقبـة ، وظل على مـدى العصـور حصنا للعروبـة والاسـلام . واجتذبت شـهرته التى طبقت الآفاق عـددا كبيرا من العلماء الأجانب من أنحاء أوربا .

وظل جامع القرويين احـد عشر قرنا مركزا للتعليم ، واليه يرجع الفضـل فى حماية لغة القرآن وآدابها والعمـل على اثرائها ونشر الدين الحنيف والحفاظ على تعاليمه السمحة(١٠٦) .

---

(١٠٦) د. عبد الهادى الفازى : رواق المغاربة بالأزهر أو البعثـة الدائمة للمغرب بمصر — مرجع سبق — بحث قدم للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر سنة ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م .

وفى عهد ازدهاره أضيفت اليه دراسة الفلسفة والطب والصيدلة والهندسة والطبيعة والفلك وكان التعليم فيه حرا ، يختار الشيوخ والطلاب ما يشاءون من المواد والكتب .

وتنقسم الحياة العلمية بهذا الجامع الى مرحلتين :

الأولى : تقع بين سنتى ٢٤٥ — ٦٦٧ هـ ، ولم تقتصر الدراسة وفائدتها على المغاربة فحسب ، بل انتفع بها عدد كبير من الأوربيين وفدوا من بلاد الأندلس وتلقوا علومهم فى حلقاته .

ويقال ان البابا « سلفستر الثانى » كان أول من ادخل الى بلاده الأعداد العربية بعد أن درسها واتقنها فى هذا الجامع .

الثانية : تبدأ من سنتى ٦٦٧ — ١٠٥٠ هـ من عهد الدولة المرينية الى أوائل الدولة العلوية وقد امتازت هذه الفترة عن سابقتها : بازدهار الحياة العلمية ، وانشاء مساكن للطلبة الغرباء الوافدين عليها ، وعرفت هذه الفترة اياما للعطلات الدراسية المعروفة منها : الخميس والجمعة وعاشوراء واسبوعا فى كل من عيد الفطر وعيد الأضحى والمولد النبوى ، واربعين يوما فى موسم الصيف .

وما لبث هذا الجامع أن أصبح جامعة مشهورة تقوم بواجبها فى حرية تامة ففى سنة ١٩٣١ م صدر مرسوم يقسم التعليم بالجامع الى ثلاث مراحل : ابتدائية وثانوية وعالية ، كما تقرر جعله جامعة مؤلفة من ثلاث كليات وهى : الشريعة والآداب والعلوم(١٠٧) .

هذا هو جامع القرويين الذى اصبح فيما بعد جامعة القرويين ، والذى ظل عبر القرون معقلا للتراث الاسلامى والحضارة العربية الاسلامية فى شمال افريقيا ، كما ان فضل بقاء بلاد المغرب على صبغتها العربية الاسلامية يرجع بالدرجة الأولى الى هذه الجامعة ، كما يرجع الى المعاهد الدينية الاقليمية التى تغذيها هذه الجامعة بالأساتذة والمدرسين

---

(١٠٧) الموسوعة الثقافية : باشراف : د. حسين سعيد — ط دار المعرفة ص ٣٣٤

الـــذين ينتشرون فى كل مكان من بلاد المغرب ينشرون رسالة العروبـــة والاســـلام .

١٣ — جامع ابن طولون بمصر :

لمـــا ضاقت الفسطاط بساكنيهـــا ، اسس أحمد بن طولون مدينـــة القطائع ســـنة ٢٥٦ هـ واقام فى وسطها مسجده الجامع فى موضع يعرف بجبل يشكر فى القطائع بين مصروقبة الهواء وهو ثالث جامع مصر بعـــد جامع عمر بالفسطاط ســـنة ٢١ هـ ، وجامع العســـكر سنة ١٦٩ هـ ، وهو وان كان ثالث مســـجد انشىء بمصر ، الا انـــه يعتبر اقـــدم جامع احتفظ بتخطيطه وكثير من تفاصيله المعماريـــة الأصلية .

ويشتهر الجامع بمئذنته الفريـــدة فى نوعها والتى لايوجد لها نظير فى مآذن القـــاهرة حيث سلمها من الخـــارج ومن المحتمل أنها اقتبست سلمها هـــذا من منارة سامراء المشهورة « **بالملوية** » ، ويبلغ ارتفاعهـــا أربعون مترا ، وهى تبتدىء مربعـــة من الأســـفل ، وتنتهى مثمنة تعلوها قبة ، ويعد هـــذا الجامع من أكبر مســـاجد العالم الاســـلامى ، اذ تبلغ مساحته مع الأضـــافات ســـتة أفدنة ونصـــف الفدان(١٠٨) اى حوالى ٢٨١ر٢٦ مترا .

وقـــد اختار « ابن طولون » مكان جامعـــة على ربوة صخرية عالية ليكون بمنأى عن فيضـــان النيل وعن رشح الميـــاه كما زوده باســـاس صخرى متين ، وهـــذا كله يفسر لنا بقـــاء جامع ابن طولون للآن واندثار ما حوله من المبانى .

وقـــد وضع فى تخطيط بنائه أن يكون من الطوب الآجر وليس بالحجر والرخام كبقية المســـاجد فان « ابن طولون » قـــال : « أريـــد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى وان غرقت بقى ، فأشير عليه بالآجر الأحمر

---

(١٠٨) د. سعاد ماهر محمد : مساجد مصر : مرجع سبق ص ١٥٦

والرماد والجير للمونة ، يبنى بــه الى السقف ولا يوضع به اساطين فانه لاصبر لها على النار(١٠٩) .

ويقال ان « احمد بن طولون » أنفق على هــذا الجامع من كنز عثر عليه ، وقيل ان مكانه جبل يشــكر وهو مشهور باجابة الدعاء ، لأن موسى عليه السلام ناجى فيه ربه بكلمات .

وقــد عمد ابن طولون الى ان يجعل من هــذا المسجد جامعة علمية تضارع جامعة الفسطاط ، حيث نقــل إليه القراء والفقهــاء والطلبة ، وعين له القــاضى « بكار بن قتيبة » اماما وخطيبا ومدرســا للفقه ، وكذلك « الربيع بن سليمان » حيث اتخــذ من هــذا الجامع مجلسا للحــديث يجتمع اليه الطلبة فيه ومع كل واحــد منهم وراق وكتبة ، يكتبون ما يلقى من الدروس .

وقــد ذكر « السيوطى » أن دروسا مختلفة رتبت فى الجامع الطولونى فى زمن الســلطان « لاجين » ســنة ٦٩٦ هـ — ١٢٩٧ م شملت التفسير والحــديث والفقه على المذاهب الاربعة والقراءات والطب والميقات ، وقد جعل ابن طولون من جملة أوقانه وافقا على الديكة ، لأنهــا تعين المؤقتين وتوقظهم فى السحر .

وفى مؤخرة المســجد جعل ابن طولون « دار شفاء » الحق بهــا صيدلية ، اعــد فيها من الادوية وانواع الشراب ما يلزم لاسعاف من يحدث له حادث من المصــلين خصوصا يوم الجمعة ، ورتب له ذه الصيدليــة خدمهــا ، وعين لهــا طبيبا والزمه بالتواجــد يوم الجمعة اســتعدادا للطوارىء(١١٠) .

ثم اصبحت هــذه الدار فيما بعد مثابة لمئات الطلبة الــذين يتلقون دروسا فى الطب والعــلاج ويتردد عليهــا الأطباء ، وقــد ألقت مباحثهم

---

(١٠٩) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٦٥ — ٢٦٩ ، د. حسن الباشا : القاهرة تاريخها ، آثارها ، فنونها ص ٤٣٤ — ٣٥٢ ، د. سعاد ماهر : مساجد مصر ج ١ ص ١٣٥ — ١٥١

(١١٠) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٤٩

العلمية على اطباء العرب ضوءا كبيرا ، وقــد بقى هذا الجامع يؤدى دوره بنجاح فى العصــور الوسطى وممن درس بهــذا الجامع فى العصر المملوكى الشــيخ يحى بن عبد الرحمن البجائى المــالكى المتوفى سنة ٨٢٦ هـ — ١٤٥٨ م(١١١) وغيره من الشيوخ الذين لايحصون كثرة .

١٤ — الجامع الأزهر بمدينة القــاهرة :

وهو من الجوامع الكبير الشــهيرة التى انشئت فى العصر الفاطمى ، واغلق فى العصر الايوبى ثم اعيد تجديده وفتحه للدراســة فى العصر المملوكى الاول . وعظم ازدهاره وقوى فى العصر المملوكى الثــانى .

واذا كان جامع عمرو بن العاص أول جامع اسس بالفسطاط ، فان الجامع الأزهر هو أول جامع اسس فى القــاهرة ، ولكل من الاثنين زعامته ورسالته العلمية(١١٢) غير أن الأزهر استمر الى الآن ، يؤدى رســالته العلمية والثقافية والحضــارية ويخــدم الدين الاســلامى الحنيف منــذ الف عام ونيف وثلاثين ســنة ، على حين تخرب جامع عمرو بفعل الزلازل والعوامل الاخرى وهجره الطلاب والشيوخ منــذ نهاية القرن الســابع الهجرى .

ومؤسسه هو جوهر الصــقلى قائد الخليفة المعز لدين الفــاطمى ســنتى ٣٥٩ — ٣٦١ هـ وقد اختلف المؤرخون فى أصــل تسميته والراجح أن الفاطميين اســموه بالأزهر تيمنا بفاطمة الزهراء بنت رســول الله ، اشادة بذكرها حيث يدين هؤلاء بالمذهب الشيعى الاسماعيلى .

وقــد رغب الفاطميون منذ انشــائه أن يكون أداة لنشر المــذهب الشيعى الذين كانوا يدينون بــه ، ولم يكن فى ظروف انشــائه أن يكون مكانا للتعليم ، وليس ثمة ما يــدل على انــه انشىء لمثل هذه الغاية ، وانما انشىء الجامع الأزهر ليكون مســجدا رسميا للدولــة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ، ومنبرا لنشر دعوتها ، ورمزا لسيادتها الروحية .

أما فكرة الدراســة بالأزهر فقــد كانت حدثا عارضــا ترتب على فكرة الدعوة الجــديدة ففى ســنة ٣٦٥ هـ وفى أواخر عهد المعز كانت

---

(١١١) الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٣١ — ٢٣٣

(١١٢) د. سعاد ماهر : نفس المرجع ص ١٩٤

اول حلقة علم بالأزهر يجلس فيها القاضي « على بن النعمان القيروانى » ، وقرأ فى جمع حافل من العلماء مختصر ابيه فى فقـه الشـيعة ويعرف هذا المختصر بالاقتصار .

وكانت الحلقات التى تبعتهـا فى الواقع دعائيـة سياسية للاكابر والخاصـة بقصد نشر المذهب الشيعى ليس الا ولم تكن لهـا فى البداية صفة الدرس العام .

ومن المعتقد ان « ابو الفرج يعقوب بن كلس » وزير المعز وابنه العزيز بالله ، هو أول من فكر فى جعل الجـامع الازهر معهد للدراسـة المسـتقرة المنظمة ، ففى رمضـان سـنة ٣٦٩ هـ جلس ابن كلس المذكور بالأزهر وعقـد حلقة قرا فيهـا كتابا الفه فى الفقه الشـيعى ، وكانت حلقاته هـذه اول المجالس الجامعية التى عقدت بالجامع الأزهر ، وذلك بعـد ان استأذن الخليفة العزيز بالله فى تعيين جماعة من الفقهـاء بالأزهر للبحث والدرس ، وكان عددهم سـبع وثلاثون يحضرون مجالسـه ، ورتب لهم العزيز جرايات يومية وارزاقا ومرتبات شـهرية ، وانشـا لهم دار للسكنى بجوار الأزهر كانت اساسا للأروقة الشهيرة فيما بعد .

أول هيئة رسمية من اعضاء هيئة التدريس بالجامع الأزهر :

يرجع الفضـل فى تتويج الأزهر بهـذه الصفة الجامعية الى يعقوب بن كلس هـذا الذى عين اول هيئة للتدريس به ليسبغ عليه لأول مرة صفة المعاهد الدراسية بترتيبه لأول فريق من الأساتذة الرسميين .

وبهذا اسـتطاع هذا الوزير ان يؤسس هـذا المعهد العلمى تاسيسا بقى ذكره على مر الأيام والسنين تتعاقبه الأجيال جيلا بعد جيل ، ففى عهده بدا الأزهر كجامعة علمية حينما أمره العزيز ان يختـار عشرة من علمـاء القـاهرة ومصر للحضور الى الأزهر لتنظيم دراسته ، ولوضـع مناهج التدريس فيه بطريقة امثل مما كانت عليه أيام المعز .

وتحت رئاسته كلف كلا منهم باختصـاص معين ، فكان لـه فى كل أسبوع حلقة يدرس فيهـا للطلبة العلوم الشرعية ، وحلقة اخرى يدرس فيهـا العلوم الكونية وهو أول من أدخـل فى الأزهر مادة الاقتصـاد .

والمكتبة الاســلامية تحتفظ ليعقوب هــذا بخطب مجموعة فى مؤلف خاص مما كان يذيعه على الطلبة فى هــذا الفن ، واستمر فى التدريس للطلبة حتى جعــل منهم علماء تولوا التدريس فى الأزهر للطلبة الوافدين على هــذه الجامعة من مختلف الأقطار الاسلامية .

وقــد حرص الخلفاء الفاطميون على الاهتمام بالأزهر من الناحية العلمية ، فزودوه بالكثير من الكتب والمخطوطات ، فهذا الخليفة الحــاكم ينقــل اليه نصف ما كان بــدار الحكمة من كتب ويوزع الباقى على المسجد وعلى جامع المقس(١١٣) .

كما حرصــوا ايضا على تخصيص الموارد اللازمة للانفاق عليه من كافة الوجوه ، فوقفوا عليه الأحباس كما فعــل الخليفة الحاكم . وقــد أمدنا المقريزى بنص وثيقــة وقفيتــة ، كما كان للأزهر موارد اخرى غير الاحباس مثــل الاحباس والأعطيات ومال النجوى(١١٤) الــذى يؤديــه الحاضرون فى مجالس الدعوة ، وكان ينفق منــه على الدعاة وعلى طلاب الأزهر وشيوخه .

كما كان للطلاب نصيب من الصــدقات النوعية والمــالية التى يمنحها بعض الأمراء والكبراء لهم ولم تنقطع هذه الموارد عن الأزهر واساتذتــه وطلابه طوال هذا العصر .

الأزهر فى عصر الدولة الأيوبيــة :

جاء العصر الأيوبى الــذى استمر ما يقرب من مائة ســنة ، تغير فيهــا حال الأزهر وأراد الأيوبيون محو كل أثر الشــيعة ، وهــذا هو صــلاح الدين يهم بهــدم الجامع الأزهر لكن العلماء عقــدوا مجلســا على الفور واقنعوه بعــدم هدمه ، والاكتفاء باغلاقه وتركه فأهمل الأزهر مركز الدعوة الشــيعية ومنعت الخطبة فيه حوالى المــائة سنة المذكورة ، وقطعت عن الأزهر كثيرا مما أوقف عليه من أوقاف(١١٥) .

(١١٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٧٣ وما بعدها .
(١١٤) نفس المرجع ج ١ ص ٣٩١
(١١٥) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ٥٢ ، منصور رجب : الأزهر بين المــاضى والحاضر ص ٢١

وبدأ صلاح الدين يستعيض عن الأزهر بانشاء المدارس التى تزاحم الأزهر كمؤسسة تعليمية وتدعو للمذهب السنى ، فبنى مدرسة للشافعية بجوار قبر الامام الشافعى سنة ٥٦٦ هـ — ١١٧٠ م .

ثم شرع فى بناء مدرسة بجوار جامع عمرو خصصها للمالكية واطلق عليها (المدرسة القمحية) ووقف عليها قيسارية بمصر ، وضيعة بالفيوم تعرف بالجيوشية ، كانت تدر القمح الذى يوزع على طلابها فنسبت اليه .

كما انشئت مدرسة أخرى للحنفية بالقاهرة سميت (بالمدرسة السيوفية) وذلك سنة ٥٧٢ هـ — ١١٧٦ م ثم اخذت المدارس تكثر بعد ذلك وتزاحم الأزهر ، وتجذب اليها الطلاب حتى بلغ عددها كما يقول المقريزى خمس وسبعون مدرسة(١١٦) .

ولاشك أن الأزهر قد تأثر بحركة انشاء المدارس ، فبدأت به الدراسة للفقه على المذاهب الأربعة وبعض العلوم الحديثة كالحساب والهندسة والطب والفلك ، وبدأ يساير ركب التطور العلمى واصبحت له أهمية وشهرة فى العالم الاسلامى ، وتوافد عليه الطلاب من مختلف أقطاره وكذلك قصده العلماء للتدريس فيه(١١٧) .

ومن أشهر من وفد عليه من العلماء العلامة عبد اللطيف البغدادى الذى جاء من بغداد الى مصر حوالى سنة ٥٨٧ هـ — ١١٩١ م وأخذ يقرىء الناس فى الجامع الأزهر ، وقضى فى مصر سنوات يزاول علم التشريح ، ويدرس علم الحيوان والنبات ، وانصرف الى الدراسة والتأليف فى فروع مختلفة من العلوم الفلسفية والطبية والتاريخية والنبات والحيوان ، ولكن وبكل الأسف — لم يصلنا من مؤلفاته سوى كتاب « الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر »(١١٨) .

---

(١١٦) الخطط جـ ٢ ص ٢٧٢ وما بعدها .

(١١٧) د. أحمد عزت عبد الكريم : التعليم فى مصر فى عصر محمد على ص ٢ ط النهضة المصرية سنة ١٩٠٣ م .

(١١٨) د. سليمان حزين وآخرين (موفق الدين عبد اللطيف البغدادى) ص ٣ وما بعدها ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

الأزهر فى العصر المملوكى :

أشرنا الى أن الأيوبيين لما لم يستطيعوا محو الأزهر من الوجود وازالته من على وجه الأرض حاربوه بانشاء المدارس التى قصدها العاملون والمتعلمون ليتفيئوا فى ظلالها الخير العميم والمرتبات المنتظمة ، الا قليلا منهم .

وأهمل الأزهر من الصلاة والخطبة والتدريس فيه — الا قليلا — قرابة قرن من الزمان حتى تشعث وتشققت جدرانه ، وجفت مياهه ، وكاد يصبح أثرا بعد عين حتى قيض الله له جارا كريما فى بداية العصر المملوكى هو الأمير « عز الدين ايدمر الحلى » أحد أمراء السلطان بيبرس البندقدارى الذى جمع ما تبدد من أوقاف الجامع الأزهر ، وانتزعه من أيدى غاصبيه ، ثم جدد سقوف الجامع ورمم جدرانه ، وبلط أرضيته وأقام للجامع منبرا كل ذلك من ماله الخاص .

وقد أعاد هذا الأمير الخطبة الى الأزهر بعد استفتاء العلماء فى ذلك ، فقد استفتى القاضى عبد الملك بن درباس فامتنع عن اقامة خطبتين لجمعتين فى بلد واحد ، وأفتى بجواز ذلك قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ، وأخذ الحلى برأى من أجاز ، وأقيمت الجمعة فى الأزهر فى ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ — ١٢٦٧ م — بعد استئذان الحلى للسلطان بيبرس ، وأقيم لذلك احتفالا كبيرا مهيبا فيه ، ثم فى دار الأمير المذكور .

وكان للأمير المملوكى « بيليك الخازندار » دورا بارزا فى هذا التجديد ، فقد أنشأ بالأزهر رواقا كبيرا لتدريس الفقه الشافعى ، ودراسة كتب السنة المحمدية ، وقراءة القرآن الكريم فيه ، وأوقف على الدارسين وأساتذتهم الأطيان والعقارات لينفق من ريعها على المنقطعين به (١١٩) .

منصب التدريس بالجامع الأزهر :

كان منصب التدريس بالجامع الأزهر من المناصب الرفيعة التى تتوق اليها نفس كل عالم طموح ولاتقل بحال من الأحوال عن منصب

---

(١١٩) خطط المقريزى — مرجع سبق — ج ٢ ص ٢٧٥

القضـــاء ، فقد كان الشيخ او الاســـتاذ بالازهر او المدرسة او المسجد يصـــدر به مرسوم خاص تغدق عليه فيـــه الألقاب العلمية ، وينصح برعاية الطلاب واعزازهم والعطف عليهم ومعاملتهم بالحسنى ، وتوضع هـــذه المراسيم فى المدرسة او المساجد ذات الشأن(١٢٠) .

وكان المـــدرس بالازهر — كى يحصـــــل على هـــــذا المنصب الجليـــل — يمر باختبـــارات شـــاقة ، حيث يحـــدد لـــه شـــيوخه ما يسمى بالتعيين وهى قطعة من الكتاب المطلوب اجازته فيه ســـواء كان ذلك فى علوم التفسير أو الحـــديث أو الفقه أو غيرها ، ويأتى اليوم المحدد للامتحان حيث يلقى الطالب أمام الطلاب وشـــيوخه الحضور امامه محاضرة يبدأها بالبســـملة والحمد له والحوقلة ويـــذكر المصادر التى حصل منها درسه هذا بعد ان يدعو لمشايخه والحاضرين وجميع المسلمين(*) .

ثم يتوغل فى محاضرته بادئا بالسهولة ثم الصـــعوبة فالأصـــعب وهكذا الى أن ينتهى من الدرس ويفتح باب الاسئلة حيث يمطره الطلاب بوابل من الأســـئلة بقصد التعجيز ، فاذا اجاب على اســـئلتهم واستطاع اقناعهم اعتبر هـــذا فى حد ذاته نجاحا للطالب وعلى اساتذته منحه اجازة علمية ممهورة بتوقيعاتهم(**) .

أروقـــة الأزهر :

كان الأزهر اول مؤسســـة علمية جامعة اهتمت اهتماما بالغا بانشاء المســـاكن والاقامة فيهـــا والاعاشة بهـــا اعاشة كاملة لطلاب العـــلم والعلماء .. ويرجع الفضـــل فى ذلك الى الوزير يعقوب بن كلس الذى انشـــأ — بأمر من العزيز بالله الفـــاطمى — دارا بجوار الأزهر تتســـع لســـبع وثلاثين فقيهـــا واجرى عليهم الأوقاف التى تعينهـــم على طلب العلم — كما اشرنا الى ذلك منـــذ قليل — وشجع طلاب الأمصـــار الى الوفود على الأزهر وتوســـع فى اقامة المســـاكن لهم حيث كانت نـــواة

---

(١٢٠) عبد الوهاب حمودة : صـــفحات من تـــاريخ مصر فى عصر السيوطى ص ٨٨

(*) راجع صورة الاجازة العلمية بملاحق الكتاب وتنشر لأول مرة .

(**) راجع صورة تصدير السيوطى بالملاحق .

لأروقة جديدة ، فكان العزيز ووزيره أول من فكر فى نظام المنح الثقافيــة الدراسية للطلاب واول من عمل على بناء المساكن لهم(١٢١) .

ومازال الأزهر للآن يسير على نظــام المنح الدراسية لطلاب العالم الاســلامى ، واقام الأزهر مدينــة البعوث الاســلامية لهم لتحل محــل الأروقــة القديمة التى لم تعد صالحة للســكنى خاصــة بعد التوســع فى المنح الدراسية .

وقــد زاد بعد ذلك عــدد الطلاب الوافدين على الأزهر .. وتبع ذلك التوســع فى الاسكان والاعاشة لهؤلاء الطلاب وكان لابد لراحتهم من زيادة عدد الأروقة ، بانشــاء اعداد منها تتناسب تناسبا طرديا مع هذا الجذب الحضارى المستمر الى الجامع الأزهر .

وقــد بلغ عدد الأروقة تســع وعشرون رواقا تقريبا ومثلها حارات يسكنها المصريون والمبعوثون ولأهل كل جنس أو منطقة رواق خاص بهم ، لكن من المؤكد ان تعدد الأروقة يعطينا فكرة واضحة عن كثرة عدد البلاد الاســلامية التى كان ابناؤها يفدون منهــا على الأزهر طلابا للعلم ، وكان هؤلاء الوافدون يحملون معهم رســالة الاسلام الثقافية والدينية والعلمية عند عودتهم الى بلادهم ، وهكذا كان الأزهر عنصرا فعــالا وايجابيــا فى الحضارة الانسانية .

ولم نســتطع التعرف على اقدم الأروقة التى يمكن أن نبدأ بهــا ، فلم تذكر لنا المراجع المعاصرة ذلــك غير مــا ذكره المقريزى عن رواق « الريافــة » وهو بصدد حادثة الامير « سودوب الحاجب » الــذى دهم الأزهر ليلا واخرج منه الطلاب واخرج صناديقهم ومتاعهم بصورة منكرة .

وبقراءتنا لبعض التراجم « بالضوء اللامع » للسخاوى ، استطعنا أن نؤكد على اقدمية بعض الأروقة ونستطيع أن نرتبها حسبما امدتنا به هذه المصادر ومنها :

١ — رواق المدرسة الطيبرسية : ويسكن به طلبة وشــيوخ هذه المدرســة .

(١٢١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٧٧ ، صبح الاعشى جـ ٣ ص ٣٦٧

٢ — رواق المدرسة الأقبغاوية : ويسكن به طلبة وشيوخ هذه المدرسة .

٣ — رواق الأكراد : ويسكن به طلاب المنطقة الكردية ويقع بجوار رواق القبلة على يمين الداخل من باب المزينين .

٤ — رواق الهنود : ويسكن به طلاب منطقة شبه القارة الهندية ويقع على يمين الداخل من باب المزينين .

٥ — البغداديين أو البغادة (اهل بغداد) ويقيم به ابناء العراق ، من أعلى رواق الهنود ويشتمل على مسكنين ومطبخ وبيت خلاء .

٦ — رواق البرنية : ويقيم به طلاب البرنو فى غرب افريقيا (امبراطورية البرنو) ويقع بين رواق الاتراك ورواق اليمنية .

٧ — رواق اليمنية : ويقيم به طلاب وشيوخ منطقة جنوبى بلاد العرب .

٨ — رواق الجبرت : لأهل شاطىء الصومال ، ويقع داخل رواق البرنية ، ويقطن به اهل الصومال واثيوبيا واريتريا .

٩ — رواق الأتراك : على يسار الداخل من باب المغاربة ، انشاه السلطان قايتباى وزاد عليه الأمير عبد الرحمن كتخدا . ويطلق عليه أحيانا « رواق الأروام » وكان يحتوى على ١٦ عمودا من الرخام واثنى عشر مسكنا علويا وله خزانة كتب جامعة وله مطبخ وبئر وحنفية واخلية ، وأوقافه يستحقها كل مجاور من بلاد الترك .

١٠ — رواق السليمانية : وكان مخصصا لأبناء افغانستان وخراسان وكان به خمسة مساكن وخزانة كتب كبيرة .

١١ — رواق الجاوة : كان بين السليمانية ورواق الشوام ، وبه خزانة كتب كبيرة ، وهو مخصص لاهل أندونيسيا .

١٢ — رواق السنارية : لاهل طلبة السودان وما جاوره غربا ومازال هذا الرواق موجودا الى الآن .

١٣ — رواق الشوام : وهو من انشاء السلطان « قايتباى » أيضا ، وكان بأعلاه نحو الثلاثين حجرة لمجاورى الشوام (فلسطين

وســـوريا ولبنان) وكان به خزانة كتب كبيرة ومن الذين اقاموا بهـذا الرواق : الكركى الأزهرى(١٢٢) .

١٤ — رواق الحرمين أو (المكاوية) ويســكنه طلبة مكة المشرفة والمدينة المنورة والطائف وسائر جهات الحجاز .

١٥ — رواق اليرامبرة : عند شمال الداخل من باب المقصورة الشرقى (باب الشوربة) .

١٦ — رواق دكارنة صليح : لاهـل اقليم بحيرة تشـاد والتكرور وغيرها ويجاور رواق الشراقوة(١٢٣) .

١٧ — رواق المغاربة : وهو من الأروقة القـديمة ويقع بالجانب الغربى من صحن الجامع ، وقد جدده السـلطان قايتباى رحمه الله وقد كتب على بابه : « أمر بتجديده مولانا وسـيدنا السلطان الملك الأشرف قايتباى على يـد الخواجا مصطفى ابن الخواجا محمود غفر الله لهمـا . وهو من الأروقة الكبيرة الهامة حيث يشـتمل على خمس عشرة بائكة قائمة على أعمدة من رخام ، وبه مساكن علوية ، وكان لم بئر ومطبخ وحنفيـة داخلية وبـه خزانة كتب كبيرة ، ويستحق أوقاف هـذا الرواق كل مجاور من بلاد المغرب العربى (المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريتانيا) .

وكان لهذا الرواق بواب ، جاب للوقف ، وكاتب غيبة يتولى اثبات الغائبين والحاضرين والمسـافرين وغير ذلك ، بالاضـافة الى شـيخ الرواق ونقيبه .

١٨ — رواق الجوهرية : ويقيم بهـذا الرواق طلبـة المدرسـة الجوهرية القنقبائية المرتبين بها .

١٩ — رواق ابن معمر : وهو رواق علم لجميع الأجناس لا يخص جهة معينة بخلاف غيره ، لذلك نجـد له شهرة كبيرة فى المصادر المعاصرة لكثرة من ينتمى اليه .

---

(١٢٢) الضوء اللامع جـ ١ ص ١٧٥ — ١٧٨ .

(١٢٣) راجع عن هذه الأروقة الشيخ سليمان رصد الحنفى : كنز الجوهر ص ٩٦ — ١١١ .

وينتسب هـذا الرواق الى العلامة عبد القوى بن معمر بن سليمان البجائى المـالكى المغربى الـذى قدم الى القاهرة ليدرس بالأزهر على شيوخه ، وسكن به ت سنة ٨١٦ هـ — ١٤١٤ م(١٢٤) .

وممن تولى شيخة هـذا الرواق احمد بن عبيد الله الشهاب السجينى الأزهرى الشـافعى سنة ٨٥٦ هـ — ١٤٥٢ م(١٢٥) .

هذه تقريبا هى الأروقة الخاصة بالمبعوثين الى الأزهر .

اما الأروقـة الخاصـة بالمصريين والتى ذكر بعضهـا فى المراجع والمصادر فهى :

١ — رواق الريافة : وهو رواق عام مخصص لأهل ريف مصر ، وهو رواق كبير من الأروقة التى كانت موجودة فى العصر المملوكى بشقيه وربما قبل ذلك ، وقـد تحدث المقريزى عن هـذا الرواق ضمن حـديثه عن حادثة الأمير سودوب الحاجب الـذى اخرج الطلاب عنوة من الأزهر ومعه جماعـة من الغوش نهبوا الطلاب واخـذوا ما معهم من الـذهب والفضـة(١٢٦) .

٢ — رواق البحاروة : لاهل الوجه البحرى ، ولم يعـد له وجود لانتقال طلبته الى الرواق العباسى الجديد .

٣ — رواق الصعايدة : وهو من الأروقـة الكبيرة الشهيرة بالأزهر ، بل اشهرها جميعا من انشـاء عبد الرحمن كتخدا .

٤ — رواق الشراقوة : لاهـل مديرية الشرقية من انشاء الوالى ابراهيم بك بناه حبا وتخليدا لـذكرى الشيخ عبد الله الشرقاوى شـيخ الاسلام وشيخ الجامع الأزهر .

٥ — رواق زاوية العميان : وهو من انشـاء الأمير عثمان كتخدا ، ولايسـكن فيه غير العميان ولهم شيخ منهم ومرتبات تصرف عليهم .

---

(١٢٤) الضوء اللامع جـ ٤ ص ٣٠٢

(١٢٥) نفس المرجع جـ ١ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧

(١٢٦) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٧٦

٦ — رواق الفشنية : وهو خاص بسكن المجاورين من منطقة الفشن (من مراكز بني سويف الآن) .

٧ — رواق الفيمة أو الفيومية : ويسكنه الطلاب من منطقة الفيوم .

٨ — رواق الشنوانية : **ويعرف برواق الواطية أو رواق الاجاهرة** أو المنايفة وخصص لأهل هذه المنطقة من المنوفية .

٩ — رواق الحنفية : وكان النظر عليه لمفتى الديار المصرية من الاحناف .

١٠ — رواق الحنابلة : من انشاء عثمان كتخدا ايضا ، وهو خاص بفقهاء الحنابلة .

١١ — الرواق العباسي : نسبة الى الخديوى عباس حلمى الثانى تم انشاؤه فى عهد مشيخة الشيخ حسونة النواوى للأزهر واحتفل بافتتاحه سنة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٧ م ويتكون من ثلاثة طوابق .

حلقات العلم بالجامع الأزهر :

كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة اعمدة معينة واساتذة ، لايجلس للتدريس بجانبها غيرهم ، وكان الطالب حرا فى اختيار استاذه ، واختيار الحلقة التى يريدها الى جانب اعتماده على نفسه أو على من سبقوه فى دروسه .

والحلقة فى ابسط صورها عبارة عن مجموعة من الطلاب قلوا أو كثروا ، يجلسون حول استاذهم فى شكل دائرة غير كاملة والشيخ جالس امامهم على كرسى من الخشب أو الجريد يلقى عليهم دروس العلم فى فروعه المختلفة وهم ينصتون وكأن على رءوسهم الطير ، فاذا فرغ الشيخ من القاء درسه فتح للطلاب باب الأسئلة ، والطلاب يسألون شيخهم عما غمض عليهم من دورس العلم . .

* * *

تقـاليد قـديمة بالأزهر

كرسى الأستاذية انتقل الى جامعات العالم(١٢٧) من الجامع الأزهر :

انتقل الى جامعات العـالم المختلفة شرقا وغربا « كرسى الاستاذية » فيقولون مثلا : فلان اسـتاذ كرسى الفلسـفة بجامعـة « كمبردج » فى انجلترا ، وفلان اسـتاذ كرسى التاريخ الاسـلامى بجامعة « بوسطون » بأمريكا وغير ذلـك من كراسى التـدريس ، وكلمة كرسى هـذه ما هى الا الكرسى الذى يجلس عليه فطاحل الشيوخ حول اعمدة الأزهر .

المعيد تقليد قديم أيضا بالجامع الأزهر(١٢٨) :

كان لكل شـيخ بالأزهر « معيد » يختاره الشـيخ من بين نوابغ طلابه علما وعملا وتقوى وخلق وأدب جم وتفوق وتفرد فى العلم ، ليقوم باعادة الـدرس بعد انتهاء الشـيخ منـه ، وهو تقليد قـديم موجود بالأزهر ، انتقـل منه الى جامعات العـالم المختلفة ، وذلك لأن بعض الشـيوخ كان لهم اسـلوب عالى فى القاء دورسهم على الطلاب . فاذا سألهم الطلاب أن ينزلوا بأسـلوبهم للطلاب قـال : لاننزل اليكم ولكن ترقوا أنتم الينـا .. ومن هنا كانت الحاجة الى المعيد ليعيـد للطلاب ما خفى عليهم بالاضـافة الى أن بعض الطلاب يصـاب بالخجل من توجيه الاسـئلة الى شيخه كنوع من توقير الشـيخ وهيبته لذلك ترك للمعيـد وهو طالب قـديم أن يهيىء الفرصـة لزملائه بالمناقشـات الواسـعة المستفيضـة .

كل شـيخ وله طريقة تقليد قديم بالأزهر :

كان لكل شـيخ من شيوخ الحلقات والأعمدة بالجامع الأزهر طريقته الخاصـة فى توصيل المعلومات الى طلابه فهناك شيوخ من ذوى الأصوات العالية ، وآخرين من ذوى الصوت الخفيض الهادىء .

(١٢٧،١٢٨) الأزهر ورحلة ألف عام — مقال طويل بمجلة المصور عدد ٣ جمادى الثانية سنة ١٤٠٣ هـ ١٨ مارس ١٩٨٣ م للدكتور مجاهد الجندى بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر .

وبعضهم كان يرتجل المحاضرة وبعضهم يقرأ من المخطوط عن طريق قارىء من الطلاب ، ثم يقف عقب كل فقرة ليوضح ما غمض عليهم بهمه من الدرس .

وبعض الشيوخ كان لـه أسلوب سهل واضح يفهمه كل الطلاب والبعض له أسلوب عال غامض لايفهمه الا بعضهم .

وبعضهم كان يختصر فى شرحه مكتفيا بحل الألغاز وتوضيح المبهم منها على طلابه ، والبعض الآخر كان يعمد الى الاسهاب والتطويل والتوضيح والتكرير والاعادة حتى يفهم كل الطلاب .

وأمام الطالب الحلقات المختلفة والشيوخ بمناهجهم وأساليبهم ، وعليه أن يختار الحلقة التى تتناسب وميوله الشخصية ومواهبه التى غرسها الله فيه .

وهذا هو معنى قولهم « كل شيخ وله طريقه »(١٢٩) .

الجامع الأزهر كان مجمعا دينيا :

جمع الأزهر بين المدرسة وهى الحلقة المخصصة للتعليم ايا كان نوعه ، وجمع بين الخلوة والزاوية والرباط والخانقاه والقبة وكلها أماكن للدراسة وعبادة المتصوفين ، وجمع اليه كذلك المقراة وهى التى يجتمع فيها قراء القرآن الكريم فى مكان معين بالجامع ليختموا القرآن كله مرة كل يوم أو عدة مرات فى اليوم أو مرة كل ليلتى جمعة واثنين ، ويوهب ثواب ذلك للواقف ، وكل هذه الأشياء كانت موجودة بالجامع الأزهر ، ولذلك صح أن يطلق عليه « مجمعا دينيا » .

أعلام الأزهر فى العصر المملوكى :

حوى الأزهر فى عصوره المختلفة مجموعة ضخمة من العلماء الأعلام الذين ملئوا الدنيا علما وحضارة مما لايحصون كثرة لوجودهم من بقاع الأرض المختلفة .

---

(١٢٩) الدكتور مجاهد توفيق الجندى : نظام الدراسة قديما وحديثا بالجامع الأزهر — بحث لم ينشر — قدم فى مناسبة الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر للأمانة العامة للاحتفال فى جمادى الثانية سنة ١٤٠٣ هـ — مارس ١٩٨٣ م .

واكتفينا فقط بالعصر المملوكى لازدهار الحركة العلمية فيه ولكثرة العلماء الذين وفدوا عليه عقب سقوط بغداد وعقب سقوط الأندلس وانصهر الجميع فى بوتقة القاهرة المضيافة فأثروا الحلقات والمكتبات والدراسات بالجامع الأزهر ، حتى وصف بعض الباحثين العصر المملوكى البحرى بالعصر الذهبى للأزهر ، والعصر المملوكى البرجى بالعصر الماسى للأزهر ، ويكفى أن نشير فيهما الى العلامة ابن منظور الأفريقى المتوفى سنة ٧١١ هـ والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد والسبكى والزركشى وابن جماعة وابن النقيب وابن نباتة والبوصيرى وابن فرحون وابن خلدون والبلقينى والدميرى والقلقشندى والفيروزبادى وابن حجة الحموى والشمس النواجى والمقريزى وابن حجر العسقلانى والعينى وابن الصيرفى وابن تغرى بردى والسيوطى وبحرق الحضرمى والسخاوى وابن اياس وغيرهم وغيرهم من الفقهاء والقراء والادباء والشعراء والمؤرخين والأصوليين والنحويين واللغويين .

لم يكن الجامع الأزهر جامعة وطلبة خاصة بالمعنى المفهوم اليوم ، بل كان جامعة العالم الاسلامى بأسره يؤمه الطلاب من جميع أنحاء العالم .

الجامع الأحمدى بطنطا :

● يعتبر الجامع الأحمدى بطنطا مركزا من مراكز العلم بأقاليم مصر ، وهو ينتسب الى العارف بالله السيد الشريف أحمد البدوى القطب الصوفى المشهور الذى هبط مدينة طنطا فى أواسط القرن السابع الهجرى فحولها من قرية منسية الى مدينة كبيرة عامرة والذى ولد فى مدينة « فاس » باقليم مراكش (المغرب العربى) فى سنة ٥٩٦ هـ وقد هاجرت اسرته الى الحجاز حيث حفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الشافعى ومبادىء التصوف والقراءات السبع ، ولبس الخرقة ولا يزال فى السابعة من عمره ، وظل يتدرج فى سلوكه الصوفى حتى صفت نفسه وتهذبت روحه وأصبح من المتصوفة الكبار الذين يشار اليهم بالبنان .

وفى سنة ٦٣٢ هـ هاجر الى العراق ، وتجول فى ربوعها بقصد التعرف على رجال الصوفية وليدرس اسرارهم وهو لا يفتر عن ذكر الله

الليل نهـــار ، وقـــد رجع بعد ذلك الى الحجـــاز واستغرق فى الحب الالهى واعتزل النـــاس ودخل خلوته يتعبـــد ويتبتل ، واشـــتد به الوله فراى أن يفـــارق الحجاز الى بلد آخر ، فســـاح فى الأرض هنا وهنـــاك ووصل الى مصر وانتهى بـــه المطاف الى مدينة طنطا الحالية ســـنة ٦٣٨ هـ ونزل ضـــيفا على الشـــيخ « ركين » التاجر فاكرم وفادته وظل يخـــدمه حتى اشـــتهر أمر سيدى أحمد البـــدوى بين أرجاء القرى والمـــدن ، ووصلت شـــهرته الى الظاهر « بيبرس » ســـلطان مصر الذى أرسل اليه الشيخ الجليل ابن دقيق العيـــد ليختبر حاله . ولـــا عرف انـــه رجل صـــالح أطمئن الظـــاهر بيبرس وجاء لزيارة الســـيد البدوى مرتين حمل فيهمـــا الكثير من الهدايا والكساوى والاطعمة الى البدوى ومريديه .

وبقى الســـيد أحمد البدوى فى طنطا متمتعا بعبـــادة ربه واقبـــال النـــاس عليه حتى مات الشـــيخ ركين فانتقل بعـــد ذلك الى دار شيخ البلد « شـــحيط » وكانت داره بجوار مســـجد البوصة « مســـجد البهى الآن » وكان الســـيد البدوى رجلا عاملا بكتاب الله وســـنة رســـوله حتى لقى ربـــه فى ســـنة ٦٦٩ هـ فى عهد الظاهر بيبرس ، ودفن حيث قبره الآن فى مســـجده الشهير باســـمه والذى يهرع اليه النـــاس من كل مكان للتبرك بـــه .

الأوقاف على طلاب وشيوخ الجامع الأحمدى :

كثرت الأوقاف والاحباس على طلاب العلم المجـــاورين بالجـــامع الاحمدى حتى يتفرغوا لطلب العلم وكذلك على شيوخهم الـــذين يقومون بتربيتهم وتعليمهم وتهذيب اخلاقهم ..

وقـــد دأب أهل الخير من الاغنيـــاء سلاطين وامراء وتجار وعلمـــاء على رصـــد الضيع من الاطيـــان والعقارات والطواحين ومعاصر الزيوت والرباع وغيرها على طلاب العلم .

ومن هؤلاء بالنســـبة للجامع الأحمدى « على بك الكبير » ، و « أحمد باشا المنشـــاوى » والحاج خليل ابراهيم ارناؤوط فالأمير « على بك الكبير » أوقف على طلاب الجامع الأحمدى وشـــيوخه ٩٧٥ و ٧١٨ اردبا من القمح

وريعـــا صافيا قـــدره ٥٢٥ر٨٤٨ نصـــف فضة وهى لاشك أرقام كبيرة حتى فى عصرنا الحاضر .

والحاج « احمد باشـــا المنشاوى » اوقف على المجاورين والشيوخ بالجـــامع الأحمدى ارضـــا بناحية ميت يزيد و « القرشية » مركزا السنطة غربية عبارة عن حدائق مانجو وعنب وموالح وغيرها .

والحاج خليل ابراهيم ارناؤوط أوقف على طلاب الجـــامع الأحمدى وشـــيوخهم خمسا وعشرين فـــدانا تقريبا تغل ريعا قـــدره ٤١٣ جنيها تقريبا ســـنويا ، وتقع هـــذه الأرض بناحية العواســـجة مركز ههيـــا مديرية الشرقية .

● اول شـــيخ للجامع الأحمدى :

لا نعرف بالضـــبط أو شـــيخ للجامع الأحمدى ، ولكن يوجـــد بمكتب شـــيخ المعهد الحالى الشـــيخ محمد أبو الفتح شـــاهين لوحة عليهـــا أسماء وصـــور شيوخ الجـــامع الأحمدى ويتضـــح منها أن أول شـــيخ له هو « محمد أبو النجا » وشـــهرته « مجاهد » ويليه الســـيد « محمد الامام القصـــبى » الذى تولى التدريس بالجـــامع الأحمدى حين شب عن الطوق والـــذى آلت اليه مشيخة الجامع الأحمدى بعـــد ذلك ، وسمـــع التلاميذ منه الفقه والعلم والحكمة .

يقول « على مبارك » عن الجامع وقتها .

انه صـــار (له فى تـــدريس العلوم شبها بالجامع الأزهر) ، وان فيـــه (٢٠٠٠ الفين من الطلاب غير المدرســـين) ، وان له (شيخا كشيخ الجـــامع الأزهر) ، وانه (قـــد تداولت مشـــيخة العلماء بالجامع الأحمدى قـــديما وحديثا جملة وافرة من أجلاء العلمـــاء وفضلائهم) ، وكان أولهم ســـيدى الشيخ مجاهد ، شـــيخ الجامع على ايام على بك الكبير ، وصاحب القبة الشرقية بالمسجد الحالى .

● نوع الدراسـة بالجامع الأحمدى :

كانت الدراســـة بهذا الجامع لغوية دينية كما هو الحـــال فى كل المدارس فى أيام العثمانيين فكانت تشـــمل بهذا المفهوم التفسير والحـــديث

والفقه والأصول والتوحيد والفرائض والنحو والمعـانى والبيان والبديع والعروض ولكننا نعتقد أنهـا كانت تشـمل أيضا بعضا من العلوم الدنيوية التى تخـدم علوم الـدين كعلم الفلك والحسـاب والفرائض (المواريث) والطبقات . والتاريخ وغير ذلك .

● **حلقات العلـم بالجامع الأحمـدى :**

وقف على بك أوقافه على عشرة من العلمـاء الاجلاء يقومون بالقاء الدروس فى عشر مواد ويوقف عليهم سـنويا مائة اردب من القمح بالاضافة للنقود . كما أنـه أوقف ١٢٦٠ نصـف فضة تصرف سـنويا (فى معلوم رجل من علماء المسـلمين المحدثين يقرأ فى المسـجد المرقوم فى كل يوم درسـا فى حـديث البخارى) ولكن باتسـاع التعليم واضطراده بالجامع الاحمـدى كثرت الأوقاف وبزيادتهـا زاد عـدد الطلاب وزاد بالطبع عدد الشـيوخ حتى بلغ عـدد الحلقات ما يقرب من الستين حلقة يدرس فيها كبار الشيوخ وفحول العلماء .

ففى سـنة ١٣٠٩ هـ الداخلة فى سـنة ١٣١٠ هـ شوالية كان عدد الشـيوخ الذين لهم حلقات دراسـية اكثر من ثمانية وثلاثين شيخا من كبار الشـيوخ .

● **عـدد طـلاب الحلقة :**

وكان عـدد الطلاب فى الحلقة الواحـدة يتراوح فى المتوسـط بين الخمسـة عشر طالبا والثلاثمائة طالب ، وكان الطلاب فى كل حلقة يسجلون بسـجل حصر الطلاب ، ويـذكر فيه الاسم واسـم الأب والجد واللقب أن وجـد والبلد والمركز والمديريـة واحيانا يذكر مـدة الحضـور التى حضرها الطالب .

● **صندوق النذور واثره على طلاب العلم بالجامع الأحمدى :**

يوجـد بضريح السيد احمد البـدوى صندوق كبير يوضـع فيـه النذور التى ينذرها النـاس بسبب شـفاء مريض أو نجاة من كارثـة محققة أو عودة مسـافر من مكان بعيـد وغير ذلك وعادة ما تكون هذه النذور نقودا أو مشـغولات ذهبيـة أو مأكولات من حلوى وغيرهـا ..

فالمأكولات توزع حالا على المجاورين بالجامع الأحمدى اما النقود والمشغولات الذهبية فتوضع عادة فى الصندوق المخصص لذلك وهو صندوق النذور الذى أشرنا اليه .

ولهذا الصندوق مجلس ادارة يجتمع كل ثلاثة أشهر تقريبا او اكثر أو اقل حسبما تقتضيه الظروف ، ويتكون من بعض رجال الأوقاف وبعض رجال الجامع الأحمدى وبعض رجال الأمن ، واعضائه ممن يشتهرون بالامانة والنزاهة .

● **أوجه الانفاق من الصندوق :**

ينفق من هذا الصندوق على مصالح الجامع الأحمدى : ترميمه وفرشه بالبسط والحصير واضاءة القناديل واصلاح ما تكسر منها وزيت الاضاءة والنظافة وغير ذلك وما بقى يعتبر رصيد لمصالح الجامع العامة .

واحيانا لا يفى الوقف على طلاب العلم بالجامع الأحمدى ما يكفى حاجة الزيادة المضطردة من الطلاب الذين يكثرون سنة بعد سنة ، وحينئذ يكون صندوق النذور هو المنفذ الوحيد الذى ينفق من رصيده على هؤلاء الطلاب الجدد الى ان يتيسر لهم موارد مالية أخرى .

ومن ثم قام صندوق النذور بدور بارز فى الانفاق على المجاورين وفقراء الطلاب الذين سدت أمامهم ابواب الرحمة ، وجلسوا فى حلقات العلم ولهم حصة تكفيهم العوز والحاجة من هذا الصندوق العظيم .

ثالثا — المدارس :

شهدت مصر تطورا كبيرا فى نظام التعليم ، نتيجة لكثرة انشاء المدارس فى العصر الأيوبى ، ومع بداية العصر المملوكى ، كان نظام المدرسة قد اكتمل وأصبح ناضجا ، فقد ورث المماليك عن سادتهم الأيوبيين تشجيعهم للتعليم ، واقبالهم على بناء المدارس لأسباب مختلفة ، حتى اصبح من المعتاد ان يكون من آثار السلطان مدرسة أو أكثر(١٣٠) . ولا مبالغة فى قول القلقشندى : ان سلاطين المماليك بنوا من المدارس ما ملأ الاخطاط وشحنها(١٣١) وكان كثرة البناء للمدارس اصبح شعارا للدولة المملوكية ورمزا لها .

والواقع انه لايمكن القول بأن كثرة انشاء المدارس كان سياسة للدولة ، كل ما هناك ان السلاطين والأمراء المماليك اكثروا من بناء المدارس والمكاتب مدفوعين الى ذلك بعوامل شتى منها : استخدامها فى محاربة المذهب الشيعى أو اتخاذها اداة او دعامة لترسيخ حكمهم ودعم مركزهم بين افراد الشعب(١٣٢) .

واذا كان السلاطين والأمراء المماليك قد اهتموا بانشاء المدارس لأسباب مختلفة فقد وجد من طوائف الشعب من اهتم ايضا بانشائها من الأغنياء ، فكثرت اعدادها كثرة بالغة ، حتى قال ابن بطوطة : « وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها »(١٣٣) .

وقد اتصفت المدارس التى بنيت فى العصر المملوكى الجركسى بأناقتها وروعتها وضخامتها وبهائها ولم يبخل منشئوها فى الصرف عليها ، فقد بلغت عمارة مدرسة المؤيد شيخ اكثر من سبعين الف

---

(١٣٠) د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٤٢ .

(١٣١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٦٧ .

(١٣٢) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٢٨ .

(١٣٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٢٧ .

دينار(١٣٤) ، أما مدرســـة « السلطان الغورى » فقـــد بلغت جملة ما انفق عليها نحو مائة الف دينار(١٣٥) .

وفى بعض الأحيـــان كان يحتفل ببدء بنائهـــا فى موقعها كما فعـــل الســـلطان المؤيد شيخ عندما شرع فى بناء مدرســـة فى أوائل ربيع الآخر ٨١٨ هـ — ١٤١٥ م . وبعـــد الفراغ من بناء المدرسة كان يحتفل بافتتاحها احتفالا كبيرا يليق بمركز منشئهـــا وخاصة اذا كان من السلاطين او كبار الأمراء . حيث يزورها جمع كبير يجتمع فى افتتاحها ، فتلقى الخطب ويقرأ القرآن وتمد موائد الطعـــام الزاخرة فيأكل المدعوون ويوزع الباقى على العامة والفقراء(١٣٦) .

ثم بعـــد ذلك ينعم الســـلطان بالخلع على من شارك فى بناء المدرسة من المهندســـين والصناع وغيرهم ، فهذا الســـلطان « برقوق » يخلع على الأمير « جركلس الخليلى » وعلى المعلم « شـــهاب الدين المهندس » وعلى خمســـة عشر مملوكا للأمير « جركس » بخمسمائة درهم لكل واحد ، وكذلك على مباشرى العمـــارة وشاويها والمهندسين والبنائين(١٣٧) .

كما يعين للمدرســـة موظفيهـــا من المدرسين والفقهـــاء والفراشين وغيرهم .

ثم يبدأ الافتتاح الفعلى للمدرســـة بقيام شيخها بالقاء درس بحضور الجميع ، ثم التناقش فى بعض المســـائل الدينية والعلمية حتى يحين وقت الصلاة ثم ينفض الجميع(١٣٨) .

وكان بعض الأمراء يبالغ فى الاحتفـــال بافتتاح مدرسته — كما فعل الأمير جمال الدين الاســـتادار سنة ٨١١ هـ — حيث اســـتمر فى الاحتفال

---

(١٣٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ص ٥٨

(١٣٥) العينى : عقد الجمان جـ ١٩ (حوادث سنة ٨١٨ هـ) .

(١٣٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ٣٨١ ، المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ص ٤٦٤

(١٣٧) صبح الأعشى ، جـ ٣ ص ٢١٣

(١٣٨) السلوك ، جـ ٤ ق ١ ص ٥٠٩ ، نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٥٠

بافتتاح مدرسته سبعة أيام كان يحضر فى كل يوم عند احد المدرسين المعينين فيها حتى ينتهى من درسه ثم يخلع عليه(١٣٩) .

ولقد كانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر يخلع السلطان على صاحبها ويكتب له توقيعا يقدم فيه النصح للمدرس بأن يظهر بكون عليه للطلاب ويقبل على الدرس وهو منشرح الصدر حتى يستميل الطلاب اليه ويربيهم كما يربى الوالد ولده ، وان ينظر فيهم ويحثهم على الاشغال بالدرس فى كل وقت(١٤٠) .

وكانت تلحق بكل مدرسة خزانة كتب يرجع اليها المدرسون والطلاب والبحث . وكان يقوم بالاشراف عليها « خازن الكتب » الذى يقوم بترتيبها وتنظيمها وحفظها .

وكان الطالب اذا ما أتم دراسته فى المدرسة وتأهل للتدريس او الفتيا . اجاز له شيخه ذلك وكتب له « أجازة علمية » كانت قيمتها تتوقف على سمعة الشيخ ومكانته العلمية ، وكانت تقوم بين الحين والآخر حفلات علمية لاتخلو من الترويح عن النفس كختم البخارى ، أو الفراغ من تصنيف كتاب(١٤١) . وفى مثل هذه الحفلات كانت توزع الأطعمة والحلوى والفاكهة ، والجوز والتفاح ، ويجلس أهل المدرسة وغيرهم يمضون الوقت فى مناقشات علمية . وكانت تصرف على هذه الحفلات من الأوقاف والأحباس التى للمدرسة . والواقع ان الاوقات والأحباس التى كانت توقف للمدارس — هى التى ثبتت أركانها ودعمتها ومكنتها من القيام بأداء مهمتها العلمية .

عمارة المدرسة :

اخذت المدرسة فى التطور حتى اكتمل تصميمها المعمارى المتعارف عليه فى العصر المملوكى وهو عبارة عن صحن مكشوف او مغطى وحوله ايوانين أو اربعة أواين متعامدة أكبرها ايوان القبلة ، وتقارب التصميم

---

(١٣٩) خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٣٥٨ ، السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٤

(١٤٠) التبر المسبوك ، ص ٢٠٤ ، صبح الأعشى ، جـ ١١ ص ٢٤٦

(١٤١) السلوك ، جـ ٤ ص ١٥٥ — ١٦٠ ، التبر المسبوك ، ص ٢١٦

المعمارى لكل مدرســـة ومسجد حتى أصبح من الصعب التميز بينهما . ولكن كان أهم ما يميز المدرســـة هو مساكن الطلبة والمدرسين وغيرهم من أصـــحاب الوظائف ، وبعض الملحقـــات من القاعات والحواصـــل (الخزائن) .

وغالبا ما كان بجوار المدرســـة سبيل للمـــاء يعلوه مكتب لتعليم الأيتـــام بالاضـــافة الى وجود مدفن للمنشى وأسرته ، اذ تذكر حجـــة الســـلطان المؤيد شيخ : أنه جعل الفسقيتين معدتين لدفنه ودفن من يموت من ذريته »(١٤٢) .

وظيفـــة المدرســـــة :

اعدت المدرســـة لتكون مكانا للدراســـة والمبيت الطلبة والمدرسين وممن يقوم بخدمتهم ، وكذلك قامت بدور المســـجد بحيث يتمكن المدرسون والطلاب من اداء الصـــلاة فيها ثم تطورت المدرســـة وحدث تقارب بينها وبين الخانقاه الى أن ظهرت (المدرســـة الخانقاه) التى تجمع بين الطلبة والصـــوفية ، حتى انتهى الأمر فى عصر المماليك الجركسة الى ان اصـــبح الصوفية أنفسهم طلبة العلم(١٤٣) .

ومدرســـة السلطان « برقوق » التى اطلق عليهـــا فى حجة وقفـــه اســـم « المدرســـة الخانقاه » كانت تجمـــع فى نفس المبنى جماعـــة من الصـــوفية(١٤٤) .

كما أن معظم الطلبة فى خانقاه الأمير « جمال الدين الاستادار » كانوا من جملة الصـــوفية المنزلين بهـــا(١٤٥) .

---

(١٤٢) حجه السلطان المؤيد شيخ ١٩٣٨ اوقاف ، حجة السيفى قلمطاى رقم ٦٨ محفظة (١١) دار الوثائق القومية ، محمد مصطفى نجيب : القاهرة ، تاريخها ، آثارها ، فنوها ، ص ٢٤٤ وما بعدها .

(١٤٣) د. مجاهد الجندى : نظام الدراسة قديما وحـــديثا بالجامع الأزهر — مرجع سبق .

(١٤٤) حجه السلطان برقوق ، رقـــم ٥١ محفظـــة ٩ دار الوثائق القومية ، د. امحمد أمين تاريخ الأوقاف ص ٢٦٠ .

(١٤٥) حجة جمال الدين الاستادار رقم ١٠٦ ، محفظة ١٧ .

وعلى أى حال فقــد تشابكت الأغراض وتكاملت واصبحت المدرسة والخانقاه والمســجد او المسجد الجامع عبــارة عن مبنى واحد يقوم بهذه الأغراض مجتمعة . ويتضـــح ذلك من المدرســـة البرقوقية اذ كانت مسجدا جامعا وخانقاه ومدرســـة ثم ما انشىء بعــد ذلك فى عصر المؤيد شـــيخ والأشرف « برسباى » و « قايتباى » من جوامع لتقوم بـــذلك واصـــبح الصوفية هم أنفسهم الطلبة(١٤٦) .

بالاضـــافة الى ذلك فقــد استخدمت المدرسة فى غير أغراض التعليم كقراءة تقليد تولى القضــاء ، كما حدث فى مدرســـة الظاهر برقوق ببين القصرين(١٤٧) .

كما جعل الامير جمال الــدين الاستادار المدرســـة الحجازية كسجن يحبس فيه من يصـــادره واقتدى به من بعده من الاستادارية(١٤٨) .

كما اســـتخدمت ايضا كمكان للجباية أو استراحة لعمـــال البريــد وغير ذلك(١٤٩) والتى لاتتصل بالحياة العلمية .

المدرســـون والطـــلاب :

أدى انتشار المدارس الى كثرة اعــداد الطلاب والمشتغلين بالعلم ســـواء من المصريين او من النازحين من أرجاء العالم الاسلامى .

وقــد استتبع ذلك قيام حياة علمية نشـــيطة كان الفضل الأكبر فيها راجعا لجهود القـــائمين على التدريس حتى غدت طبقة العلماء أو المعممين من الفئات التى لها وزنهـــا وقيمتها فى المجتمع وشاركت فى كثير من الانشطة السياســـية والاجتماعية ، فضـــلا عن تأثيرهم الفعال فى الحياة العلمية . ويهمنا هنـــا ما يتعلق بحياة المـــدرسين والطلاب وعلاقاتهم فى ميــدان العلـــم .

---

(١٤٦) حجة السلطان المؤيد شيخ ١٩٣٨ أوقاف ، حجة برســباى ٨٨٠ أوقاف .

(١٤٧) تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٩ ج ٢ ص ٣٤١

(١٤٨) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧

(١٤٩) انظر ابن الفرات ، مجلد ٩ ج ٢ ص ١٣ ، خطط المقريزى ، ج ٢ ص ٣٧٧

المدرســــون :

وكان تعيينهــم فى المــدارس يتم بمعرفــة الســـلطان أو الأمير الواقف مباشرة(١٥٠) وكان يشترط فيمن يتولى التدريس صفات فى مقدمتها الديانة والتقوى والورع الى جانب ما يمتاز به من العلم فى تخصصه .

من ذلك ما جاء بحجة الســلطان برقوق فى تعيين مــدرس الفقــه بمدرســته : أن يكون من أهل الدين والصــلاح ، فقيهــا فاضلاعا لمــا بفقه مذهبه وأصــوله . وجاء بهــا فى شأن مدرس التفسير أن يكون من أهل الخير والدين والصـــلاح ، عالم بالنحو ، عارف بتفسير كتاب الله وغريب لغاته(١٥١) .

وكذلك الأمر بالنســبة لبقيــة العلوم الأخرى يجب أن يكون متولى التدريس لهــا عالمــا بها ولكن هــذا لم يكن يمنع من وجود مدرســين دون المستوى المطلوب(١٥٢) .

المعيـــدون :

وكانوا ضــمن هيئة التــدريس فى المدرسة ومهتهم اعادة الدروس بعــد فراغ الأساتذة من القائهــا ، فيشرحون للطلاب ما تعسر عليهم فهمه وعملهم آنذاك لم يكن يختلف عن عملهم اليوم فى عصرنا الحاضر .

ويذكر القلقشندى مهمة المعيــد قائلا : « انه اذا القى المــدرس الــدرس وانصرف ، اعــاد للطلبــة ما القــاه المــدرس اليهم ليفهموه ويحســنوه»(١٥٣) .

ولم تكن تقتصر وظيفة « المعيــد » على اعادة الدروس فقط ، بل كان يساعد المــدرس فى كثير من أمور الدراســة فيقرأ نصا قبل الأستاذ

---

(١٥٠) د. عبد اللطيف ابراهيم : نصان من وثيقة الأمير صرغتمش ص ٥٥

(١٥١) حجة السلطان برقوق ، ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق القومية .

(١٥٢) انظر ابن الاكفانى : اشار القاصد . ورقة ٣٣ و ٣٤ ، مقدمة ابن خلدون ، ص ٤١٥ ، القاضى البيصاوى ، تعريفات العلوم ، ص ٤

(١٥٣) صبح الأعشى ، جـ ٥ ص ٤٦٤

الـــذى يقوم بشرحه ، ثم يعيده من بعده ، أو يشغل الطلبة بما مضى من دروس وغير ذلك .

وكانت وظيفة المعيـــد من الوظائف التى ارتبطت بنشـــأة المدارس فى مصر ، وكان يرتبهم الواقفون ، واصـــبحت هذه الوظيفة من الوظائف المربوقـــة التى لهـــا مكانتهـــا . ولم يكن المعيـــد من جملـــة الطـــلاب المتـــازين ، كما هو الحـــال اليوم ، بـــل ربمـــا يكون مدرســـــا فى مدرســـة ومعيـــدا فى مدرســـة أخرى ، فقـــد كان ابن السراج البلقينى مدرسا فى المدرســـة « الالجيهية » والمدرســـة « السكرية » ومعيدا فى مدرسة « القبة المنصورية » و « القبة البيبرسية »(١٥٤) .

المفيد : وكانت هناك وظيفة ثالثة غير المـــدرس والمفيد وهى وظيفة « المفيد » حســـب ما ذكرة السبكى ، ويحدد مهمته بقوله : « ان عليه أن يعتمد ما يحصـــل به من الدرس فائدة من بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك والأضاع لفظ الافادة وخصوصيتها »(١٥٥) .

وربما كانت هذه الوظيفة خاصة بعلوم الحديث حيث ذكر السيوطى : ان مرتبة المفيد فوق المحدث ودون الحافظ(١٥٦) .

ولكننا اذا اعتبرنا أن كلمة معيـــد مشتقة من أعاد وكلمة مفيد مشتقة من أفاد لســـهل علينا أن نفهم أنهـــا كانت وظيفة من جملة وظائف هيئات التدريس رغم قلة انتشـــارها . أما اذا اعتبونا الكلمتين بمعنى أعاد وأفاد فى اعادته الـــدرس لكانت دليلا على قـــدرته على افهام الطلبة وافادتهم ولا تعنى انه كان يشـــغل هذه الوظيفة ، هـــذا فضلا عن أن المفيد لقب من ألقاب أهل العلم .

هذا وقـــد كان للمدرسين مكانة سامية وبلغ من ســـمو مكانتهم أنـــه كان يصـــدر بتعيينهم مرســـوم من بعض السلاطين ويخلع عليهم ، وهذا يبين لنا مدى منزلتهم العلمية(١٥٧) .

---

(١٥٤) الضوء اللامع ، ج ٥ ص ٣١٠ .

(١٥٥) السبكى : معيد النعم ، ص ١١٨

(١٥٦) السيوطى : نظم العقيان ، ص ١١٢ .

(١٥٧) انظر : المقريزى ، الســـلوك ، ج ٤ ق ١ ص ٤٩٣ ، أبو المحاسن : حوادث الذهور ، ج ١ ص ٢٩

وبلغ من مكانة المدرسين انهم كانوا يتوسطون أحيانا فى فض الخلاف بين الأمراء والسلاطين ويشاركونهم فى أفراحهم وأحزانهم(١٥٨) ويعودونهم فى مرضهم او يشتركون فى تشييع جنائزهم بعد وفاتهم كما حدث عندما توفى الشيخ « اكمل الدين البابرتى الرومى » فقد شيعه السلطان « برقوق » مشيا على قدميه أمام النعش وظل واقفا على قبره حتى تم دفنه(١٥٩) هذا ، وقد بلغ بعض المدرسين من الشهرة وبعد الصيت مبلغا كبيرا تخطت حدود مصر الى غيرها من بلاد العالم الاسلامى ، فقد ذكر ابن خلدون — عند حضوره لمصر — : مازلنا ونحن بالمغرب نسمع . ان ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه(١٦٠) .

وفى بعض الأحيان كانت شهرة المدرس تغلب على شهرة المدرسة التى يدرس فيها فتسمى بأسمه(١٦١) .

ونظرا للمكانة الادبية والاجتماعية التى كانت يتمتع بها العاملون بالتدريس ، فقد طلع الكثيرون ممن لايصلحون لها ، وقاموا بالتدريس حتى أصبح العلماء لايجدون مكانا لهم الا بواسطة فالعلامة السيوطى لم يتولى مشيخة المدرسة البيبرسية الا بواسطة السيد الخليفة عبد العزيز ، وأصبح تولى وظائف التدريس يتم بسفارة أصحاب الشوكة لابقوة العلم (١٦٢) .

أما عن **العلاقة بين المدرسين وبعضهم** : فلم تكن على صفاء دائم ، بل كان يشوبها احيانا منازعات ومخاصمات وأحقاد ، وربما

---

(١٥٨) انظر حوادث الدهور ، جـ ٣ ص ٥٥٥ ، الضوء اللامع ، جـ ٩ ص ١٧٣ وما بعدها ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ص ١٥٨

(١٥٩) النجوم الزاهرة ، جـ ١١ ص ٢٣٩ ، المنهل الصافى ، جـ ٥ ص ١٩٦

(١٦٠) ابن حجر : الدررالكامنة ، جـ ٢ ص ٣٠٩ ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ٣٠٩

(١٦١) الخطط ، جـ ٢ ص ٣٦٢ ، حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ٢٢٩.

(١٦٢) عقد الجمان ، جـ ١٩ سنة ٨٨٣ هـ ، جـ ١٩ سنة ٨٨١ هـ ، بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٣٦

للمكانة التى يصـــل اليها بعضهم او بسبب التنافس على المناصـــب ، أو السطو والسرقة من المؤلفات(١٦٣) .

وقـــد يكون النزاع احيانـــا بســـبب ســـكنى البيوت المخصصـــة للمدرســـين(١٦٤) .

ولكن أهم أسباب النزاع والتخاصم كان تولى الوظائف . وقد وصل الصراع عليهـــا حدا كبيرا لدرجة أدت الى حبس بعضـــهم كما حـــدث للعلامة « الســـخاوى » عندما حاول التدريس بالمدرسة الكاملية باذن من السلـــطان قايتباى فى ذى القعـــدة ٨٧٠ هـ — ١٤٧١ م ، ولكن الأمير تمر الحاجب تعصب ضده ومنعه(١٦٥) .

ولكن ليس معنى ذلك أن حيـــاة المدرسين وعلاقتهم ببعضهم كانت تدور فى ذلك النزاع والتخاصـــم ، بل نجد الكثير من المدرســـين الذين زهدوا فى الوظائف تنازلوا عنهـــا لطلبتهم أو لزملائهم ، كما حـــدث من العلاء القلقشندى الـــذى عين للتدريس فى المدرســـة الخشابية فاستعفى من ذلك لعلمه أن البلاقنة لهم فيها نحو ستين سنة(١٦٦) .

كما أن بعض المـــدرسين كان يزهد فى أخـــذ الأجرة عن التعليم أو التدريس ، ويقوم بـــه احتسابا لوجه الله قانعا بالسكنى فى المدرسة فقط(١٦٧) .

طرق التدريس : لم تكن هنـــاك طرق معينة متعارف عليهـــا للتدريس فى المـــدارس فى تلك الفترة بل كان كل مدرس او شـــيخ يدرس بالطريقة التى يراها مفيدة بحيث لاتخرج عن شروط الواقف ولكن كانت هنـــاك بعض الآداب المتعـــارف عليها أثناء القاء الدروس مثل : أن يكون المـــدرس حسن الهيئة والثياب ، ملتزما بالهدوء والوقار مسموع الصوت ، لايمزج

---

(١٦٣) العيد روسى : النور السافر ، ص ١١٣ وما بعدها .

(١٦٤) الضوء اللامع ، جـ ١ ص ١٧٥ ، التبر المسبوك ، ص ٢٧٤

(١٦٥) ابن الصيرفى : أبناء الهصر ، ص ٢٨٣

(١٦٦) أبو المحاسن : حوادث الدهور ، جـ ١ ص ٥٠ .

(١٦٧) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ص ٩٥ — ٩٦

ولايضحك اثناء الدرس وأن يعطى للدرس حقه بحيث يفهمه الطلبة(١٦٨) .

والحقيقة أن هناك الكثير من الآداب والوصايا الخاصة بالتدريس تشملها كتب الحسبة وكتب من اهتم بالتدريس والتعليم(١٦٩) .

الطلبة : لم يكن يشترط لقبول الطالب فى المدرسة سنا معينة ولكن حرص بعض المنشئين والواقفين على وضع الشروط اللازمة لقبول الطلبة فى مدارسهم ، كأن تكون عندهم القابلية والاستعداد للتعليم والفهم ، من ذلك ما ورد ذكره فى حجة السلطان المؤيد شيخ : بأن يكون الطلبة من المستعدين لطلب العلم الصالحين للفهم(١٧٠) وقد اهتم بأن يختار طلبة مدرسته بعناية ، فقد ذكر ابن حجر ذلك قائلا : وعرض السلطان الطلبة فقرر من شاء وصرف من لم يصلح(١٧١) .

وكانت اعداد الطلاب : تختلف فى كل مدرسة عن الاخرى بطريقة لاضابط لها ، الا مقدار ما يوقف على المدرسة للصرف عليها ، وغالبا ما كان يزيد الواقف من عدد الطلاب الذين يدرسون على مذهبه(١٧٢) .

ولم تكن **مدة الدراسة** مقيدة بزمن معين ، وليس معنى هذا أن المدرسة كانت كلها فرقة واحدة ، لأن ذلك يؤدى الى التكاسل فى طلب العلم ، بل كانت تقسم الى فرقتين :

---

(١٦٨) أنباء الغمر ، جـ ١ ص ٤٠٢ السلوك ، جـ ٣ ق ٣ ص ٦٧٢ وما بعدها . ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ص ٤٩ ، حوادث الدهور ، جـ ١ ص ٧٦ وما بعدها .

(١٦٩) معيد النعم ، ص ١٠٥ وما بعدها ابن العمرى : المصطلح الشريف ، ص ١٣٤ وما بعدها .

(١٧٠) حجة السلطان المؤيد شيخ ، ٩٣٨ أوقاف .

(١٧١) أنباء الغمر ، جـ ٣ ص ٢٣٧

(١٧٢) انظر : حجة السلطان برقوق ، ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق ، حجة المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف .

فرقة المبتدئين ، وفرقة المنتهين : الذين شارفوا على الانتهاء ، والذين اتخذ بعضهم من طلب العلم وسيلة للارتزاق والتعيش(١٧٣) .

معاليم الطلبة : وكان يصرف للطلبة فى كل مدرسة معلوم معين أو مرتب معلوم متساو ، الا أن هناك البعض ممن كان يميز طلبة مذهب معين من الواقفين كالسلطان برسباى مثلا ، فقد ميز طلبة مذهبه الحنفى وصرف لكل منهم فى كل شهر ثلاثمائة درهم(١٧٤) .

نقيب الطلبة : وكان هناك نقيبا للطلبة فى كل درس يختار لحفظ النظام وكتابة المتغيبين .

وكان يختار بواسطة المدرس أو الناظر ، من ذلك ما تذكره حجة السلطان برقوق ويرتب الناظر أيضا عند كل متصدر من المتصدرين ... شخصا من طلبته يكون نقيبا عليهم ويضبط غيبة من يغيب من طلبته على العادة ، ويصرف له فى كل شهر خمسة دراهم مضافا لما هو مرتب(١٧٥) .

العلاقة بين المدرسين والطلبة : أما عن العلاقة بين المدرسين والطلبة : فقد كانت علاقة احترام وتبجيل وطاعة من الطلاب لأساتذتهم ، وهناك جملة من الشروط والآداب ذكرها بعض المهتمين بالتعليم فى هذا الصدد ، يجب أن يلتزم بها الطلبة(١٧٦) .

وكانت تكفل للطلبة الحرية فى ابداء أرائهم ، وملاحظاتهم على مدرسيهم ، فاذا كان المدرس غير كفء أو يسيىء معاملتهم كانوا يشكون للناظر واذا ما تأكدت صحة شكواهم كان يصرف ويعين آخر مكانه(١٧٧) .

---

(١٧٣) د. عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية اثرية ، ج ١ ، ص ١٥١

(١٧٤) حجة وقف برسباى ، ٨٨٠ أوقاف ، ص ٨٤

(١٧٥) حجة السلطان برقوق ، ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق القومية .

(١٧٦) انظر : الزرنوجى : تعليم المتعلم ، ص ٢٠ وما بعدها ، ابن جماعة : تذكرة السامع ، ص ٢٠٩ وما بعدها .

(١٧٧) السلوك ، ج ٢ ق ١ ص ٢٣٣ ، الضوء اللامع ، ج ٥ ص ١١٠ .

ايام الدراسة : وكانت تختلف ايام الدراسة فى كل مدرسة عن الاخرى حسب شروط المنشىء أو الواقف فقد حدد الأمير جوهر اللالا ايام الدراسة فى مدرسته بثلاثة ايام كل اسبوع وهى السبت والأحد والاربعاء(١٧٨) بينما حدد السلطان برقوق فى حجته ايام الدراسة فى مدرسته بخمسة ايام فى الأسبوع عدا يومى الثلاثاء والجمعة(١٧٩) هذا بينما كان اكثر الواقفين لايحدد ايام الدراسة بدقة فى حجته ، ولكن يشترط ان تكون طبقا لما هو معمول به فى باقى المدارس ، اذ تذكر حجة السلطان « برسباى » : ويلازم المدرس وطلبته وظيفتهم بالدرس المذكور فى الايام التى جرت العادة بحضور الدروس فيها ويبطلون البطالة الجارى بها العادة(١٨٠) .

مواعيد الدراسة : ولم تكن مواعيد الدراسة محددة بوقت معين طوال اليوم وغالبا ما كانت فيما بين طلوع الشمس الى آذان العصر(١٨١) . حسب ما يشترطه الواقف ، فالسلطان « برقوق » يحدد وقت الدراسة فى مدرسته بثلاث ساعات ونصف من طلوع الشمس(١٨٢) ، بينما تحدد حجة « جوهر اللالا » الدراسة فيما بين الظهور والعصر وكذلك حجة « جمال الدين الاستادار » فيما بين طلوع الشمس لحد أذان العصر(١٨٣) .

---

(١٧٨) حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق .

(١٧٩) حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق .

(١٨٠) حجة برسباى ، ٨٨٠ أوقاف ، ص ٢٨٣

(١٨١) د. عبد اللطيف ابراهيم نصان من وثيقة الأمير صرغتمش ، ص ٢٨ . ومن العجيب ان الغرب قد اقتبس نظام اليوم الدراسى الكامل من التربية الاسلامية ، وطبقه فى مدارسه ، ثم نقلناه منهم ابان الاستعمار الأوروبى الحديث (المؤلف) .

(١٨٢) حجة السلطان برقوق ، ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق القومية .

(١٨٣) حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق ، حجة جمال الدين الاستادار ، محفظة ١٧ أ دار الوثائق .

ونستطيع القول : بأن الدراســـة تحددت فى بعض المدارس بحوالى ثلاث ساعات ونصـــف او أكثر ، بينما تركت فى البعض الآخر دون تحديد بترك الحرية للمدرس فى توقيت الدرس حسب الاحتياج(١٨٤) .

مواعيد الأجازات : وقـد اختلفت مواعيد الاجازات فى المـدارس ايضـا ، وكذلك ايام البطالة ، وكان يســمح للطلبة والمدرسين بالتغيب عن المدرســـة لمدة ثلاث أيام فى الشهر مع صرف مستحقاتهم عنها وبعض المدارس كان يشترط أن تكون هذه الأيام متفرقة(١٨٥) .

ومن كان يتغيب أكثر من ذلك يقطع عنه معلومه ومن يتماوى فى ذلك يتعرض للقطع والفصل من وظيفته(١٨٦) .

اجازات مرضـــية : وكانت هنـــاك اجازات مرضـــية ، ومن كان يصـــاب بمرض يعجزه أو يقعده عن العمـــل يجرى عليه راتبه ومعلومه المقرر لحين شـــفائه أو وفاته(١٨٧) .

وتقديرا للمدرسين او العـــاملين بالمدارس فقد حرص بعض الواقفين علـــى تأمين مســـتقبل أبنائهم من بعـــدهم فاشترط بعضـــهم أن من توفى منهم وله ولد يصـــلح للقيام بوظيفته يعين مكانه بمعلومه المقرر(١٨٨) .

---

(١٨٤) انظر حجة السيفى قلمطاى ٦٨ محفظـــة ١١ دار الوثائق ، حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق .

(١٨٥) د. محمد أمين : تـــاريخ الأوقاف ، ص ٣١٩ وانظر الحجج السابقة .

(١٨٦) انظر السلطان برقوق وحجة جمال الدين الاستادار وحجة جوهر اللالا وحجة السيفى قلمطاى .

(١٨٧) حجة السلطان برسباى ، ٨٨٠ أوقاف ، ٢٠٨

(١٨٨) حجة جوهر اللالا .

نظام السكنى أو الداخلية فى المدارس :

يعتبر نظام السكنى أو الداخلية فى المدارس من مفاخر التعليم فى مصر فى العصور الاسلامية الزاهرة فقد ساعد هذا النظام على توفير الجو المناسب للطلبة والمدرسين للتفرغ للعلم .

حيث تكفل منشئو المدارس ومؤسسوها بتوفير ما يلزم للطلبة والمدرسين من مأكل ومسكن . وملبس بالأضافة الى ما يتقاضونه من مرتبات شهرية ، كما أن هذا النظام قد جعل التعليم حقا لجميع الطلاب .

ويظهر أن هذا النظام يرجع الى العصر الفاطمى حيث بنى الوزير يعقوب بن كلس دارا مجاورة للجامع الأزهر لاقامة خمسة وثلاثين من فقهاء المذهب الشيعى(١٨٩) .

كما كانت المدرسة التى انشأها الخليفة « الحافظ » الفاطمى سنة ٥٣٢ هـ — ١١٣٧ م تشتمل على مساكن للطلاب(١٩٠) .

ومع كثرة انشاء المدارس فى العصر المملوكى كثرت المساكن اللازمة للطلبة والمدرسين وبعد تطور المدرسة فى ذلك العصر وظهور المدرسة الخانقاه التى تجمع بين الطلبة والصوفية ، أو يكون الصوفية فيها هم جملة الطلبة ، فقد تطورت شروط السكنى بالمدارس بما يتلاءم مع هذا الوضع الجديد ، ويتضح لنا ذلك من خلال حجة السلطان برقوق حيث شرط أن يكون من هو ساكن بهذه المدرسة الخانقاه المذكورة من الطلبة والصوفية وأرباب الوظائف منهم عزبا غير متزوج ، وأن يبيت بها ويسامح بالمبيت خارجها خمس ليال من كل شهر(١٩١) .

وهذا السماح ليتمكن الطالب من زيارة أهله أو أقاربه ، أو قضاء حاجاته او للترويح عن نفسه حتى لاتصبح الاقامة بالمدرسة منفرة

---

(١٨٩) خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٢٧١

(١٩٠) صبح الأعشى ، جـ ١٠ ص ٤٥٨ وما بعدها .

(١٩١) حجة السلطان برقوق ، ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق .

أو مقيـدة للحرية.واذا ما أراد أحـد نزلاء المدرسـة الزواج ، كان يسمح له بترك مسـكنه ليحل محله آخر من العزاب ، أما المدرسـين فكان يسمـح لهم بالاقامة فى المدرسـة مع عائلاتهم « الا الشـيخ خاصـة فان يرخص له فى السكن بزوجته للضرورة »(١٩٢) .

ولم تكن الحياة داخل المدرسـة تخلو من ضروب الترويح عن نزلائها حيث تتام بعض الحفلات فى المواسم والأعياد(١٩٣) .

وكانت هنـاك قواعد وآداب تنظم العلاقة بين سـكان المدرسـة وبخاصـة اذا ما كان بها متزوجون ، وقـد ذكر ابن الحاج بعض هـذه القواعـد(١٩٤) .

كما كانت هناك قواعـد تنظم السكنى الداخلية فى المـدارس بدقة بحيث تراعى حالة السـاكن الصحية ، واختيار المسـكن الملائم لـه ، والمسـتوى الاخلاقى مما يضمن حسن العلاقة والجوار بين السـاكنين بحيث يكونوا أسرة واحدة(١٩٥) .

ولاشـك أن الهدف من هـذه القواعد والشروط هو الرغبة فى توفير أكبر قـدر من الهدوء والسـكنة حتى يتفرغ الطلاب والمدرسون للدراسة والبحث واقامة الشـعائر الدينية وكذلك كانت هناك بعض الآداب الاخرى والقواعد التى يلتزم بها ساكنوا المدرسة وهم خارجها ، كعدم الدخول الى الأماكن المريبة ، وعدم احضار احد من غير سكان المدرسة(١٩٦) .

ومن هذا يتضح لنا أن نظام السكنى أو الداخلية فى المدارس ، قـد ساعـد على توفير الجو العلمى المناسب ، وكفى الطلاب والمـدرسون مؤنة البحث والمشقة عن مكان للسكنى ، كما كفاهم مئونة الطعام . وبذلك ساعد على قيام وازدهار النهضة العلمية فى العصور الاسلامية .

---

(١٩٢) حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق .

(١٩٣) حجة برقوق .

(١٩٤) ابن الحاج : المدخل ، ج٢ ص ١٩٩ وما بعدها .

(١٩٥) انظر : ابن جماعة : تذكرة السامع ، ص ٢٤٨ وما بعدها .

(١٩٦) نفس المرجع ص ٢٤٩

بعض المدارس التى قامت بنشاط بارز فى العصور الاسلامية الزاهرة :

اولا : مدارس انشئت فى العصر الأيوبى ولمـــاذا ؟

ويحضرنى ســؤال بادىء ذى بــدء عن المدارس لمــاذا انشــئت مع وجود المســـاجد ؟

وللاجابة على هــذا السؤال تقول : أن المســـاجد كانت حافلــة بحلقات العلم والبحث والـــدرس والمناظرة والمناقشة ، مما كان يؤذى بعض المصـــلين الذين يتعبدون ويتبتلون ، ويؤذيهم الأصـــوات العاليــة التى تطرق آذانهم ، وربما تشــــغلهم عن الصلاة الخاشعة .

ومع اتســـاع رقعة التعليم ، كان لابد من تخصيص أمكنه ملائمة يجــد فيهـــا المعلمون والمتعلمون مجالات أوســـع للنقاش والبحث والمجادلة . بل لن المعلمين الذين شـــغلوا بالتعليم جل وقتهم ، حاولوا الارتزاق بحرفة بسيطة ، ولمـــا فشلوا تطلعوا الى المدارس الجـــديدة ، عسى أن تكون جرايتهـــا ضامنا لهم يقوم بحاجاتهم(١٩٧) وتحـــدثنا المصادر المعاصرة من كتب التاريخ والخطط أن هـــذه المدارس كانت موزعة على ثلاث بيئـــات علمية هى : بيئة القـــاهرة ، والاسكندرية ، والصـــعيد . ومن اشـــهر مدارس القاهرة الأيوبية .

١ — **مدرســة للشـــافعية** : بناها صـــلاح الدين بجوار جـــامع عمرو ، وقـــد عرفت هذه المدرسة بأســـماء كثيرة منهـــا : « المدرســة الناصرية » و « المدرســـة الشريفية » و « مدرسة زين التجـــار نســـبة الى العـــالم الامام الشـــافعى الذى طالت مدة اقامته بهـــا حتى عرفت باسمه(١٩٨) .

---

(١٩٧) خدابخش : الحضـــارة الاســـلامية ، ص ٢٨٥ ، د. احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٩٥

(١٩٨) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٥ خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٢٦٣ ، الانتصار لابن دقماق ، جـ ٤ ص ٣٩٣

٢ — **مدرســة للمالكية :** عرفت باســم « دار الغزل » ثم عرفت باسم « المدرســة القمحية » نسبة الى القمح الــذى وقفه عليها صلاح الدين من ضيعته بالفيوم(١٩٩) وقــد درس بهــا العلامة ابن خلدون بعد قدومه القاهرة .

٣ — **مدرســة للحنفية :** اطلق عليهــا المدرســة السيوفية ، بناها صلاح الدين ايضا بدار الوزير الفاطمى المعروف « عباس العبيدى »(٢٠٠) .

٤ — **مدرســة بجوار الامام الشــافعى :** وهى أعظم مــدارس الدنيا على الأطلاق وينبغى أن يقال لهــا « تاج المدارس لشرفهــا بمجاورة الامام الشــافعى بناها صــلاح الدين الأيوبى ســنة ٥٧٢ هـ — ١١٧٦ م وتسمى المدرسة الصلاحية(٢٠١) .

٥ — **مدرسة بجوار المشهد الحسينى :** بناها ايضــا صلاح الدين الأيوبى(٢٠٢) .

ورغم أن هــذه المدارس الخمس من بناء وانشاء صلاح الدين الأيوبى فلم يبق منهــا شىء البتة ، قــال ابن خلكان بعــد أن أحصى مدارس صلاح الدين « ولقــد فكرت فى نفسى فى أمر هــذا الرجل ، وقلت أنــه ســعيد فى الدنيا والآخرة ، فانه فعل هــذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ، ورتب هــذه الأوقاف العظيمة وليس شيئا منها منسوبا اليه فى الظاهر فان المدرســة التى بالقرافة ما يسمونها الا بالشــافعية والمجاورة للمشهد الحسينى لايقولون الا المشهد ، والمدرســة الحنفيــة لايقولون الا السيوفية ، والتى بمصر (يريد الفسطاط) لايقولون الا مدرسة

---

(١٩٩) النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ٣٨٥ خطط المقــريزى ، جـ ٤ ص ١٩٣

(٢٠٠) حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ١٤٠

(٢٠١) نفس المرجع جـ ٢ ص ١٤٢

(٢٠٢) النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ص ٥٥

زين التجار والتى بمصر ايضـــا مدرسة المـــالكين ، وهـــذه صدقة السر على الحقيقة(٢٠٣) .

٦ — **المدرســـة الكاملية :** وتسمى دار الحـــديث « أنشأها الملك « الكامل محمد بن الملك العـــادل أبى بكر أيوب ســـنة ٦٢١ هـ — ١٢٢٤ م ، وهى ثانى دار خصصت للحـــديث ، فان أول من بنى دارا للحـــديث على وجه الأرض هو الملك العـــادل « نور الدين محمود بن زنكى » بدمشـــق ثم بنى الكامل هذه الدار ، وكملت عمارتها سنة ٦٢١ هـ(٢٠٤) .

٧ — **المدرســـة الصـــالحية :** بناها الملك الصـــالح « نجم الـــدين أيوب » ســـنة ٦٣٩ هـ — ١٢٤٢ م ، وكان التخطيط المعمارى لهـــا عبارة عن أربع ايوانات خصص كل منهـــا لمذهب من المذاهب الأربعة المعروفة ، وقـــد استخدمت هـــذه المدرسة لشهرتها « محكمة « يجلس فيها القضـاة الأربعة للحكم فى المســـائل المهمة والأشـــياء العاجلة ، ولم يبق من هذه المدرسة الا ايوان واحد فقط وبوابة المدرسة والتى عليها مئذنتها(٢٠٥) .

٨ — **المدرســـة الفاضـــلية :** بناها « القاضى الفاضل » ســـنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م وألحق بهـــا مكتبة عظيمة ضمت نحوا من الف كتاب مجلد من كتب القصر(٢٠٦) .

وقـــد أحصى العلامة المقريزى المـــدارس الأيوبية الموجودة بالقاهرة وحـــدها فاذا بهـــا ثمـــانى عشرة مدرسة(٢٠٧) والمـــدارس التى بنيت بالقـــاهرة والفسطاط معا فبلغ نحوا من خمسة وعشرون مدرسة .

---

(٢٠٣) السيوطى : حســـن المحـــاضرة ، جـ ٢ ص ١٤٢ نقلا عن المقريزى .

(٢٠٤) حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٢٦٢

(٢٠٥) خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٢٥٥ ، حســـن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٦٣ ، د. عبد الرحمن فهمى : القاهرة ، تاريخها وآثارها ، ص ١٩٢ وما بعدها .

(٢٠٦) خطط المقريزى ، جـ ٤ ص ١٩٣ — ٢١٦ ، (ط النيل) .

(٢٠٧) خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٣٦٦ — ٣٧٨

ثانيا : أشهر المدارس التى أنشئت فى العصر المملوكى البحرى :

١ — **المدرسة الظاهرية القديمة** : بناها الملك « الظاهر بيبرس البندقدارى » سنة ٦٦١ هـ ١٢٦٢ م ، ورتب **لتدريس الشافعية** بها « تقى الدين بن رزين » ولتدريس **المذهب الحنفى** « العلامة محى الدين عبد الرحمن بن الكمال بن العديم » ولتدريس **« الحديث »** « الحافظ

شرف الدين الدمياطى » ولتدريس **القراءات** « كمال الدين القرشى المحلى » وجعل بها خزانة كتب عظيمة(٢٠٨) .

٢ — **المدرسة المنصورية** : بناها الملك **« المنصور قلاوون »** سنة ٤٦٤ هـ — ١٢٨٥ م ورتب فيها دروسا **للمذاهب الأربعة والحديث والتفسير** ، ودروسا كذلك **للطب** ، ورتب بالقبة درسا **للحديث النبوى** ودرسا **للتفسير وميعادا** ، وكانت هذه التداريس لايليها الا أجل الفقهاء ثم صارت اليوم لايليها الا البلداء المهوسين المفلسين(٢٠٩) .

ومن هؤلاء العلماء جمال الدين محمود بن على القيصرى الرومى الحنفى ولى مشيخه الشيخونية ودرس التفسير **بالمنصورية** وقضاء الحنفية ونظر الجيش(٢١٠) .

٣ — **المدرسة الناصرية** : بناها « السلطان الناصر محمد بن قلاوون » وفرغ من بنائها سنة ٧٠٣ هـ وقد وصفها المقريزى بقوله : « انها محترمة للغاية ، وأن السلطان عين بها المدرسين للمذاهب الأربعة

---

(٢٠٨) خطط المقريزى : جـ ١ ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ ؛ حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٢٦٤ ؛ مساجد مصر جـ ٣ ص ١٨ وما بعدها .

(٢٠٩) خطط المقريزى ؛ جـ ٢ ص ٣٧٦ ، ٣٨٠ وما بعدها .

(٢١٠) خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٤٠٦ ، حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٦٤ ، مساجد مصر جـ ٣ ص ١١٧ وما بعدها من المصاحف التى أوقفها على هذه المدرسة مصحف جميل دار الكتب .

والحق بها مكتبة حافلة ، وتحمس لبنائهـا وبناء المـارستان المنصـورى الكبير بعد أن عاد الى عرشه للمرة الثانية »(٢١١) .

٤ — **المدرسـة السـابقية** :(٢١٢) بنى هـذه المدرسـة الأمير « سابق الدين مثقال الأنوكى الخصى الحبشى » فى سـنة ٧٧٦ — ١٣٧٥ م وكان يشـغل منصـب مقـدم المماليك فى خلال حكم « الملك السـلطان الأشرف شعبان » ٧٦٤ — ٧٧٨ هـ وتقـع وسط مدينة القاهرة فى ذلـك الوقت على جزء من الأرض التى شغلهـا القصر الفـاطمى الشرقى بالقرب من الجـامع الأزهر ، وكذلك بالقرب من الشـارع الأعظم — قصـبة القاهرة — حيث يوجد العديد من مبانى السلاطين .

وتقع المدرسـة الآن « بدرب قرمز » بجوار قسـم الجمالية بمدينة القـاهرة ، وهذه المدرسة خصصت للمـذهب الشـافعى فقط ، وعين الواقف لتدريسـه العلامـة « سراج الدين عمر بن على الأنصـارى » المعروف بـابن الملقن الشـافعى سـنتى ٧٢٣ ، ٨٠٤ هـ — ١٣٢٣ ، ١٤٠٢ م(٢١٣) .

وتشـغل المبانى مسطح من الأرض يبلغ حوالى ٢٠ x ٢٠ مترا ، وقـد برع مهندس البنـاء الذى لم يسـتدل على اسمه من المراجع — فى الحفاظ على الدرب الموصـل الى مجموعة من المبـانى السكنية وذلك برفع البناء وعمـل ساباط معقود بقبو يفتح عليه مخازن ، ويسمى هـذا النوع من المبانى بالمساجد المعلقة .

وقـد تم عمل مسقط المدرسـة على نمط مساقط المدارس والمساجد التى شاع وجودها فى العصر المملوكى وهو نظـام الصحن الذى يتوسط اربعة ايوانات ، وتفتح الايوانات على الصـحن بعقود ، ويقـع الايوان

(٢١١) شذرات الذهب ، جـ ٦ ص ٣٦٢

(٢١٢) مساجد مصر ، جـ ٣ ص ٣٢١ وما بعدها .

(٢١٣) المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٨ ، خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٩٣ ،

الرئيسى فى اتجـــاه القبله وهو الاتجاه الجنوبى الشرقى فى مصر وتقـــام فيه الصـــلاة . أما الأبواب المجـــاورة للايوانـــات فتؤدى الى الطابقين العلويين ، ويوجد فيهمـــا حجرات الأساتذة والطلاب ، وطبقا لمـــا اوردته المراجع العلمية فقـــد اشتملت المدرســـة على مكتبة عظيمة . وقد اهتم المهندس بدراســـة الفراغ الداخلى للمدرســـة وذلك بالعناية بالزخارف والحنيات فى الأسقف الخشـــبية ووضـــع المشربيات وتكســـية المحراب بالرخام الملون ، هذا بالاضافة الى وضـــع القبة بالايوان الرئيسى .

٥ — **مدرسة الأمير صرغتمش** (٢١٤) تقع هـــذه المدرسة بشـــارع الخضيرى ، وهى من المـــدارس الجليلة التى اعدت للفقهاء الأحناف حيث انهـــا منزلهم ومعقلهم خاصـــة الفرس منهم فى القرنين الثامن والتاســـع للهجرة وهـــذه المدرسة تقع لصق الزيادة الغربيـــة لجامع ابن طولون وبسببهـــا سد بابان من هـــذه الزيادة . وقد أنشـــأها الأمير صرغتمش سيف الدين الناصرى من مماليك الســـلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٥٢ هـ — ١٣٥١ م(٢١٥) .

وتنسب مدرسته هذه الى الامام أبى حنيفة(٢١٦) ومن علمائها القاضى « شمس الدين محمد بن أحمد أحمد الطرابلسى الحنفى » المتوفى ٧٩٩ هـ كان احـــد طلبة مدرســـة صرغتمش ، أما المعيدون بها فقـــاضى القضاه « جمال الدين الملطى » تعين للصرغتمشية الـــذى كان معيدا بها للشيخ « تقى الدين الأتقانى الفارابى »(٢١٧) .

---

(٢١٤) راجع عن هذه المدرســـة : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٢٦٨ ، مســـاجد مصر جـ ٣ ص ٢٦٧ وما بعدها ، ترجمة صاحبها .

(٢١٥) خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤

(٢١٦) انظر وثيقة الأمير صرغتمش ٣١٩٥ أوقاف .

(٢١٧) حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٣١٦

٦ — **مدرســة السلطان حسن** : بناها الســلطان حسن بن محمد بن قلاوون وقــد تحدث السيوطى عن هذا الســلطان فى بنائه لهذه المدرسة فقــال : « شرع فى بنائها ســنة ٧٥٨ هـ ولا يعرف ببلاد الاســلام معبــدا من معــابد المسلمين يحكى هذه المدرســة فى كبر قالبهــا وحسن هندامها وضــخامة شكلها ، ودامت العمارة بهــا ثلاث سنين لاتبطل يوما واحدا ، وارصــد لمصروفها فى كل يوم عشرين ألف درهم منهــا نحو ألف مثقــال ذهبا وذرع ايوانهــا الكبير خمسة وستون ذراعا فى مثلها ، ويقال أنهــا أكبر من ايوان كسرى بخمســة أذرع وبهــا أربع مــدارس للمــذاهب الأربعــة(٢١٨) .

وموقعهــا الأن ميدان صــلاح الدين بالقلعة فى مقابلة جامع الرفاعى ، ويرى ابن تغرى بردى أن هــذه المدرسة ومئذنتها وقمتهــا من عجائب الدنيــا ، وهى أحسن بناء بنى فى الاســلام(٢١٩) .

أما « غرس الــدين خليل بن شاهين الظاهرى » فيقول عنها : وليس لهــا نظير فى الدنيــا فقد حكى ان الملك الناصر حسن لمــا أمر بعمارتها طلب مهندسين من أقطار الأرض وأمرهم بعمارة مدرســته — ولم يعمر أعلى منهــا — فعمرت وعمر بهــا أربع منارات وقيل ثلاث فى ارتفــاع المدرســة أيضا ، ثم هدم بعض المنارات واستمرت الآن عى اثنتين وهى عجيبة من عجائب الدنيا(٢٢٠) .

ووصفهــا السلطان سليم لمــازارها ســنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م قائلا هذا حصار عظيم(٢٢١) .

وقد قرر الســلطان حسن فى هــذه الايوانات الأربعــة (الحنفية

---

(٢١٨) حسن المحاضرة ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٢١٩) منتخبات من حوادث الدهور ص ٢١٦

(٢٢٠) زبدة كشف الممالك ص ٣١

(٢٢١) خطط المقريزى جـ ٢ ، ص ٣١٦

والشـــافعية و المـــالكية و الحنابلة) مـــدرسين ومراقبين وعين لهـــم الجامكيات . فقـــد رتب شيخا ومعه مائة طالب **كل مذهب** من المـــذاهب الأربعـــة **(أى ٤٠٤)** ، كما رتب لـــدرس **التفسير** مدرســـا شيخا **ومعه** ثلاثون طالبا **(أى ٣١)** عهد الى ذوى النشـــاط والكفاءة منهـــم القيـــام ببعض أعمال تتعلق بالدراســـة كالملاحظة وغيرها . ورتب لدرس **الحديث** الشريف مدرســـا وقارئا له وثلاثون طالبا **(أى ٣٢)** يقوم واحـــد منهم بعمـــل النقيب ، وبعضهم الآخر يدعو للســـلطان عقب نهاية الدروس . ورتب شيخا عالمـــا **مفتيا** بالايوان القبلى من الجامع .

كما رتب **مدرســـا عالمـــا بالقراءات السبع** يجلس بايوان المدرســـة القبلى مـــا بين صـــلاة الصـــبح الى الزوال والحق بالمدرســـة مكتبين بمدرسيهما لتعليم الأيتام القرآن والخط كما رتب **طبيبين** مســـلمين احدهما للعيون والآخر باطنى يحضر يوميا للعـــلاج من يحتاج اليه من الموظفين والطلاب ، كما رتب ثالثا للجراحة .

وأرصـــد فى وقفيته مرتبات الأساتذة والطلبة والموظفين والهدايا التى تقدم لهم فى الأعياد وما يصرف لهم ليلة الجمعة من المـــآكل(٢٢٢) .

٧ — **مدرسة أم السلطان(*)** بالتبانة بالقاهرة :

أنشـــأتها السيدة الجليلة الكبرى « خوند بركة » أم السلطان الملك « الأشرف شـــعبان بن حسين » ســـنة ٧٧١ هـ — ١٣٧٠ م وعملت بها درسا للشـــافعية ودروسا للحنفية وموضعهـــا قديما كان مقبرة لاهـــل القـــاهرة ، وهى خارج باب زويلة بالقرب من باب الوزير وبها الآ مدرسة ابتدائيـــة .

---

(٢٢٢) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٨٤ ، ٨٥ ، تاريخ المساجد الأثرية ص ١٧٤

(*) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٤٤٠ .

أما المعيدون بهذه المدارس فمنهم :

عبيد الله بن عوض الشروانى الأردبيلى ت ٨٠٧ هـ من كتبه حواشى مفيدة متقنة وقفهـا باصرغتمشية وأم السـلطان بالتبانه وكان يسـكن بهـا(٢٢٣) ، محمد بن محمد الحنفى الشـافعى ولى التدريس والاعادة بمدرسـة ام السـلطان(٢٢٤) ، محمد بن عبد الله الجمـال السـمنودى القـاهرى الشـافعى كان **مفيـدا** وامامـا وخـازن كتب بمدرسـة أم السلطان(٢٢٥) .

* * *

(٢٢٣) الضوء اللامع ص ١١٨

(٢٢٤) الضوء اللامع ص ٢٢٧

(٢٢٥) الضوء اللامع جـ ٨ ص ١١٣

خامســا : الخنقــاوات :

من الظواهر الهــامة التى يمكن ملاحظتها فى العصــور الاسلاميه ظاهرة شــيوع التصوف والاكثار من بناء مؤسسات ودر الصوفية التى عرفت باسم « الخنقاوات » .

ويفهم الباحث مماكتبه المقريزى ان صلاح الدين هو أول من انشــأ خانقاه بمصر وهى خانقاه ســعيد السعداء سنة ٥٦٩ هـ — ١١٧٣ م . وقــد ساعدت هــذه الظاهرة فى مصر على مجىء عــدد كبير من زعماء التصــوف ومشايخه من مختلف البلاد المجاورة كالشــام والمغرب وغيرها وكانت لهم مواقف كثيرة من التقشف والزهد اثرت فى المجتمع المصرى .

والخانقاه كلمة فارســية معناها البيت أو الدار التى يختلى فيهــا الصــوفية لعبادة الله تعــالى(٢٢٦) والغالب أن يقوم بانشائهــا احــد السلاطين أو الأمراء أو غيرهم من ذوى التقوى واليســار وترتيب بعض الأوقاف للصرف من ريعها على من ينزل فيها من المتصوفة .

الدراســة بالخنقاوات :

لم تكن العلوم التى تــدرس بهذه المؤسسة واضحة غاية الوضوح اللهم الا بعض العلوم التى كان الصــوفية يقومون بدارستها من تلقــاء أنفسهم وتســاعدهم على التعمق فى التصــوف والتبحر فى علوم الشريعة والحــديث(٢٢٧) وبعض العلوم المســاعدة الأخرى كالتفسير واصــول الدين وغيره من العلوم ويمكن القول بأن الخانقاه ، شاركت فى الناحيــة العلمية بدون أن يكون لذلك وقتا معينا أو طبقا لشروط محددة من ناحية

---

(٢٢٦) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٤١٣ ، النجوم الزاهــرة ، جـ ٩ ص ١٤٤ ص حاشية للمحقق ، د. سعيد عاشــور : المجتمع المصرى ، ص ١٦٨

(٢٢٧) الشــعرانى : الأنوار القدســية ، ص ١٢ ، يراجع عن الخنقاوات من الناحية المعماريــة : محمد مصطفى نجيب : القــاهرة ، ص ٢٤٧

الواقف . والدليل على ذلك ما جاء بمرسوم تولية منصب شيخ شيوخ خانقاه « سعيد السعداء » الشيخ « شمس الدين محمد » .. « ومن اذا قال خير بقول ومنقول واثنى على سامعين بمعرفة ما يقول ، يفتى فى التصوف والشرع ، ويتحدث فى الأصل والفرع ، ويبحث فى التفسير والتأويل ، ويكشف عن اسرار التنزيل : وينطق باحياء علوم الدين ويحظى منه بقوت القلوب عن يقين ويقتدى به فى الفقه والورع ، ويؤخذ عنه محاسن المصطفى فى الدين وما شرع »(٢٢٨) .

وهذا يوضح لنا أن طريق الصوفية مضبوط بالكتاب والسنة(٢٢٩) ، فيجب عليهم العلم بما جاء بهما والبحث فى فروع المعرفة المتعلقة بهما ، بالاضافة الى كتب التصوف التى ألفت فى حقيقة المذهب وفلسفته والتى الفها أئمة المتصوفة من أمثال ابن الفارض وخاصة قصيدته « نظم السلوك » التى كانت موضوعا يشتغل به ويتبل عليه الصوفية ، وكذلك كتب ابن عربى وغيره من أعلام التصوف فكانت حياتهم جامعة لحياة العباد الصالحين الذاكرين القائمين وحياة العلماء العاملين .

وقد بدأت الخانقاه تأخذ شيئا فشيئا صورة المعهد العلمى الذى يقوم فيه جماعة المتصوفة بطلب العلم وحضور دروسه التى يعينها لهم الواقف ، بجانب ما يقومون به من التصوف وما يتبعه مما يتعلق به من الأذكار وغير ذلك وهى وظيفتهم الأساسية .

شيخ الخانقاه : ويطلق عليه شيخ الشيوخ كان يعين بأوامر السلطان وينبغى أن يكون من العلماء العاملين المشهورين بالتصوف وان يسير فى عمله سيرة حسنة وأن يكون قدوة طيبة لمن هم تحته من المتصوفة(٢٣٠) متصفا بالديانة ، قادرا على القاء الدروس على الطلبة

---

(٢٢٨) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٣٣٤

(٢٢٩) معيد النعم ، ص ١٢١

(٢٣٠) المتصوفة او الصوفية : هم اهل التصوف وهى طريقة للزهد وللاعراض عن زخرف الدنيا وقد ظهر هذا المصطلح فى منتصف القرن الثالث الهجرى (منتصف القرن التاسع الميلادى) ليدل على طائفة معينة من الزهاد ، ويرجع اشتقاقه من الصوف الذى صار الصوفية يرتدونه د. حسن الباشا : الفنون والوظائف ، ج ٢ ص ٧١٠ — ٧١١

من الكتب الدينية المشـــهورة مثل « الكشاف » للزمخشرى ومن « الهداية » فى فقه الامام أبى حنيفة ، ومن البزدوى فى أصـــول الفقه ، يجلس اليهم يوميا بكرة النهار يقرؤن عليه من العلوم الشرعية .

ويختلف عـــدد الصوفية من حجـــة وقف الى أخرى ، كما يختلف مواعيد قيـــامهم بأداء وظيفتهم فى نوبة الصبح ثم فى نوبة العصر وقـــد يقتصر على احدى النوبتين فقط وقد يقتصر على الحضـــور بعد صـــلاة الجمعة لقراءة سورة الكهف .

أشهر الخنقاوات فى العصـــور الأسلامية الزاهرة :

١ ـــ خانقاه سـعيد السـعداء(٢٣١) : وكانت تعرف فى الدولـــة الفاطمية بـــدار « سعيد السعداء » احـــد الأستاذين المحنكين خدام القصر العتيق « ت ٥٤٤ هـ » ، فلما تولى « صلاح الدين » حكم مصر رسم بأن تكون هـــذه الدار لفقراء الصـــوفية الواردين من البلاد الشاسعة أوقفها عليهم ســـنة ٥٦٩ هـ وأوقف عليها بستان وقيسارية بالقـــاهرة وغيرها ، وشرط أن من توفى من الصـــوفية وترك عشرين دينارا فما دونهـــا كانت للصـــوفية ، ومن أراد السفر منهم يعطى أجرة الســـفر ورتب لهم طعاما كل يوم لحما وخبزا ، وبنى لهم حماما بجوارها ، فكانت أول خانقاه بديار مصر وعرفت « بدويرة الصـــوفية » ويطلق لقب « شيخ الشيوخ » على من يتولى مشيختهـــا الى ان كانت حوادث ســـنة ٨٠٨ هـ فلقب كل شيخ خانقاه بشـــيخ الشيوخ ، ويعرف صوفيتهـــا بالصـــلاح والعلم وترجى بركتهم ، وكان النـــاس يأتون من خارج القـــاهرة ليشاهدوا هيئتهم الجميلة ويتبركون بهـــم حين خروجهم لصـــلاة الجمعة بالجـــامع الحاكمى(٢٣٢) بلبا سهم الأبيض الجميل .

٢ ـــ خانقاه شـــيخون : انشـــاها « الأمير الكبير سيف الـــدين العمرى » سنة ٧٥٦ هـ بخط الصليبة خارج القاهرة تجاه جامع شيخون ،

---

(٢٣١) راجع : مساجد مصر واولياؤها الصالحون ، جـ ١ ص ١٣١

(٢٣٢) خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٤١٥ ، حسن المحاضرة ، جـ ٢، ص ٢٦٠ ، ٢٦١

وموضعها من جملة قطائع ابن طولون كانت مساكن للناس فاشتراها من أصحابها وهدمها فى المحرم من نفس السنة ، وكانت مساحتها فدان تقريبا ، اختط فيها الخانقاه وحمامين وعدة حوانيت يعطوها مساكن للعامة .

ورتب بها اربعة دروس للمذاهب الأربعة الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة ، ودرسا للحديث النبوى ودرسا للقراءات بالسبع ، وجعل لكل درس مدرسا ومعه جماعة من الطلبة ، شرط عليهم حضور الدروس بالاضافة للتصوف ، ورتب لهم يوميا الخبز واللحم وفى الشهر الحلوى والصابون والزيت ، وقف عليها الأوقاف الجليلة وجعل شيخها وناظر وقفها ومدرس الحنفية بها الشيخ « اكمل الدين البابرتى الحنفى » ومدرسا للشافعية « بهاء الدين احمد السبكى » وللمالكية الشيخ « خليل » وفى تدريس الحنابلة « موفق الدين الحنبلى » وقد عظم قدر هذه الخانقاه واشتهر فى الأقطار ذكرها وتخرج بها كثير من أهل العلم(٢٣٣) .

ومن الذين تولوا مشيختها الامام « شمس الدين محمد بن زاده الخرازيانى » علامة زمانه فى العلوم العقلية والأدبيات ، وكان من أعيان الحنفية وله يد طولى فى العلوم الفلسفية ، تصدى للتدريس سنين عدة استدعاه السلطان من بغداد ليتولى مشيخة الخانقاه الشيخونية ، (ت فى آخر ذى القعدة ٨٠٩ هـ — ١٤٠٧ م)(٢٣٤) .

من الذين تولوا مشيختها « زين الدين ابو بكر الكختاوى الحنفى المعروف بالشيخ باكير » ٧٠٠ هـ كان بارعا مفننا فى علوم كثيرة ، تولى قضاء حلب مدة ولما توفى دفن بهذه الخانقاه واستقر عوضه فى مشيختها كمال الدين بن الهمام(٢٣٥) .

---

(٢٣٣) خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٤٢١ ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧

(٢٣٤) نزهة النفوس ، جـ ١ ص ١٣٩ ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ص ١٠١ ، شذرات الذهب جـ ٧ ص ٧٤

(٢٣٥) النجوم الزاهرة ، جـ ١٥ ص ٥٠١

٣ — **خانقاه الجمالى يوسف الأستادار** : وتعتبر هـذه الخانقاه من الخنقاوات الجامعـة التى تكون مجمع دينى يحتوى — بالاضـافة الى الخانقاه — على مكتبة لهـا خازن وكتاب لتعليم الأيتام وغيرهم من فقراء المسـلمين . وقد أوقف عليها المنشىء الأوقاف التى تضمن سير العمـل بهـا . وقد رتب لها مائة وثلاثـة عشر متصـوفا على أن يجتمعوا هم وشيخهم فى كل يوم بعد صـلاة العصر بايوان الخانقاه القبلى وبغيره من الأواوين ليقرأ كل منهم حزئين من القرآن ، ثم يذكرو الله تعالى بما تيسر لهم على النظام المتبع داخل الخنقاوات .

ورتب عـدة دروس فى **الفقه على المذاهب الأربعة** ودرسا **للحديث** ودرسا **للتفسير** ودرسـا **للقراءات** وغير ذلـك ، وقـد رتب مع شـيخ الشـافعية **عشرين** والحنفية والمـالكية والحنابلة مع كل واحد منهم **عشرة** طلاب من المعينين لكل مذهب ، ويكون الطلاب جميعهم من الصوفية(٢٣٦) .

على أن يكون جلوس الشـيخ مع طلبتـه بايوان الخانقـاه القبلى ويشـغلهم بفقه مذهبه ، ويوضح لكل منهم مما يشـكل عليه فيما يشتغل عليه فيه من كشف غامض وحل مشـكل ، وتسهيل عليه فهم ما عسر فهمه ويسلك مسلك الافادة والتعليم . وان اراد واحد منهم الاشتغال عليه بعلم من علوم الشريعة بمثل تفسير وحديث نبوى واصول وعربية وغير ذلك ، مما يكون الشيخ عالمـا به فيشغله ويفيده ويعلمه من ذلك مما يحتمـل تعلمه ومن هذا النص الأخير يتضح لنا وجود نوعين من التعليم :

أحـدهما : اجبارى ويحاسب الصوفى اذا تخلف عنه .

ثانيهما : اختيارى حيث ان الصـوفى اذا وجد فى نفسـه القابليـة ليتعلم علما آخر غير ما خصص له ، فعلى شيخ طائفته ان يشرح له ذلك ويعمل على افادته فيما يطلب الدراسـة فيه من العلوم المتعلقة بالشريعة والحـديث ، والتفسير واصـول الدين واللغة العربية ومتعلقاتهـا من نحو وصرف وبيان وبديع وغيرها من العلوم .

---

(٢٣٦) حجة جمال الدين الاستادار ، ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق القومية .

أما **درس الحديث** ، رتب له الواقف شيخا وشرط فيه أن يكون عالما بعلوم الأحاديث النبوية وحال الرواة جرحا وتعديلا ، له المقدرة على تبيان صحيح الأحاديث من سقيمها(٢٣٧) .

وفى رجب يتغير نظام الدراسة بتعديل بسيط يجريه الواقف ، يدرس الحديث الى آخر شهر رمضان حيث يكون الاشتغال بدراسة الكتب الصحاح ما عدا البخارى من أول شهر رجب الى نهاية شهر شعبان على أن يتصدر شيخ الحديث المذكور لاسماع الطلبة ومن يحضر معهم بالخانقاه من المسلمين الراغبين فى دراسة الحديث .

وفى شهر رمضان يبدأ شيخ الحديث بشرح صحيح البخارى ، ويعاونه فى ذلك من له خبرة ومعرفة بقراءة الحديث « فيقرأ ذلك بين يدى الشيخ المذكور على مكان مرتفع ليعم السماع من بعد وقرب من الحاضرين ، يفعل ذلك بالخانقاه المذكورة فى كل سنة فى الأشهر الثلاثة المذكورة(٢٣٨) ورتب **بدرس التفسير** شيخا من علمائه ، اذ تذكر الحجة أن يكون : « من علماء التفسير وكتاب الله العزيز ، ويرتب معه عشرة أنفس من الطلبة الحذاق ذوى الفطنة والذكاء والنباهة والأهلية ، وتلقى ما يفيده شيخهم من الفوايد الجليلة ، ويلقيه من المسائل الخفية وفهم الغوامض من ذلك(٢٣٩) .

وينبغى على الشيخ تفسير آيات القرآن الكريم لطلبته وافادتهم فيما يجهلونه ويرشدهم الى ما يحتاجون اليه فى بحثهم ، ومن وجد منهم صعوبة أو مشكلة أثناء بحثه ، قام الشيخ بدراسة ذلك معه ويبين له الغامض والمشكل عليه ، ويكون وقت الاشتغال كل يوم من أيام الدراسة بدرس التفسير فى الفترة من وقت صلاة الظهر الى أذان

---

(٢٣٧) حجة جمال الدين الاستادار ، ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق القومية .

(٢٣٨) حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦٢ محفظة ١٧ أ دار الوثائق القومية .

(٢٣٩) حجة جمال الدين الاستادار .

العصر ، أو مقــدار ذلك فيما بين طلوع الشمس الى اذان العصر من كل يوم بحيث لايزاحمهم الصوفية وقت حضور وظيفة التصوف(٢٤٠) .

ويبدو أن طلبة التفسير لم يكونوا من جملة الصوفية المنزلين بالخانقاه ، حيث لم يشترط الواقف ان يكون هؤلاء الطلبة من الصــوفية مثلما شرط على زملائهم ، ولم يستثن من ذلــك الا البواب وخازن الكتب . كما اشترط عــدم مزاحمة الصــوفية لهم وقت حضــور وظيفة التصوف ، مما لايدع مجالا للشــكأنهم لم يكونوا من جملة صوفية هذه الخانقاه .

أما درس القراءات : فقــد رتب جمال الدين الاستادار به شــيخا عالمــا حافظ للقرآن الكريم ، متقنا للقراءات الســبع ، ورتب طائفه من المجردين الذين هم من عــدة الصوفية المذكورين أعلاه عشرة أنفس لهم أهلية الاشــتغال بالقرآن العظيم « على أن يقوم هــذا الشيخ بتعليمهم تجويد القرآن وتعليمهم قراءته بالطرق الســبع ويفهمهم ويشرح لهم هم ومن حضر معهم بالخانقاه ممن له رغبة فى دراسة ذلك .

أما المكان الــذى يجلس به هو وطلبته فقــد ترك للشيخ الحريــة فى اختياره أيام اشتغاله بالــدروس .. فى الوقت الــذى وقت لدروس العلم اعلاه ، ومقــداره ، ويزاد فى الوقت ان احتاج الى الزيادة(٢٤١) .

وملخص ما تقدم أن الخانقاه اسهمت فى النشـــاط العلمى كما أسهم غيرها فى التعليم ، فقــد جلس بعض الصــوفية ينسخ الكتب بالخانقاه لمــدة ثلاثين ســنة نسخ فيها عددا كبيرا من الكتب(٢٤٢) . اليس هذا بالله مشاركة ومساهمة محمودة فى التربية الاسلامية .

---

(٢٤٠) نفس المرجع .

(٢٤١) حجة جمال الدين الاستادار ، ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق القومية .

(٢٤٢) حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ٥٢٤ (ط الحلبى) .

سادسا — التعليم فى الزوايا :

الزاوية فى اللغة كلمة تعنى ركن البناء ، ولهـذا سمى الركن من المسـجد الكبير الـذى يجلس فيـه الشـيخ ويتحلق الطلبـة حولـه « بالزاوية(٢٤٣) ومن أجـل ذلك سميت المساجد الصغيرة **بالزوايـا** ، وظل يطلق على السـاحات الصغيرة المعدة للصـلاة اسم « الزوايا » فى كل الشرق الاسـلامى لكن الزاوية فى المغرب العربى كانت تعنى مفهوما مختلفا تماما ، فلم تكن هـذه الزوايا الصغيرة معدة للصـلاة فقط ، بل تعنى غالبا مبنى كبيرا أو مبانى متعددة فى معظم الأحيان ذات طابع دينى اشبه ما يكون بنظام المدارس الاسلامية(٢٤٤) .

ماذا يعنى مفهوم الزاوية اذن ؟ لم تكن الزوايا مسـاجد صـغيرة يؤمهـا قلة من المصـلين كما قد يتبادر الى الذهن اليوم ، ولم تكن دورا للصوفية كالتى بنيت لبعض الفقراء المريدين ، وانما كانت الزاوية بمفهومها الحقيقى جامعات اسلامية اهلية مصغرة .

وقـد انتشرت الزوايا فى مصر وبعضهـا له هذا المفهوم الأكاديمى قلبا وقالبا حيث يقول ابن بطوطة عن امرائها فى نهاية القرن الثامن : بأنهم كانوا يتنافسـون فى بناء الزوايا(٢٤٥) .

شكل الزاوية وتكوينها : تتكون الزاوية من مسـاحة أصلية للصلاة يتصـدرها محراب للأمام وكان بهـا — غالبا — مدفن مؤسس الزاويـة أو احد الأولياء ، تعلوه عادة قبة كبيرة ، كما كانت تحتوى علـى حجرة أو عـدة حجرات لتحفيظ القرآن الكريم ومكتب (كتاب) لتعليم مبـادىء الاسـلام وكان يلحق بهـا أو فى بناء مستقل عدة حجرات لنوم شـيخ الزاوية وضـيوفه من الطلبة أو من المسافرين والوافدين أو الحجاج الذين يمرون بها فى موسم الحج .

---

(٢٤٣) د. خالد الحديدى : الزوايا السنوسية امتـداد للمدارس الاسلامية ، بنغازى ١٩٦٨ م خطط المقريزى ، ج ٢ ص ٢٦٩.

(٢٤٤) د. خالد الحديدى : فهرس مكتبة زاوية القصبى بطنطا ، ج ١ ص ٥٣ — ٥٧

(٢٤٥) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧١.

كما كانت تشـــتمل فوق ذلك على المكتبة بأمنائهـــا وخزنة كتبهـــا والتى تضـــم المخطوطات والمراجع التى يســـتفيد منهـــا الطـــلاب فى دراساتهم(٢٤٦) .

ويخطىء بعض الباحثين حين يغمطون هذه الزوايا حقهـــا ويخطئون أكثر حينما يتغافلون دورها الذى لعبته فى حياة المجتمع الاســـلامى فى كل العصـــور .

وقـــد اختلفت الزاوية عن الخانقاه فى أن شـــيخ الاولى كان لـــه مطلق الحرية فى ترتيب بعض الدروس وخاصة الفقه والحـــديث اعتمادا على شـــهرة الشيخ فى الأوســـاط العلمية ، وقدرته على توفير بعض المعاليم لطلبته والتى تعينهم على معيشتهم واستمرارهم فى طلب العلـــم وتحصيله كما هو متبع فى المدارس .

نماذج من الزوايا فى العصور الاســـلامية الزاهرة :

١ — زاوية الســـادات المـــالكية بقرافة السيدة نفيسة : تنســـب هـــذه الزاوية الى جماعة من الفقهـــاء وعلماء المذهب المـــالكى الأوائل وكان يجتمع بهـــا عدد من العلماء المـــالكية كما هو واضـــح من التراجم التى ذكرها ((**حسن قاســـم**)) عن عدد من المدفونين بها من أشهر العلماء المـــالكية بمصر ، ومنهم الشـــيخ محمد بن أحمـــد الخطيب التلمســـانى الشـــهير بالجد شارح الشفا للقاضى عياض وبردة البوصـــيرى والمولود بتلمســـان (٧١٠ — ٧٨١ هـ) وغيره من العلماء المـــالكية الـــذين كانوا يجتمعون بهـــا للدرس والمناظرة واعتقد أن معظهم من الســـادة المغاربة الذين درسوا بالأزهر(٢٤٧) .

---

(٢٤٦) فهرس مكتبة زاوية القصبى ، جـ ١ ص ٥٥ ، ٦٢ ، د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، جـ ٤ ص ٤٢٣

(٢٤٧) تحفة الأحباب للسخاوى ، ص ١٦٣ (هامش) ، خطط على مبارك ، جـ ٦ ص ٢٩ د. سعاد ماهر : مساجد مصر ص ٥١ — ٦٢ .

٢ — **زاوية ومســـجد سيدى معاذ الحسنى :** بالعطفة المعروفـــة به بآخر الدراســـة على يمين السالك قاصـــد المشـــهد الحسينى ، وهو « **الســـيد الشريف معاذ بن داود** » (ت ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م) ويقول على مبارك أن أصـــله (**أى المشهد**) مدرســـة بنيت على المشـــهد ، وضريحه الآن داخل قبة بهـــا قبر الشيخ محمد المزين وقبر ابنته نفيسه .

وبداخل المســـجد توجد زاوية صـــغيرة تعرف بزاوية « **القزاز** » وبداخلها ضريحه ، وشعائرها مقامة منأوقافها(٢٤٨) .

٣ — **زاوية زين الدين صدقة بن محمد :** وهى من الزوايا والأربطة التى اتخـــذت كمعهد تعليمى بشـــكل منتظم ، تذكر حجته . ويرتب الناظر أيضـــا **أربعة أنفس من الرجال الفقراء المجردين** الطلبة الآفاقية المشتغلين بفروع **مـــذهب الامام الشـــافعى** يقيمون بالزاوية المذكورة ليلا ونهـــارا على العادة ، يحضرون الدرس بالزاوية المذكورة مع المدرس الشافعى(٢٤٩) .

أمامدة الدراســـة بهذه الزاوية : فقـــد حددها بفترة ثلاثين درجـــة رملية من كل يوم : « ويجلس بايوانهـــا مقدار ثلاثين درجة رملية من كل يوم لاقراء الطلبة الأربعة المقيمون بالزاوية وأرباب وظايفهـــا ومن يأتى اليها من أرباب العلم الشريف ما تيسر عليهم وعليهم حـــد كتب الفقه علـــى **مذهب الامام** الشـــافعى وغير ذلك من العلوم الشرعية يفهمها الشـــيخ للطلبة ويفسر لهم ما غمض عليهم ، وأن يلازم الحضور بالزاوية فى كل يوم من الأيام عـــدا الأيام البطالة التى تبطل فيهـــا الدروس بالقاهرة ، على أن يكون الدرس المذكور لمـــدة **اربعة أيام فى الأســـبوع** ويقوم الشـــيخ

---

(٢٤٨) وقـــد أوقف السيد محمد المزين ، صاحب حانوت الحلاقـــة الكائنة بشارع الأشرفية تجاه المدرســـة الأشرفية — كما يقول السخاوى — (تحفة الأحباب ، ص ٧٠) أوقف أوقافا وخص منهـــا مقرأة سيدى معاذ بصـــالون الحلاقة غير الوقف العام ، (مســـاجد مصر ، جـ ٢ ص ٦٩) .

(٢٤٩) حجة زين الدين صدقة بن محمد ٥٩٢ محفظـــة ١٠ أ دار الوثائق القومية .

فى أليومين الباقيين بالقــاء **درس تفسير قرآن وحــديث ورقائق واخبــار صــالحين** وغير ذلك(٢٥٠) » .

وهــذا يوضح لنا ان الدراســة بهذه الزاوية لم تكن قاصرة علــى الصــوفية المرتبين لتلقى العلم بهــا فقط ، بل كان الباب مفتوحا لمن يرغب فى الدراســة من أرباب الوظائف بالزاوية . ومن يحضر من خارجها من أهل العلم أو طلابه .

هــذا « ولآل صــدقة » مســجد وزاويــة أخرى بقريــة « **بابل الكنانية** »(٢٥١) بهــا دروس فى التفســير والحــديث والقراءات وغيرها . وامام المســجد والزاوية من آل صدقة الذين اشتهروا بالعلم والتدريس فى هــذا المركز العلمى ، ونظرا لشهرتهم العلمية هذه فقــد أعفتهم الســلطة الحاكمة — فى القرن العاشر والحــادى عشر الهجرى وغيرهما والى وقت قريب — من اعمــال السخرة أو الظلم الذى يقــع على النــاس ، وذلك بمقتضى مراسيم وفرمانات صــدرت موثقة اليهم من قاضى قضــاة المسلمين بمصر المحروسة بمحكمة الباب العالى ، ويتوارثها الأبناء عن الآباء منــذ ما يقرب من أربعمائة ســنة والوثيقة المنشــورة على الغلاف من مجموعة الأستاذ الدكتور بيومى صدقة الــذى تفضــل مشكورا بالموافقة على نشرها(٢٥٢) .

---

(٢٥٠) نفس الحجة .

(٢٥١) بابل الكنانية هــذه : هى احدى قرى مركز « تلا » منوفية ، وتقع على الطريق (طنطا — شبين الكوم) على بعــد ما يقرب من عشرين كيلو مترا من طنطا وهى بلدة قديمة لهــا شهرة بعلماء الفقه والأصــول والتفسير والحديث وغير ذلك (المؤلف) .

(٢٥٢) فى مقابلة لنا مع فضيلة الأستاذ الدكتور / بيومى عبد الحكيم صــدقة بمنزله بطنطا ، اســتطعنا الاطلاع على بعض الوثائق التى تتحدث عن اعفائهم من الســخرة (من مثــل : العمــل فى حفر الترع والأنهــار والقنوات وانشــاء الطرق وغيرها ...) نظرا لعكوف أجداده على تدريس العلــم (المؤلف) .

سابعا ـ التعليم فى الرباط :

تمهيد : تختلف الزاويـــة عن الرباط حيث يتبادر الى الذهن معنــاه العسكرى والحربى اكثر من المعنى الدينى او الثقافى أو الحضـــارى الذى تحتويه الزوايا .

ويرى بعض الباحثين أن الزاوية هى الرباط ، ويرى البعض الآخر أن كلمة الرباط تطلق على مراكز ذات نشـــاط حربى معين كان الغرض منها الذود عن الأســـلام بالسيف اذا تعـــذر نشره بالحسنى ، كما كان الغرض منها الدفاع عن الثغور والآسلامية .

ولكن الرأى الغـــالب أن الرباط هو : المكان الـــذى يرابط فيـــه المســـلمون لعبادة الله بعيدا عن حيـــاة الفساد ، والمحافظة على انتظام الصـــلوات والجهاد ودفع الأعـــداء ، وكانت تقـــام على حدود الدولـــة وفى الأماكن التى يرى انهـــا ثغرة يتوقع هجوم الأعداء منهـــا على ارض الوطن .

وكانت وظيفة الرباط فى أول الأمر حربية محضة ، ولكن بمرور الزمن وشـــيئا فشيئا فقـــدت الربط صفتهـــا الحربية وتحولت بالتدريج الى دور للصوفية يتهجدون فيها ويتبتلون(٢٥٣) .

والرباط هو البنـــاء المحصن الذى يقام قرب الحدود ، والمرابطـــة هى ملازمة ثغر العـــدو(٢٥٤) ، كما يطلق الرباط على الدار التى يسكنها أهل طريق الله ، اذ يرى جماعة من الصـــوفية فى قوله تعالى « وصابروا ورابطوا » أى واظبوا على مواقيت الصلاة ، وقيل أن المقيم فى الرباط على طاعـــة يدفع بدعائه البلاء عن العبـــاد والبلاد ، فاعتكاف الصوفى بالرباط على طاعة الله انما يكون مرابطا فى انتظار الصلاة بعد الصلاة(٢٥٥) .

---

(٢٥٣) محاضرات د. حسن الباشا لطلبة شعبة الحضـــارة ـ بكلية اللغة العربية سنة ١٩٦٨ م .

(٢٥٤) خطط المقريزى ، ج ٢ ص ٤٢٦ ، د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٦٨ .

(٢٥٥) نفس المرجع .

والرباط بذلك هو المسمى فى عرف العجم الخانقاه(٢٥٦) .

وهكذا نجـد ان الخانقاه والزاوية والرباط قـد تشابهت معانيهـا ووظيفتهـا عدا الفروق البسـيطة من ناحية التمويل وحرية الـدروس وغير ذلك — حتى اختلط الأمر على الباحثين المؤرخين ولم يستطيعوا التمييز بين اسمائهـا فابن بطوطـة يقول : الخانقاه هى الزاويـة ، والمصريين يطلقون على زاوياهم اسـم خنقاوات ، حتى المقريزى فى تعريفه لكـل نوع منهـا لم يخرج عن معنى واحـد انهـا جميعا كانت بيت الصوفية ومنزلهم(٢٥٧) غير ان الناحية العلمية داخـل الخنقاوات اختلفت عنهـا داخل الربط والزوايا ، اذ كانت الدراسـة بالخوانق تأخـذ شكلا منظما يتبع نظم وشروط الواقف بخلاف الزاوية او الرباط حيث كان الأمر مفوضا لشيخ كل منهما ، لذلـك كثرت بهمـا الـدروس فى فروع مختلفـة من العلوم .

الرباط المنسوب لسيدى أحمد البدوى بطنطا :

تمدنا حجة « الشـيخ شمس الدين ابو عبد الله » بمعلومات هامـة عن هذا الرباط الـذى يقيم به مجموعة من المجاورين ، ويسمح لمن يريد منهم حفظ القرآن بالالتحاق بمكتب الرباط مع الصـبيان المنزلين به ويتعلم معهم القرآن ومبـادىء القراءة والكتابة على أن يشترك المؤدب والعريف فى تعليم الأطفال المذكورين ، وفى تعليم من يحتاج الى التعلم من المجاورين بالرباط المذكور على العادة(٢٥٨) .

قـد خصص « الشيخ شمس الدين ابو عبد الله » الدراسة فى هذا الرباط لتدريس الحديث الشريف وخاصة من كتاب صحيح البخـارى ، ورتب له احـد القراء لقراءته فى كل سـنة من أول شهر رجب الى آخر شهر رمضـان « ويرتب الناظر الشرعى متصـدرا من اهل العلم ذا سنة

---

(٢٥٦) ابن الحاج : المدخل ، جـ ٣ ص ١٨٥
(٢٥٧) د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٦٩
(٢٥٨) حجة الشيخ شمس الدين أبو عبد الله ٧٦١ أوقاف بتـاريخ ٨١٤ هـ

عال يرغب فى الروايـــة عنه ، يقرأ القــارىء المذكور بين يديـــه الكتاب المذكور فى المدة المذكورة ويصرف للقــارىء فى كل سنة تسعين درهما من الفلوس الجدد وللشــيخ المتصدر فى كل ســنة مائتين وسبعين درهما ، يرتب معهما من الطلبة المشــتغلين بعلم الحديث ستة عشر نفرا ، ويقرر الناظر الشرعى من الطلبة ســتة عشر نفرا لسماع الكتاب المشار اليــه أعلاه على الشــيخ المتصدر المشار اليه أعلاه بقراءة البخارى .

ويبدوا أيضـــا أن الطلبة الستة عشر كانوا يتغيرون كل ســنة بعد فراغهم من ســماع كتاب البخارى الذين تخصصوا فيه واقتصروا عليه « ويصرف لهؤلاء الطلاب الســتة عشر فى كل سنة : « ستماية درهم » وأبعون درهما فلوسا جددا ، أو ما يقوم مقامها من النقود لكل نفر منهــم أربعون درهما »(٢٥٩) .

* * *

---

(٢٥٩) نفس المرجع .

ثامنا — التعليم بالقبـــاب :

تمهيد : لعبت القبة دورا هاما فى تاريخ العمـــارة والفن الاســـلامى فقد ظهرت بادىء ذى بدء صـــغيرة تعلو المنطقة المربعة التى تتقدم المحراب فى المســـاجد ، كما هى فى جامعى الأزهر والحاكم ثم اخـــذت فى الكبر كما هى فى مســـجد الظاهر بيبرس ، واصبحت فى العصر العثمـــانى تغطى رواق القبلة بأكملة كما فى مســـجدى أبو الذهب بالأزهر وسنان باشـــا ببولاق .

وقـــد بنى بعض الأمراء قبابهم كمقعد ومتنزه للترويح عن النفس حيث أنشـــأوا حولها البساتين الغناء والحدائق الفيحاء ، وكان بعض السلاطين يتخذونهـــا أماكن للتنزة واقامة الاحتفالات مثل قبتى يشـــبك من مهـــدى بالعباســـية وحدائق القبة . وقـــد رتب هؤلاء الأمراء بهذه القباب مؤدبين لتحفيظ القرآن وبعض العلوم الأخرى أو يرتبون بها اساتذة ومشـــايخ لتدريس الفقه والحـــديث والعربية وغير ذلك .

ومن أشـــهر القباب التى استمرت تؤدى دورها فى التربية الاسلامية .
قبة الامام الشافعى(٢٦٠) .

وقـــد اهتم السلاطين بهذه القبة واجروا عليها الاصلاحات والترميمات كلما تشققت أو آلت للســـقوط ، ومن هذه الاصلاحات : اصلاح « السلطان قايتباى » لهذه القبة .

ومن درس بهـــا القاضى « سراج الدين عمر الحمصى الشافعى » (٧٧٧ — ٨٦١ هـ وكذلك العلامة جلال الدين محمد بن أبى البقاذ الشافعى سنة ٨١١ هـ)(٢٦١) .

القبة المنصـــورية : بناها « الســـلطان قلاوون » من ســـلاطين المماليك البحرية وتعتبر من الناحية الفنية والمعماريـــة من التحف النـــادرة

---

(٢٦٠) الضوء اللامع ، جـ٨ ص ٢٦١
(٢٦١) نزهة النفوس ، جـ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

فى الفن الاسـلامى ، وتوجد بمنطقة النحاسين ضمن مجموعة السـلطان قلاوون الشـهيرة والمكونة من مدرسـة وكتاب وحوض لشرب الدواب وسـبيل وبيمارستان . وقـد رتب بهـا صاحبهـا **دروسا** فى الحـديث الشريف وغيره لأعظم الأساتذه . واستمرت هـذه القبة تؤدى دورها فى اثراء الحركة العلمية كمعهد من معـاهد التعليم . وممن درس الحـديث النبوى بهـا : « جمال الـدين محمود العجمى » المحتسب عوضـا عن « الرازى »(٢٦٢) وقـد درس « ابن خلدون » الفقه المـالكى بقبة الصالح بالمـارستان(٢٦٣) .

* * *

(٢٦٢) نزهة النفوس ، جـ ١ ص ١٠٣ ، ١٣٩ ، ٣٤٨

(٢٦٣) الضوء اللامع ، جـ ١ ص ١٤٦

تاسعا — التعليم بالمشاهد والقبور :

كان السـلاطين والأمراء يشيدون لأنفسهم القصـور الفخمة وحولها البسـاتين الغناء والطيور المغردة وبهـا الجداول لريهـا بذائب اللجين ، وكانت حياتهم كلهـا بذخ وترف وأبهة وعظمة ، وبعضـهم ظلم الشعب بالمكوس والمصـادرات التى لاتنقطع ، ومن هنا أوقفوا الأوقاف علـى المسـاجد والمدارس وغيرها من دور العلم حتى يغفر الله لهم ما تقـدم من ذنبهم وما تأخر .

ولم يكتفوا بذلك ، بل بنوا لهم ولزوجاتهم المدافن الفخمة والحقوا بهـا عدة حجرات بعضهـا لتحفيظ القرآن ، وبعضها لدراسة كتب العلوم الدينية وغيرها وبعضهـا لقراءة القرآن وبعضهـا للصوفية وما الى ذلك . ورصـدوا عليها الأوقاف اخذا من قول النبى (ص) اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث : صـدقة جارية ، او عمـل صالح ينتفع به او ولد صـالح يدعو له فاعتبر الوقف من الصـدقات الجارية والأعمال الصالحة التى لاتنقطع ابدا .

وهذه نماذج من المشـاهد والترب التى استخدمت فى التدريس وهى تلقى ضوءا كاشفا على مساهمتهـا فى التربية الاسلامية .

١ — مشهد السيدة نفيسة : عمر هـذا الجامع وانشـاه الملك « الناصر محمد بن قلاوون » سـنة ٧١٤ هـ وولى خطابته « علاء الدين محمد بن نصر الله الجوهرى » شاد الخزانة السلطانية ، وكانت المصاريف على هـذا الجامع من حاصـل المشهد النفيسى وما يدخل اليه من النذور ومن الفتوح(٢٦٤) .

وقـد زار هـذا المشهد آلاف العلماء والأفاضل والصـالحين ممن لايحصى عـددهم(٢٦٥) .

---

(٢٦٤) خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧

(٢٦٥) نفس المرجع جـ ٢ ص ٤٤٢

وكان هـــذا المشهد هو مقر الخلفاء العباسيين حيث كانت الحلقـــات العلمية تعقـــد للعلمـــاء واشراف مصر يجتمعون هنـــاك لقراءة دروس الحديث والتفسير والفقه وغيرها .

والحقيقة ان المصـــادر التاريخية لم تشف غلتنا عن الحلقات العلمية فى هـــذه المشاهد كمشهد « زين العابدين » وغيره ولعلنا فى المســـتقبل نجد من المخوطات الكثيرة ما يعطينا صـــورة واضحة جلية كاملة عن تلك المشـــاهد .

٢ — **تربة الظاهر برقوق** : وممن قرر لاسماع الحـــديث بتربة برقوق ســـنة ٨١٧ هـ — ١٤١٤ م الشـــيخ الكلوتاتى احمد بن عثمان الكرمانى الأصل القاهرى الحنفى المحدث المتوفى سنة ٨٣٠ هـ ١٤٣٢ م(٢٦٦) .

٣ — **تربة الست** : ممن درس الفقه الشافعى بها محمد بن عبد الرحيم الهيثمى القاهرى الشافعى (٨٠١ — ٨٦٣ هـ — ١٤٠٠ — ١٤٥٩ م)(٢٦٧) .

٤ — **تربة يلبغاى الصحراء** : ممن أدب الأطفال بها : ابراهيم بن نوح الهربيطى(٢٦٨) .

* * *

---

(٢٦٦) الضوء اللامع جـ ١ ص ٣٧٨ — ٣٨٠

(٢٦٧) الضوء اللامع جـ ٨ ص ٥٢ ، ٥٣

(٢٦٨) هربيط ، احدى قرى محافظة الشرقية (المؤلف) .

عاشرا : التعليم فى القصور (التعليم الخاص لأبناء السلاطين والأمراء والتجار وغيرهم) :

كان الخلفاء والسلاطين والأمراء والأغنياء من التجار والوجهاء والعلماء يتخذون لأولادهم معلمين خاصين (وهو ما يعرف فى عصرنا بالدروس الخصوصية فى بيوت الطلاب المقتدرين) يذهبون الى القصور ، ويجلس الأولاد اليهم يتلقون منهم قدرا من الثقافة والمعرفة .

وكان والد الصبى يشترك فى تخطيط وتحديد ما يتعلمه ابنه من معلمه الخاص ، وقد اطلق عليه لقب مؤدب تشريفا وتكريما ، وقد أعدت فى غالب الأحيان أجنحة لاقامة المؤدب حتى يتم لاشراف بدقة على تربية الصغار(٢٦٩) .

واحيانا كان العلماء انفسهم يقومون بتربية وتعليم أولادهم وأحفادهم ، وكثيرا ما تحدثنا المصادر عن أن فلانا حفظ القرآن عند والده ، وفلانا درس الفقه تحت اشراف ابيه ، وأن فلانا من العلماء أحضر لولده كبار الاساتذه ... الخ ، وكان الوالد يشترك مع المؤدب غالبا فى وضع المنهج الذى سيربى عليه ابنه .

ومن هؤلاء الشيوخ : محمد بن عبد الله بن عثمان المولود بمنية نخالة سنة ٨٢٥ هـ — ١٤٢٢ م أقرأ فى بيت « أزبك الظاهرى »(٢٧٠) .

أحمد بن عثمان الشهير بالكلوتاتى .. قرر فى قراءة الحديث بالقصر الأسفل من القلعة بعد السراج قارىء الهداية ، فقرأ صحيح مسلم عدة سنوات(٢٧١) .

ومن أحسن المناهج التربوية العظيمة التى اشترك فيها الوالد مع المؤدب ، ذلك المنهج المتكامل الذى قدمه الخليفة « هارون الرشيد » « للأحمر » مؤدب ابنه الأمين ولى العهد والخليفة المرتقب بعد والده ،

---

(٢٦٩) أسس التربية — ص ١٦١
(٢٧٠) الضوء اللامع جـ ١ ص ٩٩
(٢٧١) الضوء اللامع جـ ١ ص ٣٧٨ — ٣٨٠

وفيــــه يقول كما يذكر ابن خلدون فى المقدمة : « يا أحمد : ان أمير المؤمنين قـــد دفع اليك مهجة نفســــه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبســـوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشـــعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضـــحك الا فى أوقاته وخذه بتعظيم مشـــايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجـــالس القواد اذا حضروا مجلســـه ، ولا تمرن بك ســـاعة الا وأنت مغتنم فائـــدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالضرب والملاينة ، فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

* * *

حادى عشر — الدراســة بالملازمــة :

والى جانب الدراســة بالمنازل ، وجــد نوع آخر من التعليم وهو الدراسة بالملازمة . وتتمثل فى ملازمة الطالب لشيخ من شيوخ العلم حتى يأخذ من علمه ما فيه الكفاية ، ثم ينتقل الى غيره فيلازمه وهكذا(٢٧٢) .

وغالبا ما يكون انتقــال الطالب من شيخ لآخر حسب نضج الطالب وشهرة شــيخه أى ان الطالب يبدأ بملازمة شيوخ على مستوى معين ، ثم يترقى الى شيوخ اكثر شهرة وهكذا . وكان الطالب يختار شيخه بدقة خلقيا وعلميا حتى لايضطر الى مفارقته قبل انهاء دراسته(٢٧٣) .

ولعل هــذا النوع من الدراسة هو الذى جعل كثيرا من المؤرخين عنــد ترجمتهم لمشــاهير العلماء ان يذكروا شــيوخهم الــذين تتلمذوا عليهم(٢٧٤) .

وهــذا يعطينا صورة واضحة عن ان الطالب يظل مدة طويلة يتلقى العلم ، ويلازم العلماء . ولم يكن بعض الطلبة يكتفون بأخــذ العلم عن مشــاهير بلدهم فقط ، بل كان اذا ســمع عن شيخ له شهرة فى بلــد آخر أو فى قطر آخر ســافر اليه ليتتلمذ على يديه(٢٧٥) وهو ما يعرف باســم « الرحلة فى طلب العلم » وكان ذلك من الأمور المــالوفة فى العصور الاســلامية حيث تجشم العلماء مشاق الســفر فى سبيل الدراسة على عالم ضــليع فى مكة أو المدينة أو اليمن او الشــام او الهند او بلاد فارس أو بــلاد الروم بالاضــافة الى بــلاد المغرب العربى وغيره من البــلاد الاســلامية .

---

(٢٧٢) د . سعيد عاشــور : المجتمع المصرى فى عصر ســلاطين المماليك ، ص ١٤٥

(٢٧٣) الســيوطى : آداب المتعلمين ، ص ١٤٥ الزرنوجى تعليم المتعلم ، ص ٩

(٢٧٤) انظر السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ٢٠٢ وما بعدها السخاوى الضوء اللامع جـ ١ ص ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٩ ، ٦١

(٢٧٥) د . سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٤٥

والحقيقة أن الدراسة بالملازمة كانت كثيرة جدا لدرجة أن معظم العلماء كان الواحد منهم يلازم شيخا من الشيوخ ترتاح اليه نفسه ، بحيث أنه لايمل من رؤيته ، ولا يثقل عليه كلفة خدمته ويكون سر هذا التواضع من الطالب أن الشيخ لايبخل عليه بل يعطيه أسرار العلوم ومفاتيحها .

وهكذا تأت الدراسات بالملازمة أشهى الثمرات وأطيب الخيرات ، ولم تقتصر الدراسة بالملازمة على الرجال ، بل أن النساء أيضا درسن بالملازمة . ولاتخل كتب التراجم من ذكر بعضهن ممن درسن بالملازمة . وهذا هو العلامة السخاوى يخصص الجزء الثانى عشر من مرجعه « الضوء اللامع » لشهيرات النساء فى العلم والأدب والخلق .

طريقة ومنهج التدريس بالملازمة (حيث كان البيت يساعد المدرسة فى المتابعة) ويذكر لنا العلامة « تاج الدين السبكى » فى طبقاته معلومات عن مشايخه وبعض رفقائه فى الطلب والملازمة ، تعتبر صورة حية لبعض أساتذته ورأيه فيهم ، ونذكر بعضها فهى من الجلاء الذى ينقلنا الى عصر تاج الدين وكأننا بذكرها نصحبه فى حياته اليومية الدراسية قال فى بعض كلامه عن شيخه المزى وقيمته العلمية العظيمة : وكنت . كثير الملازمة للذهبى أمضى اليه فى كل يوم مرتين بكرة والعصر ، وأما المزى فما كنت أمضى اليه غير مرتين فى الأسبوع وكان سبب ذلك أن الذهبى كان كثيرا الملاطفة والمحبة فى ، بحيث يعرف من عرف حالى معه أنه لم يكن يحب احدا لمحبته لى ، وكنت أنا شابا فيقع ذلك منى موقعا عظيما .

وأما المزى فكان رجلا عبوسا مهيبا ، وكان الوالد يحب أن الازم المزى اكثر من ملازمة الذهبى لعظمة المزى عنده ، وكنت اذا جئت من عند شيخ يقول : هات ، ما استفدت ، ما قرات ما سمعت ، فأحكى له مجلسى معه ، فكنت اذا جئت من عند الذهبى يقول : جئت من عند شيخك ، واذا جئت من عند الشيخ نجم الدين القجقارى يقول جئت من جامع سكر ، لأن الشيخ نجم الدين كان يشغلنا فيه ، واذا جئت من عند الشيخ شمس الدين بن النقيب ، يقول : جئت من الشامية لأنى

كنت أقرأ عليه فيهـــا . واذا جئت من عند الشـــيخ أبى العباس الأندرشى يقول جئت من الجامع لأنى كنت أقرأ عليه فيه ، وهكذا .

وأما اذا جئت من عند المزى فيقول جئت من عند الشيخ ويفصـــح بلفظ الشـــيخ ويرفع بها صـــوته وانا جازم بأنه انما كان يفعل ذلـــك ليثبت فى قلبى عظمته ويحثنى على ملازمته(٢٧٦) .

* * *

(٢٧٦) محمد الصادق حسين : البيت السـبكى بيت علم فى دولتى المماليك ص ١٥ ، ١٦

ثانى عشر — المكتبات واثرها فى الحركة العلمية :

كثرت المكتبات فى العصور الاسلامية لدرجة اننا قل أن نجد مدرسة أو مسجدا او جامعا او خانقاه او زاوية او قبة او تربة او غيرها دون أن تزود بخزانة كتب نافعة تعين المدرسين على التأليف والطلاب على المذاكرة . ولاشك ان هذا العدد الكبير من المكتبات له قيمته العلمية فى عصور كان اعتماد التدوين فيها على الكتابة الخطية ونسخ المخطوطات يدويا ، ولاريب أيضا فى ان وجود دار الكتب العامة والخاصة له اثره المحمود فى النهوض العلمى ونشاط حركة النسخ والتأليف(٢٧٧) وترجع اهمية المكتبات الى أن الكتب لم تكن متيسره ، ولم يكن باستطاعة الكثيرين شراءها نظرا لارتفاع اثمانها(٢٧٨) وقلة عدد الموجود منها لأن جميع الكتب كانت مخطوطات مرتفعة الثمن باهظة التكاليف لارتفاع اثمان مواد الكتابة من الأوراق والأقلام والمداد بالأضافة الى ارتفاع أجرة اليد العاملة فى النسخ وندرة هذه الطائفة ، ولهذا انتهز كل من كان خطه جميلا فاشترك فى عملية النسخ ، حتى اشترك فيه بعض القضاة ، ويحدثنا بعض المؤرخين عن القاضى « شهاب الدين المتبولى المالكى » (ت ٨٣٠ هـ) وكانت له اليد الطولى فى التوقيع عند القضاة .. أنه كان يكتب الكتب ويأخذ فى خطه أجرة زائدة عن الحد(٢٧٩) .

---

(٢٧٧) د. محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، جـ ٢ قسم ١ مجلد ٣ ص ٦٧ ، د. مصطفى السباعى : من روائع حضارتنا ، ص ٦١٦ وما بعدها .

(٢٧٨) الضوء اللامع جـ ٥ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، التبر المسبوك ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، حيث يذكر السخاوى فى ترجمة على بن اسماعيل القلقشندى انه حضر مزادا لبيع الكتب ومن جملتها « لسان العرب فى اللغة ورام ابتياعه ، وزاد صاحبه فيه ، فانتدب له احد الأعيان حتى وصل الى ثمن مرتفع لاينهض الشيخ على الوفاء به ، وخشى من الزيادة فيه بعد ذلك فيلزم فى الحال بثمنه .

(٢٧٩) النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ص ٧٩٧ ، نزهة النفوس ، جـ ٣ ص ١٢٥ ، الضوء اللامع ، جـ ٢ ص ٦٥٢ ، شذرات الذهب ، جـ ٧ ص ١٩٢

ولم تكن المكتبة بطبيعة الحـــال مؤسسة علمية قائمة بذاتها ، ولكنها تابعة ومســـاعده لمؤسسة علمية اخرى كالمدرســـة والمسجد والخانقاه والزاوية أو غيرها لتقوم برسالتها العلمية والتعليمية خير قيام .

كما أنه وجد ببعض المكتبات « **كتبيات** » توضع فيها المصاحف(٢٨٠) . وبعض الكتب التى تصلح لتعليم الصغار ويسهل عليهم فهمها ومطالعتها .

ومما لاجـــدال فيه أن المكتبة لعبت دورا هاما فى تشجيع وتنشـــيط الحياة العلمية فى تلك العصـــور التى ساد فيها انتشار المدارس وتجديدها والتى ألحق بمعظمها مكتبات لتكون عونا للأســـاتذة والطلاب فى البحث العلمى .

ووجود هذه المكتبات فى الحقيقة قـــد ابعد الطلاب عن جشع التجار ومغالاتهم فى أثمان الكتب ، فان بعض الطلاب اذا احتاج كتابا معينا وطلبه من بعض التجار أحضره اليه بعـــد أن يوهمه أنه احضره من شخص آخر لم يعطه له الا بعـــد أن دفع له أجرة يومية قـــد تصل الى ثمن هـــذا الكتاب(٢٨١) ولم يكن فى مقـــدور الطلبة أمام جشـــع بعض التجار دفع ثمن الكتاب أو أجرة عاريته ، مما جعـــل لمكتبة المدرســـة اهمية قصوى فى حياة الباحثين الدراســـية ، فبدونهـــا لم يتمكنوا من الاطلاع أو مراجعة ما يمليه عليهم اساتذتهم من آراء الفقهاء وغيرهم ، كما اتاحت لهم فرصة ذهبية وهى حريـــة البحث والاطلاع فى العلوم المختلفة بصرف النظر عما اذا كانت تدرس لهم من عدمه ، كما اعانتهم على سرعة الفهم ومتابعـــة الأساتذة والتجاوب معهم باطلاعهم على الدروس التى ســـتلقى عليهم فى اليوم التالى شرحا واملاء .

---

(٢٨٠) د. عبد اللطيفة ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية ، مجلد ١ ص ١٤٧

(٢٨١) الضوء اللامع ، جـ ٤ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

ولم يكن كل التجار جشـــعا فى بيع الكتب ، بل وجد منهم من يبيعها لمبتغيهـــا بنفس ثمن شرائها مع أخذ ربح خفيف فيها ، فاذا انتهى الطالب من دراسته أعادها للتاجر عينه واسترد منه ما دفعه فى ثمنها(٢٨٢) .

ورســـالة المكتبات لم تقتصر على المدرســـين والطلبة ، بل أفادت معظم الباحثين فى فروع المعرفـــة المختلفة فقـــد أعانتهم على تصـــنيف مؤلفاتهم ، واحتفظت لنا بالكثير من تراثهم ، كما احتفظت لنا هذه المكتبات — بالاضـــافة للكتب — بعـــدد من الوثائق والســـجلات من الرق والورق يتضـــح منهـــا نظام سير العمل بهذه المؤسسة بالاضافة الى نسخة من حجة وقف المدرسة يرجع اليها عند اللزم(٢٨٣) .

مكان المكتبة : وقـــد حرص منشىء المدرسة وغيرها من أوعية العلم فى تصميمهـــا أن تكون المكتبة فى مكان متوسط ومناسب بين أواوين المدرسة قريبة من مســـاكن الطلبة ليسهل الوصـــول اليهـــا ، وان تكون مرتفعة عن أرضية الشارع ، بعيدة عن الرطوبة ودورات المياه(٢٨٤) .

ومع حرية الدراســـة بالمكتبات وعدم التقيد بمنهج معين ، نبغ الكثير من طلاب العلم نبوغا منقطع النظير ، ولذلك قل — بل ندر — أن يخلو تصميم المؤســـسة العلمية من خزانة كتب فى هذه العصور .

تزويد المكتبة : لمـــا كان المدرســـون والطلاب فى حاجة مستمرة الى الكتب والمراجع للتدريس او المذاكرة فقـــد الحقت بكل مدرســـة تقريبا مكتبة كبيرة(٢٨٥) .

ولمـــا كانت هـــذه المراجع لاتكفى الدراسين والمدرسين نظرا للزيادة المطردة فى عدد المترددين على المكتبة ، ونظرا للمـــد التعليمى أيضـــا فى

---

(٢٨٢) د. عبد اللطيف ابراهيم ، المكتبة المملوكيـــة ص ٥٦ مرجع ســـبق .

(٢٨٣) المرجع نفسه ص ٤٢ ، ٤٣

(٢٨٤) د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٤٥ ، د. احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٥٨

(٢٨٥) تاريخ التربية فى مصر ص ٢١٤ ، ٢١٥

المستقبل . حرص الواقف على تزويد المكتبة بزاد لا ينقطع من المخطوطات ، لذلك نجد فى معظم الحجج الشرعية ان أصحابها يخصصون جزءا من ريع الوقف على المكتبة لشراء الكتب أو تخصيص حجرة من حجرات المكتبة ليعمل بها ناسخو الكتب(٢٨٦) .

ويتم تزويد المكتبة بالكتب غالبا من عدة طرق منها :

١ — **مايقفه الواقف** من ريع حسب حالته الاقتصادية ، والذى يحبسه على المكتبة ، فيذكر المقريزى عن مدرسة « جمال الدين محمود » التى انشئت (٧٩٧ هـ) وزودها بخزانة كتب « لايعرف اليوم بديار مصر والشام مثلها . ولهذه الخزانة كتب الاسلام من كل فن »(٢٨٧) أما الأمير « جمال الدين يوسف الاستادار » فقد زود مكتبة خانقته بمجموعة قيمة من الكتب كان ضمنها عشرة مصاحف طول كل مصحف منها من أربعة أشبار الى خمسة فى عرض قريب من ذلك ، احدها بخط ياقوت المستعصمى(٢٨٨) وآخر بخط ابن البواب(٢٨٩) .

بالأضافة الى خطوط منسوبة لها جلود فى غاية الحسن معمولة فى أكياس من الحرير الأطلسى بالاضافة الى عشرة احمال من الكتب النفيسة(٢٩٠) .

---

(٢٨٦) راجع حجة سليمان بن على الأبشادى : ٢٧٨ م محفظة ٤٣ دار الوثائق .

(٢٨٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ص ٣٩٤

(٢٨٨) ياقوت المستعصى : ويعرف بقبلة الكتاب ، عاش زمن آخر خلفاء بنى العباس (٦٩٨ هـ) وكتابته دقيقة ورشيقة ، وله الفضل فى كتابة ١٠٠١ نسخة من القرآن الكريم فاق ابن مقلة الوزير والمهندس الفنان البارع ، كما فاق ابن البواب ، ولياقوت عدة مؤلفات منها : « رسالة فى علم الخط واسرار الحكماء » وغيرها .

(٢٨٩) ابن البواب : أبو الحسن على بن هلال عاش زمن العباسيين وكان والده هلال بوابا لذلك اطلق عليه ابن البواب ، كتب بخطه القرآن أربع وستون مره ، ولم يبق منها غير نسخة واحده بمكتبه جستربيتى فى انجلترا (تطور الخط العربى وادوات الكتابة ، بحث ماجستير للمؤلف بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة ص ٤٩ — ٥١

(٢٩٠) خطط المقريزى ، جـ ٢ ص ٤٠٠

٢ — **الهدايا والهبات** من الوجهاء والسادة من رعاة العلم لمكتبة المؤسسة التعليمية لتعم بها الفائدة وينتفع بها الطلاب(٢٩١) .

٣ — **النسخ** : سواء كان النساخ متطوعون لوجه الله لايتعاطون أجرة أو يتقاضونها لحاجتهم اليها ، وقد يكون النسخ بواسطة بعض الطلاب أو الصوفية المنزلون بالمدرسة أو الخانقاه(٢٩٢) .

٤ — **شراء الكتب** : من أسواق الوراقة وغيرها ، وتجار الكتب(٢٩٣) وغالبا ما يدفع ثمنها من ريع الوقف أو من بيع بعض الكتب القديمة لاستبدالها بكتب جديدة .

أنواع الكتب بهذه المكتبات :

كانت المكتبات غالبا تخضع للهدف الذى أنشأ الواقف المدرسة من أجله ، فاذا كانت المدرسة لمذهب واحد كالشافعية مثلا ، كانت غالبية الكتب بهذه المدرسة خاصة بفقه الشافعية وأصوله وفروعه ، وهكذا كانت مكتبات متخصصة حسب مواد الدراسة بكل مدرسة طبقا لحجتها الشرعية التى تعتبر بمثابة اللائحة التنفيذية لها(٢٩٤) .

أما المدارس ذات الصبغة العامة ، والتى يدرس بها المذاهب الأربعة والقراءات والتفسير والحديث والنحو وغيرها ، فلا بد أن تكون مكتبتها تحتوى على بعض الكتب فى مواد هذه الدراسة المتعارف عليها فتذكر حجة وقف السلطان « **برقوق** » ويرتب الناظر شخصا من الصوفية المذكورين من أهل الخير والدين خازنا لما يكون بهذه الخانقاه من الربعات والختمات الشريعات وكتب الحديث والعلم وغير ذلك من الكتب(٢٩٥) .

---

(٢٩١) الضوء اللامع ، جـ ٥ ص ١١٧ ، ١١٨ .
(٢٩٢) الضوء اللامع ، جـ ٦ ص ١٤٨
(٢٩٣) حجة سليمان الابشادى مرجع سبق .
(٢٩٤) د. عبد اللطيف ابراهيم : المكتبة المملوكية ص ٤٥
(٢٩٥) حجة وقف السلطان برقوق ، ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق .

وما جاء بحجة وقف السلطان الغورى : وسلمه جميع ما فيها من الكتب من تفسير وحديث وفقه ولغة ومعان وبديع وأصول فقه وأصول دين وغير ذلك من نحو وصرف وغيرها(٢٩٦) .

ويرجع السبب فى انشاء المكتبات او الخزانة الكتبية كما يسميها البعض الى تكدس الكتب الموقوفة على تلك المنشآت من قبل اصاحبها ومن قبل الأفراد(٢٩٧) .

واهم موظفى المكتبات :

خازن الكتب(٢٩٨) : هو المسئول عن المكتبة ، يشرف على كتبها وينظم العمل بها وفقا للشروط التى يعينها الواقف فى حجة وقف المنشأة ، وقد اشترطت غالب الحجج الشرعية شروطا لمن يشغل هذه الوظيفة ، كأن يكون : متصفا بالأمانة والديانة ، عارفا بشئون الكتب ، من اهل العلم والنزاهة ، واسع الأطلاع ، وبعض الحجج تشترط أن يكون الخازن عالما ليكون له دربة ودراية بالكتب ومعرفة محتوياتها ، وصفاتها ، حيث يتعامل مع مستوى راق من البشر وهم المدرسون والمعيدون والطلبة ومن يرغب فى القراءة والبحث من سائر المثقفين والمتعلمين من الفقهاء والعلماء وغيرهم من أهل الفضل والعلم وكل من هؤلاء يطلب مساعدته فى بحثه ودراسته واختيار الكتب التى تساعد على ذلك ، حيث أن وظيفته تربوية توجيهية تهدف اولا واخيرا الى تعريف الطلبة وغيرهم من الدراسين بتراثهم وتوجيههم الى مصادر المعرفة واعانتهم على

---

(٢٩٦) د. عبد اللطيف ابراهيم : المكتبة المملوكة ص ٧٠ ، دراسات تاريخية مجلد ٢ ص ٤٤

(٢٩٧) د. مجاهد الجندى : انقذوا مكتبة الأزهر — مرجع سبق .

(٢٩٨) الخازن : هو محرز الشىء أو حافظه وقد وردت اللفظة وجمعها « خزنة » وكلمة خزائن جمع خزانة بالقرآن الكريم : الحجر ٢٢ ، غافر ٤٩ ، الزمر ٧١ ، ٧٣ ، الملك ٢٨ ، الانعام ٥٠ ، هود ٣١ ، يوسف ٥٥ ، الاسراء ١٠٠ ، الطور ٣٧ ، المنافقون ٦٣ ، الحجر ١٥ .

تحصيلها(٢٩٩) مع تقديره لقيمة كتب العلم يتولى الاشراف عليها صائنا لها محافظا عليهـــا .

وتذكر لنا بعض حجج الوقف أن « يصرف لرجل من أهـــل الأمانة والديانة والنهضـــة والصيانة يقرره الناظر فى وظيفة خزن الكتب(٣٠٠) . أما حجة الســـلطان « فرج بن برقوق » فتشترط أن يكون الخازن قادرا على القيام بخدمة الكتب عارفا بترتيبها(٣٠١) .

وكانت وظيفة خازن الكتب من الوظائف المرموقة من أجل ذلك تولاها مجموعة من كبار العلماء وذلك حيث يوجـــد تحت يده ومباشرته أمهـــات المخطوطات الثمينة فنجد على ســـبيل المثال « ابن حجر العسقلانى » يتولى خزن كتب المدرســـة المحمودية(٣٠٢) والشـــيخ « شرف الدين الميدومى » النحوى المحدث تولى وظيفة خزن الكتب بالمدرسة الكاملية ثم مشـــيختها بعـــد ذلك .

كما نجد فى بعض الأحيان أن تعيين خازن الكتب كان يتم عن طريق المعرفـــة الشـــخصية وبناء على رغبة الســـلطان ، كما حدث فى تعيين خازن الكتب بالمدرســـة المؤيدية(٣٠٣) والمدرســـة الأشرفية برسباى(٣٠٤) وقبة الظاهر خشقدم ، وأحيانا لايتم تعيين خازن الكتب الا بعد موافقـــة الطلبة ورضاهم كلهم عليه واتفاقهم(٣٠٥) .

---

(٢٩٩) د. عبد الليطف ابراهيم : المكتبة المملوكية ، ص ٧٥ ، د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٤٦

(٣٠٠) راجع حجج : قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف ، المؤية شيخ ٩٣٨ أوقاف ، السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٢٩

(٣٠١) حجة الســـلطان فرج بن برقوق ، ٦٦ محفظـــة ١١ أ ادن الوثائق القومية .

(٣٠٢) الضوء اللامع ، جـ ٥ ص ١٤٣

(٣٠٣) حجة الســـلطان المؤيد شيخ ١٩٣٨ أوقاف ، عقد الجمان ، جـ ١٩ سنة ٨٢٢ هـ المكتبة المملوكية ، ص ٦٧

(٣٠٤) الضوء اللامع ، جـ ٧ ص ١٥٨

(٣٠٥) د. عبد اللطيف ابراهيم : مكتبة فى وثيقة ، ص ١٦ ، المكتبة المملوكية ص ٦٧

وفى بعض المكتبات كان الخازن يقوم بأعمال اضـــافية يتلقى عليهـــا أجرا كالخطابه او الامامة او الفراشه(٣٠٦)

ووظيفة خزن الكتب مشـــتقة من الخزن ، وترجع هـــذه الوظيفة الى العصـور الاســـلامية الاولى وقد وجدت هذه الوظيفة عند العباسيين وكذلك الدول التى تفرعت خلافتهم(٣٠٧) عنهـــا .

وقد جاء اســـم خازن الكتب فى نص اشهاد بظهر وثيقة الشـــيخ شرف الدين ابى الروحعيسى بن زين الـــدين الزواوى المغربى المـــالكى المؤرخة فى ١٩ شـــوال ٨٨٣ هـ **اشارة** الى الشـــيخ بدر الدين حســـن بن المرحوم الزينى عباس بن احمد المولى المديونى(٣٠٨) .

ومن خلال دراســـة وثائق الوقف فى العصـــور الاســـلامية يمكن التعرف بوضـــوح على اختصاصات خازن الكتب وطريقة عمله ومكافاتـــه ومجازاته(٣٠٩) وتضيف بعض الوثائق عـــدة مهـــام اخرى لخازن الكتب وطريقة عمله ومكافأته منهـــا على أن يتولى احراز الكتب بالخزانة المذكورة ونفضهـــا من الغبار وتعهدها على العـــادة وصونها عما يفسدها من البلل والأتربة وتنظيمهـــا داخل الخزائن والقيام بحراستها وصونها من الضياع والسرقة ، يؤيد ذلك ما جاء ببعض حجج الوقف : « ويحفظها من البلل

---

(٣٠٦) حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١ ، حجة المؤيد شيخ ، الضوء اللامع ، جـ ٨ ص ٩٥ ، ٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، جـ ١١ ص ١٥٢ ، ١٥٣ النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ص ٩١

(٣٠٧) الفنون والوظائف ، جـ ١ ص ٤٥١

(٣٠٨) د. عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة باستلام كتب ، ص ٢٠

(٣٠٩) حجة السيفى أزبك ١٩٨ محفظة ٣١ ب دار الوثائق ، حجة السلطان فرج بن برقوق ٦٦ محفظة ١١ أ دار الوثائق ، حجة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف ، حجة قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٢٩ ، ١٣٠ حجة برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ٢٩٠ ، حجـــة جوهر اللالا ٦٨ محفظة ١٤ دار الوثائق القومية .

ويتعهدها بالتقليب والاصـــلاح . وتيسـيرا حضــارها لمن يرغب فيها بدون تأجير ، وامداد الباحثين بما يلزمهم من المداد والأوراق والأقلام(٣١٠) .

طرق الاطلاع والاستعارة من المكتبات :

انقسم نظام الاستعارة من المكتبات فى العصور الاسلامية الى قسمين أو نوعين :

نوع من الواقفين يبيح الاعارة خارج المكتبــة ، ونوع آخر لايبيح اخراج الكتــاب من المكتبة مطلقا بــل تكون الاســتعارة داخلية فقط . ونستعرض الآن كلا النوعين بشىء من التفصيل .

فقد كان نظام العمــل داخل اغلب المكتبات يقوم اساسا على توفير الكتب للأعارة الداخلية فقط وعــدم الســماح باخراج الكتب من المؤسسة التعليمية او (مسجد أو مدرسة أو خانقاه) لابرهن ولا بغيره ، وقد يكون الهدف من ذلك هو توفير الكتب لمزيد الاطلاع ، بحيث لايســتأثر شخص واحــد بالكتاب . ويحرم منه باقى المطلعون ، لهــذا كثرت التوصيات فى حجج الوقف بعدم التصريح بخروج الكتب من المكتبة، خــذ مثلا ما جاء بحجة المؤيد شــيخ : « وأن لايخرج من الجــامع المذكور كتابا واحــدا ولا أكثر منه مطلقا(٣١١) ، وما جاء بحجة قانى باى الرماح وكل من حضر اليه من طلبة العلم الشريف يمكنه من الانتفاع بما يحتاج اليــه من الكتب المذكورة فى نســخ أو مقابلة أو مطالعة الى أن ينهى حاجته ثم يرد الكتاب الى محله(٣١٢) وبحجة السيفى ازبك :

ومناولتها لمن يريد المطالعة فيهــا ، والكتابة منها بحيث يكون ذلك بالجامع المذكور(٣١٣) .

---

(٣١٠) د. سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ١٩٥

(٣١١) حجة المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف ، حجة جمال الدين الاستادار ١٠٥ محفظة ١٦ أ دار الوثائق القومية .

(٣١٢) حجة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف .

(٣١٣) حجة وقف السيفى ازبك ١٩٨ محفظة ٣١ ب دار الوثائق .

وبعض الحجج تشــترط توقيع المستعير باستلامه للكتاب ، وعند رده للمكتبة يعطيه الخازن توقيعه ولايترك الخــازن الكتب عند المســتعير مدة طويلة ، حتى لايتسبب ذلك فى نسيانهــا :

وعلى أن من حضر اليه يطلب شــيئا من ذلك ، فان كان اهلا لمطالعة ذلك والاشــتغال به وكان من اهــل المكان ، وبمن يوثق به ، دفع اليه واخــذ خطه منه ، فان اعاده اليه دفع اليه خطه ، ولايمكن من التأخير مدة يخشى منها حصول النسيان(٣١٤) .

وهناك بعض المكتبات كانت تعير الكتاب داخل المؤسســة التعليمية فقط لمــدة شهر ، أما اذا كان الطالب من خارج المؤسســة ، فيطلع داخل المكتبة فقط ، مــدة النهار ، ثم يرده للخازن اذ تذكر احــدى الحجج : ومن حضر من طلبة العلم الشريف من اهــل الخانقاه المذكورة لاســتعارة شيء من الكتب المذكورة يشــتغل فيه سلمه اليه ان كان ثقة وان كان ممن يخشى منه منعه الا أن يضمنه ضامن من أهل الخانقاه . وان كان المستعير من غير أهل الخانقاه المذكورة سلم اليه ما يريد استعارته فيطالع فيه نهارا بالخانقاه المذكورة ثم يبقيهــا عند الخادم ثم يستعيرها منه نهارا(٣١٥) .

أما الاستعارة الخارجية فقد كان يسمح بها فى بعض المدارس(٣١٦) ، الا أن بعض الواقفين كان يشــترط على المستعير أن يترك رهنا يعــادل ثمن الكتاب لضمان محافظته عليه ، ورده فى المعيــاد الــذى يحدده له الخازن ، يذكر العــلامة السبكى : أن كثيرا ما يشترط الواقف الا يخرج الكتاب الا برهن يحرز قيمته وهو شرط صــحيح معتبر ، فليس للخازن أن يعير الا برهن(٣١٧) .

---

(٣١٤) حجة الســلطان فرج بن برقوق ١١٦٦ أ دار الوثــائق ، د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٤٦

(٣١٥) حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق ، عبد اللطيف ابراهيم المكتبة المملوكية ص ٦٢

(٣١٦) د. عبد اللطيف ابراهيم ، المكتبة المملوكية ، ص ٦٣

(٣١٧) السبكى : معيدا النعم ص ١١١

ثالث عشر — أسواق الكتب ودورها فى الحركة العلمية :

نشطت تجارة الكتب فى العصـــور الاسلامية نشاطا ملحوظا ، وكان لهـــا أسواق مهمة بمدينة القـــاهرة اطلق عليهـــا المعاصرون « أســـواق الكتب » وقـــد ظهرت أسواق الكتب ومتاجرها تفيض بالنشاط والحركة والحياة تبعا لذلك النشـــاط المتزايد فى طلب الكتب من مصر ومن غيرها من الدول المجاورة ومن السلاطين والأمراء .

وكان يفد الى هـــذه الأسواق العلمـــاء والطلاب للشراء والقراءة والاطلاع ، فمن لوازم شراء الكتاب فحصه وقراءة ما فيه قراءة سريعـــة ، وبهـــذا شجعت الأســـواق النشاط العلمى والتأليفى للعلماء والطلاب .

ومن أسواق الكتب المشهورة « سوق الوراقين او الوراقة » التى كانت بجوار ميضأة المدرسة الاشرفية برسباى « وسوق الكتبيه » بالشارع الاعظم فيما بين المدرســـة الصالحية النجمية وكان مجمعـــا لاهـــل العلم والفضـــل والادب وكذلك بمدينة مصر ، **الســـوق الكبير** لتجـــارة الكتب فى أول زقاق القنـــاديل بجوار جامع عمرو بن العاص(٣١٨) وكذلك غيرها من الأســـواق التى لايخلو منها مكان بمدينة القاهرة .

وكان تجـــار الكتب من العلماء يأتون الى هـــذه الأسواق فى مواسم معينة من الشـــام والمغرب وبلاد التكرور وغيرها ، وكانت زيارتهم لهذه الأســـواق موسما للوراقين والخطاطين . وقـــد حرص الأخيرون حرصهم الشـــديد على متابعة العلماء الزائرين ونقـــل نسخ من مخطوطاتهم لبيعها للوراقين ، ويقوم الأخيرون بدورهم ببيعها فى الأســـواق ، ومن خـــلال تداول هذه النسخ من يد ليد كان الربح الوفير من تجارة الكتب(٣١٩) .

ونظرا لأهمية الكتب فى دفع الحركة العلمية ، حرص العلماء الزائرون على حمل أكبر قدر منهـــا مما يستطيعون نســـخة الى بلادهم ليراجعوها

---

(٣١٨) خطط المقريزى ، ج ٢ ص ٤٠٤ : د. عبـــد اللطيف ابراهيم مكتبة فى وثيقة ، ص ١٢

(٣١٩) د. محمد النحاس : اسس التربية ، ص ١٤٧

ويدرسونها ويعلقوا عليهـا ثم يتدارسونها مع طلابهم وبهذا تثبت فى قلوب وعقول الحفاظ ومنهم تنتقل الى غيرهم بالسـماع حينا وبالنقل حينا آخر . وبذلك تنتقل الأفكار من بلد الى بلد فى قوافل هولاء العلماء الرحالين الجوابين الى كافة انحاء الدولة الاسلامية .

وكانت هـذه الأسواق بالاضافة الى بيع وشراء الكتب مجالا واسعا للاجتماعات العلمية بين العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وغيرهم لعرض ما لديهم من نفائس المخطوطات والنقل منها ، ولنشر ماابتدعته قرائحـهم من القول المـأثور ، ونضيف ايضـا أنهـا كانت مكانا للتنافس العلمى والمطارحات العلمية والأدبية والتبـادل الثقافى بين مصر وجيرانها .

وكان التجـار ينخرطون فى تنظيمات مهنية خاصـة بهم ، ويؤلفون نقابات بحسب السـلع أو الأسواق او المدن ، ولكل طائفـة رئيسهـا أو نقيبهـا(٣٢٠) .

* * *

---

(٣٢٠) الفنون والوظائف ، جـ ١ ص ٣٣٠

رابع عشر — حوانيت الوراقين(٣٢١) :

نظرا لأهمية الكتاب فى الحركة العلمية فى العصــور الاســلامية ، حيث يبنى الخلف على آثار السلف مما لايمكن أن يتم الا فى عالم الانسان ليس غير ، ولا يمكن أن يتم هــذا البناء الا بواســطة الكتب فهى التى تعرفنا أين وقف السلف ومن هنا يجب أن نزيد نحن ، انهــا التى توفر علينــا البحث فى أن نبــدأ من جديــد فى كل ميــدان من ميــادين العلم والمعرفة(٣٢٢) .

ولمــا كانت رسالة الكتاب من اسمى الرســائل ، فهى عصارة أفكار العلماء وتجاربهم لعلمنا كيف ســموا بمشاعرنا ومداركنا الى ما يجب أن تسموا اليه من رفعة وطهر ، وتوحى الينا بما نحتاج اليه من الهام وتعلمنا الحرفة التى يجب ان نحترفهــا فى الحياة وماذا يمكن ان نفيد من تجــارب الغير فيهــا ، وماذا يمكن أن ننتفع بــه من تجارب من سبقونا ، وكيف نبعث الحياة فيما نعلم ليحيا من جــديد وننفع به أنفسنا ومن حولنا فقراءة الكتب تفيدنا فائدة غير محددة .

ومن أجل ذلك انتشرت مهنة نســخ الكتب فى حوانيت الوراقين نظرا للطلب المتزايد على المخطوطات خاصــة اذا كان مؤلفوها من الاعــلام المشــاهير ولم يقتصر طلب المخطوطات على أهــل مصر فقط بل تعداه الى ملوك الدول المجاورة . فهذا هو شاه رخ بن تيمورلنك يطلب من « السلطان برسباى » شرح البخــارى « لابن حجر العســقلانى » ، والســلوك

(٣٢١) الوراق : هو كل من يقوم بالعمــل فى صــناعة الوراقة من النســخ والتجميع والتجليد والتذهيب ثم بيع هــذه الكتب للراغبين فى شرائها من الطلاب والأساتذة وراغبى العلم والمعرفة ، وقد ارتبط عمله بنســاخ الكتب والمجلدين والمــذهبين والمــذوقين وســائر أمور الكتب والدواوين (د. حسن الباشا : الفنون والوظائف ، جـ ٣ ص ١٣٢١ . معيد النعم ص ١٣٢ : وقد أفرد ابن خلدون فصلا عن الوراقــة فى مقدمتــه ص ٤٥٣) .

(٣٢٢) العالم بين دفتى كتــاب ، تأليف الفريد ستنفورد ترجمــة د. سهير القلماوى ص ٢٤

لدول الملوك للمقريزى ، وذلك مع رسول قـــدم الى مصر بكتاب لهـــذا الغرض فى ١٤ محرم ٨٣٣ هـ — ١٤٢٩ م(٣٢٣) .

وهـــذا هو قاضى القضـــاة المناوى (ت ٨٠٣ هـ) كان لـــه عناية بتحصيل الكتب النفيسة عن طريق أحـــد اصدقائه فحصل منهـــا شـــيئا كثيرا(٣٢٤) .

بالاضافة الى مكتبات العلماء الخاصة التى يقتنى اصحابها المخطوطات الثمينة ، فهـــذا هو القاضى « نجم الـــدين يحيى بن حجى الدمشـــقى » الشـــافعى العالم كان ناظرا للجيش بمصر فلما مات (٨٨٨ هـ) وجد عنده زيادة عن ثلاثة الاف مجلد من الكتب النفيسه(٣٢٥) وهذه الكمية الضخمة من المخطوطات الثمينة دفع فيهـــا ثمنا باهظا . كل هـــذا شـــجع تجار الكتب على العمل فى هذه الصـــناعة التى تدر عليهم أرباحا خيالية ولاريب أن هـــذا أيضا كان له اثره المحمود فى النهوض العلمى وتشـــجيع حركة التأليف(٣٢٦) .

وانتشرت وكثرت دكاكين الوراقين فى أماكن كثيرة لتصـــبح أشـــبه بالمكتبات العامة يلتقى فيهـــا صفوة العلماء ليتحدثوا فى شـــئون الكتب ، كما يجتمع فيهـــا الشـــعراء والأدباء والفلاسفة والمتكلمون وتتحول مناقشاتهم الى مناظرات وندوات ومحاضرات ، وغالبا ما كان أصحاب هذه الحوانيت من المهتمين بالأدب والعلم والدين ، ومنهم من كان فقيهـــا فيجذب اليـــه محبى العلم والمعرفة(٣٢٧) .

---

(٣٢٣) نزهة النفوس والابدان ، جـ ٣ ص ١٧٨
(٣٢٤) شذرات الذهب ، جـ ٧ ص ٣٤
(٣٢٥) بدائع الزهور ، جـ ٢ ص ٢١٨
(٣٢٦) د. محمود رزق سليم عصر ســـلاطين المماليك جـ ٢ مجلد ٣ قسم ١ ص ٦٧
(٣٢٧) د. سعد مرسى أحمد وآخر : تاريخ التربيـــة فى مصر ، ط ١٩٧١ م ص ١٦٢

وبهذا لم تقتصر على بيع الكتب والتجارة فيها ، بل كانت منتدىا يجتمع فيه صفوة العلماء والمفكرين كما كانت ايضا مدرسة لمن يرغب التعليم لفنون الكتاب(٣٢٨) .

وقد ساعد النساخ والوراقون على العمل فى هذه المهنة اتساع نطاق صناعة الورق من البردى المصرى الذى كان موجودا بكثرة فى هذا العصر على شواطىء الترع والانهار وصنع منه القرطاس الجيد بالاضافة الى استيراد انواع اخرى من الشام وبغداد وغيرها(٣٢٩) .

وانخفاض سعر الورق يفيد منه كل العاملين فى هذه المهنة من تكاليف الكتاب مما يجعل الناس يحجمون عن شرائه ، وبالتالى يتعطل من يعملون فى هذه الصناعة .

ويحدثنا الجوهرى عن تحسن اسعار الورق سنة ٨٢٣ هـ فتحسنت بالضرورة اسعار الكتب جدا ورخص الورق الشامى بعض الرخص . فبيعت الكفة منه بثلاثين درهما فلوسا الكفة خمس وعشرون فرخة(٣٣٠) . وبذلك انتشرت مهنة النسخ واتسع نطاقها وتزاحم الناس عليها ، وكان من اثر ذلك تجويد الخط العربى الذى يتحسن بالمران والدربة وكثرة الكتابة ، كما كان من آثارها ايضا وقوع التصحيف والتحريف(٣٣١) فى

---

(٣٢٨) الضوء اللامع ، جـ ٨ ص ٢٢٨ ، ٢٥٤ ، جـ ٩ ص ١٧٩

(٣٢٩) د. حسام الدين عبد الحميد : تكنولوجيا صيانة وترميم المقتنيات الثقافية ص ٩ — ١٣ ، ٢١

(٣٣٠) نزهة النفوس : جـ ٢ ص ٤٨١ والفرخة : معناها فرخ الورق

(٣٣١) التصحيف مشتق من الصحيفة ومعناه : وقوع الخطأ فى قراءتها ، والصحفى هو من يخطىء فى قراءة الصحيفة ، فلا يقرؤها على وجهها الصحيح ، أما التحريف فمشتق من الحرف والتحريف الميل ومنه القلم المحرف الذى يقط بمدية الى ناحية ، وتحريف الكلام تغييره بقراءته او كتابته على غير وجهه ، كأنك تغير منه حروفا تتغير بتغيرها معانيه ، وقد ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى « يحرفون الكلم عن مواضعه » فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ... يحرفون الكلم عن مواضعه الخ .

المخطوطات كثيرا مما يسبب انزعاج القارئ باذلا جهده اقصاه لتصحيح هذا التحريف . ومن التحريف والتصحيف ما يجعل المعنى بشعا(٣٣٢) .

ونظرا لكثرة ما وقع فى كتب التراث العربى والاسلامى من التصحيف والتحريف . نشأت صناعة التحقيق ، ليرجع المحقق النص المحرف أو المصحف الى حقيقة أصله أو اقرب ما يكون اليها وهذا بالطبع يقتضى الرجوع الى كل النسخ الموجودة المخطوط منها والمطبوع ، واتخاذ احدها عمدة أو اصلا باعتبارها فى نظر المحقق اكثر النسخ الموجودة دقة وصحة أو اقربها الى الأصل ثم يستعرض اختلاف النسخ ويرجح المحقق وجها من وجوهها) ولاجدال انها صنعة مضنية مرهقة ، تقتضى حضور الذهن وسعة الاطلاع ، وحسن تأن فى التوفيق بين النصوص المختلفة(٣٣٣) .

* * *

---

(٣٣٢)تطور الخط العربى . . .**للمؤلف** ، ص ٤٤ مرجع سبق .

(٣٣٣) عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ونشرها ، ص ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥

خامس عشر — التعليم في بيوت العلماء (التعليم الخصوصى) :

الى جانب المؤسسات التعليمية التى قامت بدورها فى العصور الأسلامية على خير وجه ، كان هنـاك نوع آخر من الدراسة غير مرتبط بالمدارس او المؤسسات التعليمية الأخرى ، وهى الدراسة بالمنازل وهذا النوع من الدراسة امتاز بالحرية اكثر من الدراسة بالمدارس ، نظرا لأن الطالب أو والده او وليه كان يختار له العلوم المناسبة كما يختار المدرسين او المؤدبين ذوى الشهرة العلمية ، كما أنها غير مقيدة بالاقامة فى مساكن المدارس أو الحضور اليها فى أوقات الدراسة المحددة . وبطبيعة الحال كان ذلك بالنسبة لأبناء القادرين من السلاطين والأمراء والأغنياء القادرين على دفع أجر المدرسة او المعلم او المؤدب وكان هذا النواع من الدراسة له اثره فى نبوغ الكثيرين من الطلبة(٣٣٤) ، وقد كان هناك الكثيرون من المدرسين الذين زاولوا هذا العمل نظرا لما كان يدره عليهم من دخل كبير وبخاصة من كان مشهورا منهم .

وقد أتاح هذا النوع من التعليم الفرصة أمام بعض الطلبة لدراسة بعض العلوم التى لاتدرس فى المدارس كالحساب والمباشرة(٣٣٥) .

كما كان هذا النظام ذا فائدة كبيرة للمدرسين حيث عملوا فى كثير من الوظائف بسعاية آباء طلبتهم(٣٣٦) .

ولم تكن ديانة المدرس حائلا له عند مزاولة هذه المهنة ، فكان البعض يحضرون المدرسين من النصارى لتعليم ابنائهم العلوم غير الدينية(٣٣٧) .

---

(٣٣٤) صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣٣١

(٣٣٥) السخاوى ، ج ٨ ص ٣٠٠ ، ٣٠١

(٣٣٦) الضوء اللامع ، ج ١ ص ٢٨٨ ، ابن الصيرفى : انباء الهصر ، ص ١٩٣

(٣٣٧) أنباء الغمر ، ج ١ ص ٤٢٠ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ص ٣٠٤

تعـليم المرأة :

ويدفعنا الحـديث عن التعليم فى البيوت والمنـازل الى الحديث عن تعليم المرأة : فان المصـادر والمراجع لم تحدثنا صراحة عن التحاق امرأة بكتاب أو مدرسـة أو غيرها ، ولم توجد مدرسة واحدة سمحت بتحلق المرأة بهـا ، صحيح أنه وجدت بعض الربط خاصـة بالنساء ولكنه ليس هنـاك ما يدل حقيقة على أنهن كن يشتغلين فيهـا بالعلم وطلبه غالبا . ولهـذا يمكن القول أن معظم التعليم الـذى تلقتنه المرأة فى العصـور الاسـلامية كان قاصرا على المنازل تقريبا . والمصـادر تخبرنا عن أسماء عـدد من النسوة اللاتى بلغن شهرة ودرجة عظيمة فى العلم ، لكن كان معظمهن من بيوت اشتهر معظم اربابهـا بالعلم مثل بيت السبكى والبلقينى والتتائى وغيرهم(٣٣٨) .

وكان أهل الفتـاة يلقنونها العلم الى درجة معينة ، ثم يحضرون لها من تأخذ العلم عنهم من المدرسين ، لذلك نجد فى غالبية كتب التراجم أن فلانة أحفظها أبوها ودرس لها كذا أو درست على عمتها وجودت الخط على عمها أو جدها . ثم أسمعها أبوها أو أقراها على فلان حتى اذا سمعت عن شخص آخر يكون ذلك بقراءة أحد الأقارب(٣٣٩) .

لكن كان هنـاك بعض الرجال ممن تخصصوا فى تعليم النسـاء ، ويظهر ذلك جليا من ترجمة محمد بن أحمد الأشمونى ، فانه لقن فى حياته جمعا من النسوة وغيرهن (٣٤٠) .

---

(٣٣٨) الدرر الكامنـة ، جـ ٢ ص ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، الأدفوى : الطالع السعد ، ص ٩٠ ، ١٢٥ ، ٢٦٩ ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ص ١١ ، ١٢ .

(٣٣٩) الدرر الكامنة ، جـ ٢ ص ٢٣٧ ، الطالع السعيد ، الضـوء اللامع : جـ ١٢ ص ٤٥ ، ١٣١ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣٤٠) الدرر الكامنة ، جـ ٤ ص ٣١٦ ، ٣١٧

سادس عشر — التعليم الحرفى أو المهنى :

بقى أن نشير الى أن هـذا النوع من التعليم ليس تقليديا فى مؤسسات لهـا مدارس معينه ، ولكنها حرف تورث عن طريق الآباء لأبنائهم غالبـا وقلما يقتحم هـذه الحرف اناس من خارجها ، حيث أن الحرف والصناعات أعمـال فنية ولها أسرار لاينبغى أن تعطى لغير الأبناء من أصحاب هـذه الحرف أو ذويهم ، ولذلك وجـدنا المصـادر المعاصرة اذا تحدثت عن أحد العلماء الذين احترفوا حرفة معينة قالت : حرفة أبيه أو حرفـة جده ثم حرفتـه .

وبكل الأسف الشـديد ليس هناك مصـادر معينة أو كتب خاصـة تتحدث عن الصـناعة أو المصـانع أو الورش الموجودة فى العصـور الاسـلامية — على مبلغ بحثنـا وعلمنـا المتواضـع — كدراسـة متخصصة بالمعنى العـام المحدود الواضـح ، ولكننا فقط نلمح ذلك ونلحظه من خلال كتب الحسبة مثل كتاب (نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى) ، و (معـالم القربة فى احكام الحسبة لابن الآخوة) ، و (معيد النعم ومبيد النقم للسـبكى) كما نلحظها فى بعض كتب المقريزى : (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، (اغاثة الأمـة بكشف الغمة) و (رسـالته فى الموازين والمكاييل) كما نلحظ ذلك فى بعض كتب التراجم (الضوء اللامع لأعيان القرن التاسع للسخاوى) وغير ذلك .

ولكن هـذه الكتب لاتتكلم بالتفصـيل عن هذه الحرف وكيفية تعليمها ومن احترفهـا .. فمثلا يذكر لنا السخاوى فى الضوء اللامع تراجم نسبت الى حرف من(٣٤١) مثل : الحطاب — الحكيم (الطبيب) الحمامى ، الحراز ، الخواص الخياط ، العطار ، القصاب ، الكحال ، اللتات ، الدهان(٣٤٢) السكرى ، السميط ، المقصاتى ، الخشاب ، الرسام .

وقد ذكر لنا السـخاوى خلال مرجعه (الضوء اللامع) المكون من اثنى عشر جزءا ، ذكر بعض حرف وصـناعات عديدة مثـل : الأدمى ،

---

(٣٤١) راجع الضوء اللامع جـ ١١ ص ٢٣٤

(٣٤٢) نفس المرجع جـ ٦ ص ١١٠ ، ١٨٤

الامشاطى ، الدقاق ، السكاكينى ، السيوفى ، الشرابيى ، الصابونى ، الصائغ ، الغزولى ، الفاخورى ، القبانى ، والقزاز ، القطان ، الكلوتاتى ، الدواليبى ، الخراط ، الناسخ ، الوراق ، والعنبرى ، البزاز ، الزركشى ، الطحان ، المجلد ، المذهب ، النقاش ، النشار ، الجوهرى ، الاباريقى ، النشاشيبى ، السروجى ، القواس ، والثلاثة الأخيرة من الصناعات الحربية ، وذكر غير ذلك ولكنه (السخاوى) لم يخبرنا عنهما بما يروى غلة الباحث الا قوله : أن فلانا قد مهر فى صنعة كذا ، أو تكسب من صنعة كذا .

ومما هو جدير بالذكر ان بعض كتب الفروسية هى الوحيدة التى تحدثت عن بعض الصناعات الحربية (آلات الحرب) ولكنها ايضا لاتعطينا صورة كاملة واضحة عن كنه وحقيقة هذه الصناعات وطرق عملها بما يروى عطش الباحث .

* * *

بقى أن نشير اخيرا الى تعلم الطب كحرفة أو مهنة من المهن العملية ، وكان ذلك يتم فى المستشفيات الاسلامية ، وهى ما يطلق عليهـا فى العصـور الاسلامية اسم :

البيمارســـتانات :

وهى جمع بيمارستان بفتح الراء وســكون السين كلمة فارســية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو مصـــاب أو عليل ، و (ستان) بمعنى المكان او الدار ، فهى تعنى كلهـا (دار المرضى) ثم خففت الكلمة فصارت (مارستان)(٣٤٣) .

وكان البيمارستان دار علم يتعلم فيهـا طلاب الطب الذين رغبوا هذا النوع من الدراســة حيث يجتمعون مع كبير الأطباء (يشبه رئيس القسم فى وقتنا الحاضر) فى ايوان المــارستان (يشـبه قاعة المحاضرات الكبيرة الآن) يدرســون حالات المرضى بعـد المرور عليهم فى مكانهم ، ثم تجرى المناقشــات الطبية والمباحثات بين الأستاذ والطالب والقراءة فى الكتب الطبية ، ثم يصحب الأستاذ طلابه معه الى داخل المستشفى ليقوم باجراء الدروس العلمية لطلابه على المرضى بحضورهم وهو ما يشبه اليوم ما يقع فى المستشفيات الملحقة بكليات الطب(٣٤٤) .

اى أن المــارستانات لم تكن مجرد مستشفيات يقصدها المرضى للعلاج املا فى الشــفاء ، ولكنها كانت دار علم يعلم فيهـا الأساتذة الطب ويدرسون لطلابهم الحالات التى تعرض عليهم .

يقول ابن ابى اصــيبعة وهو ممن تخرج مـن المــارستان النورى بدمشــق .

---

(٣٤٣) احمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الاســلام — المطبعة الهاشمية — دمشق سنة ١٩٣٩ هـ ص ٤

(٣٤٤) د. سعيد اسماعيل على : معــاهد التعليم الاســلامى — مرجع سبق — ص ٢٢١

« كنت بعد ما يفرغ الحكيم « مهذب الـدين » والحكيم « عمران » من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وانا معهم ، اجلس مع « الشـيخ رضى الـدين الرحبى » فـأعاين كيفيـة اسـتدلاله علـى الأمراض ومداواتهـا »(٣٤٥) .

وليس لأحـد أن يتعاطى صنعة الطب الا اذا درس حتى يبلغ الغاية فى الطب ويؤدى فيه امتحانا على شـيوخه حتى يمنحوه اجازة فى الطب النظرى او العملى أو كليهما ، فاذا أراد ممارسـة العلاج فعليه أن يتقدم برسالة فى الفن الذى يريد ممارسته (كحالة أو جراحة أو باطنيا .. الخ) وهى من تاليفه أو تاليف غيره ، وله عليها شروح وتعليقات واضافات . فيمتحنه رئيس الأطباء ويسـأله عن كل ما فيها مما يتعلق بالفن ، فاذا وفق فى الاجابة أجازه الرئيس بمزاولة مهنة الطب ....

اول من انشأ البيمارستانات فى الاسـلام :

اول من انشـأها هو الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى ، وكان ذلك بدمشـق سنة ٨٨ هـ وفى هـذا المـارستان اهتم بالمرضى ، فعزل المجذومين فى أماكن خاصـة بهم ، واوقف عليهم من يهتم بهم من الممرضين وعين لكل أعمى قائدا يقوده ويهديه السـبيل ، ويقول المقريزى فى خططه : ان الوليد عين الأطباء بمارستانه هذا واجرى عليهم الأرزاق(٣٤٦) .

ومن المـارستانات التى انشـئت بعد ذلك مارستان انشأه فى بغداد هارون الرشـيد الخليفة المشهور وأنشـأ البرامكة مارستانا باسـمهم وولوا عليه طبيبا هنديا ، ومارستان المغافر بمصر انشـأه الفتح بن خاقان وزير المتوكل العباسى .

---

(٣٤٥) د. مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ص ١٤٦ مرجع سبق .

(٣٤٦) خطط المقريزى جـ ٤ ص ٢٥٨

ولم ينقض القرن الثالث الهجرى حتى بنيت المـــارســـتانات فى مكة والمدينة وغيرها وفى ســـنة ٣٠٦ هـ أنشـــأ المقتدر العباسى المـــارستان المقتدرى ، أنفق عليه من ماله فى كل شهر مائتى دينار وتوالى انشـــاء المـــارستان فى كل البلاد الاسلامية .

أشـــهر المـــارستانات

١ — مارستان أحمد بن طولون بمصر سنة ٢٥٩ هـ :

قال القلقشندى(٣٤٧) : « وأما البيمارستان فأول من أنشأه بالفسطاط أحمد بن طولون فى تسع وخمسين ومائتين وأنفق عليه ستين الف دينار » .

وجاء فى النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى بصدد هذا المـــارستان أن ابن طولون « ركب مرة الى الصـــعيد فلما سار بالبرية انخسفت الأرض برجل فرس بعض أصـــحابه فى وسط الوحل ، فوقف احمد بن طولون عليه فوجده مطلبا (كنزا) واسعا ، فأمر بحمله فحمل منـــه من المـــال ما قيمته ألف دينار ، فبنى منـــه هذا الجامع والبئر بالقرافة الكبرى والبيمارستان بمصر الـــذى أمر احمد بن طولون بانشائه ســـنة ٢٥٩ هـ للمرضى فى أرض العسكر . وشرط ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك وانشـــأ حمامين لـــه أحدهما للرجال وآخر للنساء »(٣٤٨) .

وقد الحق ابن طولون بمارستانه هـــذا خزانة كتب ضـــخمة يقدر ما فيها بما لايقل عن مائة ألف مجلد أو يزيد فى سائر العلوم .

٢ — البيمارستان المنصورى بالقاهرة ســـنة ٦٨٣ — أو ٦٨٢ هـ ١٣٨٢ — ١٣٨٣ م بناه الملك المنصـــور قلاوون الالفى على أثر نذره على نفســـه عند شفائه من مرض الم به وهو فى الشـــام حيث أعطى ادويـــة أخذت من مارستان نور الدين(٣٤٩) وقـــد زار هذا المـــارستان فأعجب

---

(٣٤٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ٣٤٣

(٣٤٨) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٤٣

(٣٤٩) فليب حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٨٠٢ دار الكشاف بيروت سنة ١٩٦٥ م .

به ، ولما عاد الى مصر وولى ملك الدولة شرع فى الوفاء بنذره ، ووقع اختياره على الدار القبطية وغيرها لانشاء المارستان ومدرسة وتربة ، وعهد فى تنفيذ هذا الى المهندس علم الدين سنجر الشجاعى .

ويذكر ابن اياس سببا آخر لبناء المارستان المنصورى ، وهو أن قلاوون أمر مماليكه بوضع السيف فى رقاب العوام لامرما استوجب ذلك حيث تغير خاطر السلطان عليهم فانهم خالفوا أمره فى شىء فعلوه بجهلهم ، فلعب السيف فيهم ثلاثة أيام قتل فيها مالا يحصى كثرة ، وقد راح الصالح بالطالح وربما عوقب من لم يجن ، وقد طلع المشايخ والقضاة الى السلطان عندما زاد الأمر عن الحد وشفعوا فيهم فعفا عنهم وكف القتل ، وبعد مدة راق خاطر السلطان وانب ضميره وندم على فعلته هذه : وبنى هذا المارستان ورتب له الرواتبمن الأحباس التى حبسها عليه من أنواع الاحسان والبر ، وفعل من الخيرات مالم يفعله غيره من الملوك ليكفر عن ذنبه وجرمه لعل « الحسنات يذهبن السيآت »(٣٥٠) .

ولما كمل بناء هذا المارستان شاهده السلطان وحاشيته والقضاة والعلماء ، ثم شرب من دوائه قدحا وقال : وقفت هذا على مثلى فمن دونى ، وأوقفه على الملك والمملوك والجندى والأمير والصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى ، ورتب به العقاقير والأطباء .

ويذكر المقريزى(٣٥١) ، ان السلطان قد افرد لكل طائفة من المرضى موضعا ، فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها ، وأفرد قاعة لمرضى الرمد وقاعة اخرى للجراحة ورابعة لأمراض الاسهال ، وقاعة اخرى للنساء ، ومكانا للمبرودين(٣٥٢) قسم منه للرجال وآخر للنساء ، وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن .. وافرد مكانا لطبخ الطعام ومكانا آخر لتركيب الأدوية والأشربة والادهان والسفوفات

(٣٥٠) بدائع الزهور ج ١ ص ١١٦ .
(٣٥١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٦٠ .
(٣٥٢) المبرودين : الذين أصابهم البرد (المؤلف) .

والمعاجين والاكحال وغيرها . وجعل مكانا يفرق منه الادوية والاشربة ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء درس الطب وهذا هو ما يهمنا فى هذه الدراسة وهو استخدام المارستان فى النواحى التعليمية .

وقد استمر هذا المارستان يؤدى رسالته العلمية والعلاجية الى أيام الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٨٩٨ م وقد وصفه المسيو « جومار » فقال « انشىء فى القاهرة منذ خمسة قرون او ستة عدة مارستانات تضم الأعلاء والمرضى والمجانين من الجنسين ، ومرستان القاهرة هذا لايزال اكثر شهرة من مارستان دمشق وقد كان فى الأصل مخصصا للمجانين ثم جعل لقبول نوع من الأمراض وصرف عليه سلاطين مصر مالاوافرا لكل مرض قاعة وطبيب خاص ... ويقال ان كل مريض كانت نفقاته فى كل يوم دينار . وكان المؤرقون من المرضى يعزلون فى قاعة منفردة يشنفون فيها آذانهم بسماع الحان الموسيقى الشجية ، او يتسلون باستماع القصص يلقيها عليهم القصاص . وكان المرضى تمثل امامهم الروايات المضحكة . وكان يعطى لكل مريض حين خروجه من المارستان خمس قطع من الذهب حتى لايضطر للالتجاء الى العمل الشاق فى الحال ... »(٣٥٣) .

والأساس فى المارستانات هو دراسة الطب العملى ، فكان الطبيب يمر على المرضى لعلاجهم ومن حوله الطلبة يلاحظون ما يقوم به الطبيب من العلاج او العمليات الجراحية .

وان الانسان ليتملكه العجب والدهشة من وجود مثل هذه المؤسسة العلاجية الخيرية فى تلك العصور البعيدة والتى تضارع بل تفوق اعظم المؤسسات العلاجية الخيرية فى العصر الحديث مما يعد مفخرة من مفاخر الاسلام(٣٥٤) .

---

(٣٥٣) تاريخ المارستانات فى الاسلام — مرجع سبق — ص ١٠١ .

(٣٥٤) أشرنا الى هذا المارستان اشارة مقتضبة عند حديثنا عن مدرسة الناصر محمد بن قلاوون وذكرناه هنا مرة اخرى نظرا لحديثنا عن الحرف والصناعات العملية ، والطب غالبا من الحرف والصناعات التى تمارس عمليا بعد الدراسة النظرية .

٢ — البيمارستان المؤيدى بالقاهرة سنة ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م :

شرع السلطان « المؤيد شيخ المحمودى » فى بنائه فى أول جمادى الآخرة سنة ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م واسند عمارته للمعلم (المهندس) ابن عمر الطبلونى فعمره فى مدة قصيرة ، وقرر السلطان فيه حكماء وكحالين وجرائحية وخدما للمرضى وغير ذلك ، وجعل الانفاق والصرف عليه من ريع وقف جامعه المؤيدى بباب زويلة(٣٥٥) .

وبالطبع كان هناك اطباء ولهم رؤساء يدربونهم على الطب العملى فاذا فرغوا منه جلسوا يراجعون ذلك نظريا فى احدى قاعات المارستان .

* * *

(٣٥٥) نزهة النفوس ج ٢ ص ٤٢٨

الفصل الثالث

المدرسون والطلاب

المدرس وشروطه(٣٥٦) :

المدرس هو من يقوم بتدريس العلم وتسهيل طرقه وحل معضله وغامضه لطلابه ليخرجهم من ظلمات الجهل الى نور العلم ٠

وهى مهمة عظيمة نظرا لكونها من مهن الأنبياء والمرسلين والعلماء ورثة الأنبياء ، ونظرا لخطر هذه المهمة الملقاة على عاتقهم وتبليغ رسالة الله الى عباده عن طريق تخريجهم للائمة فى المساجد والوعاظ والقضاة وغيرهم ، اشترط فيهم شروطا منها :

أن يكون المدرس الذى يقوم بمهمة توصيل العلم الى طلابه مداوما على مراقبة الله تعالى فى السر والعلن فى جميع حركاته وسكناته واقواله وافعاله فانه أمين على ما اودع من العلوم ٠

وان يصون العلم كما صانه علماء السلف وان يشرفه ويعزه ، فلا يذله بذهابه الى غير اهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة أو حاجة الى من يتعلمه منه منهم وان عظم شأنه وكبر قدره ، قال الشاعر :

ولو ان اهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

وأن يتخلق المدرس بالزهد فى الدنيا والتقلل منها بما لا يضر بحاله او عياله ، وأن ينزه علمه عن جعله سلما يتوصل به الى الأغراض الدنيوية من مال أو جاه أو سلطان أو شهرة أو تقدم على اقرانه ، وان يتنزه عن دنى المكاسب ورذيلها طبعا وعن مكروهها عادة وشرعا كالدباغة والحجامة والصياغة والصرافة وكذلك يتجنب مواضع التهم وان بعدت ولا يفعل

---

(٣٥٦) راجع كتاب : أعمال مجلس الأزهر الأعلى للشيخ عبد الكريم سلمان ، محمد الأحمدى الظواهرى : العلم والعلماء ونظام الدراسة بالأزهر ٠

شـيئا يتضمن نقص مروءته ، وأن يحـافظ على القيام بشعائر الاسـلام وظواهر الأحـكام كاقامة الصلوات الجماعات فى المساجد والأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر ، وافشاء السـلام للخواص والعـوام الصغار والكبـار ، والصبر على الأذى صادعا بالحق عند الحـكام باذلا نفسه لله تعـالى لا يخاف فى الله لومة لائم ، وأن يحافظ على المندوبات الشرعيـة القوليـة والفعلية ، فيلازم تلاوة القـرآن وذكر الله تعـالى بالقلب واللسـان ٠

وأن يعامل الناس بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه وافشاء السـلام واطعام الطعام وكف الأذى عن الناس واحتماله منهم وكظم الغيظ والايثـار والانتهاء عن الاستئثار والانصاف وترك الاسـتنصاف ، وشكر التفضـل والتلطف بالفقراء والسعى فى قضاء الحاجات وبذل الجـاه فى الشفاعات والرفق بالطلبة واعانتهم وبرهم والتحبب الى الجيران والاقرباء ٠٠٠

وان يطهـر باطنه وظاهره من الأخـلاق الرديئة كالغـل والحقـد والحسد والبغى والعـدوان والغضب لغير الله والغش والعجب والكبر والريـاء والبخل والخبث والبطـر والطمع والضجر والخيـلاء والمداهنة والتزين للناس وحب المـدح بما لم يفعـل والعمى عن عيوب النفس والانشـغال بعيوب الخلق ٠٠٠ ويعمـر قلبه بالأخـلاق المرضية كالاخـلاص ومداومة التـوبة والتقوى والصبر واليقـين والرضـا والقنـاعة والزهـد والتـوكل والتقـوى والصـبر واليقـين والتفـويض وسـلامة الباطـن وحسن الظـن والتجـاوز وحسن الخلق وشـكر النعمـة والحيـاء من الله تعـالى ومن النـاس ومحبـة الله تعـالى ، ٠٠ وألا يستنكف الاسـتفادة ممـا لا يعلمـه ممن هـو دونه سـنا أو منصبا أو نسبا ، بل يكون حريصـا على الفائدة حيث كانت والحكمة ضـالة المؤمن يلتقطهـا أنى وجـدها ، فان الرجل اذا ترك التعـلم وظن أنه استغنى واكتفى بمـا عنده فهو أجهـل ما يكون ، قال الشاعر :

ليس العمى طـول السؤال وانمـا تمام العمى طول السكوت على الجهل

وان يشتغل المدرس بالتأليف والتصنيف والجمـع والمطالعة والمراجعـة والتفتيش والتنقيب ، وغير ذلك من دقائق العلوم وحقائق الفنون(٣٥٧) ٠

---

(٣٥٧) راجع : تذكرة السامع والمتكلم فى ادب العالم والمتعلم ص ١٥ — ٣٠

آداب المدرس فى درســـه :

اشترط بعض علمــاء التربيــة على المدرس قبــل ذهابه الى الدرس وجلوســه للطــلاب ، عــدة شروط اعتبروها آدابا يجب أن يلتزم بهــا ، اكراما للحلقة العلميــة التى تحفهــا الملائكة ويذكر الله متحلقيهــا فيمن عنده ومن هذه الآداب كمــا ذكــر ابن جماعة :

ينبغى على المدرس عنــد عزمه على مجلس التــدريس ان يتطهر من الحــدث والخبث ويتنظف ويتطيب ويلبس من احسن ثيــابه اللائقــة به بين أهل زمانه قاصــدا بذلك تبجيل الشريعة وتعظيم العلم ، و ...

واذا خرج من بيته دعــا بدعاء صح عن النبى ﷺ وهو (اللهم انى أعــوذ بك من أن اضل أو اضل أو ازل أو ازل او اظلم او اظلم او اجهــل او يجهل على ، عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك) ثم يقول باسم الله حسبى الله توكلت على الله ولا حــول ولا قــوة الا باللــه العــلى العظيم ، اللهم ثبت جنــــانى ، وادر الحــق على لســـانى .

وأن يجلس بارزا للجميــع مستقبل القبلة ويوقر أفاضلهم بالعــــلم والسن والصــلاح والشرف ويرفعهم على حسب تقــدمهم فى الامامة ، ويتلطف بالباقين ويكرمهم بحسن السلام وطلاقة الوجه ومزيد الاحــترام .

وألا يرفع صوته زيادة عن الحاجة ولا يخفضه خفضا لا يحصــل به المراد ، وأن يصون درسه عن اللغط واختلاف جهــات البحث ، وأن يزجر من تعــدى فى بحثه أو ظهــر منه لجج ولدد فى بحثه أو سوء ادب أو ترك الانصاف بعــد ظهــور الحق وأن يلازم الانصاف فى بحثــه وخطابه ويســمع الســؤال من مورده على وجهه وان كان صغيرا ولا يترفــع عن سؤاله منه فيحــرم الفائدة ، واذا لم يعــرف الاجــابة قال لا أدرى . وعن بعضـهم « لا أدرى نصف العــلم » وأن يتودد لغريب حضر عنده وينبسط له ليشرح صدره ، فان للقــادم دهشة ، وأن يقصد بتعليم طــلابه وجه الله ونشر العــلم واحيــاء الشرع ودوام ظهور الحــق وخمول الباطل ، وأن يذكر الطلاب ويحثهم ويحمسهم على طلب العــلم بذكر ما أعده الله للعلماء من منازل الكــرامات والا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم

على بعض عنده فى مودة(٣٥٨) أو اعتناء مع تساويهم فى الصـفات من سـن وفضيلة وأن يراقب أحوال الطلاب ظاهرا وباطنا وغـير ذلك ٠

المكانة الاجتماعية للمدرسـين :

كان للمدرسـين عموما فى العصـور الاسـلامية مكانة مرموقـة سامية لدى الحكام والشعب على السواء وقـد بلغ من سمو مكانتهم انه كان يصـدر بتعيينهم مرسوم من بعض السلاطين ، ويخلع عليهم الخلع الفاخرة ، وهـذا يبين لنـا المكانة الممتازة التى يتمتعون بها(٣٥٩) ٠

وبلغ من المكانة الاجتماعية للمدرسين لدى الحكام انهم كانوا الواسطة بينهم وبين الشعب ، لما لهم من هيمنة وسلطة روحية على الناس ، وزادت هـذه المكانة قـوة عندما توسط العاملون بالتدريس لفض النزاع والخـلاف الذى كان كثيرا ما يحـدث بين الأمراء والسلاطين ، فكانوا يقـدمون لهم النصح أحيانا ، ويغلظون لهم القـول أحيانا اخرى ، وكان السـلاطين يجالسونهم ويبادلونهم الرأى وينزلون عند حكمهم ويسمعون لمشورتهم ، ويشاركونهم فى أفراحهم وأحزانهم(٣٦٠) ويعـودونهم فى مرضهم أو يشتركون فى تشـييع جنائزهم بعـد وفاتهم كما حـدث عندما توفى الشيخ « أكمـل الدين البابرتى الرومى » فقـد شيعه السلطان « برقـوق » ماشيا على قـدميه أمام النعش ، وظـل واقفـا على قبره حتى تم دفنـه »(٣٦١) ٠

عـلاقة المدرسين بعضهم مـع بعض :

كانت العلاقة بين المدرسين كعلاقة الناس بعضهم مع بعض ، وكـكل المجتمعات الناس عموما فيهم الصالح والطالح ، والمسألة نسبية عموما حيث

---

(٣٥٨) نفس المرجـع ص ٣٠ ــ ٦٦ ٠

(٣٥٩) المقريزى : السلوك حـ ٤ ق ١ ص ٤٩٣ ، ابو المحاسن : حوادث الدهـور حـ ١ ص ٢٩ ٠

(٣٦٠) الضوء اللامع حـ ٩ ص ١٧٣ ، بدائع الزهـور حـ ٢ ص ١٥٨ ، أبو المحاسن : حـوادث الدهـور حـ ٣ ص ٥٥٥ ٠

(٣٦١) النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ٢٣٩ ، المنهل الصافى حـ ٥ ص ١٩٦ ٠

يكون الصفاء بين الاخـوان ثم ينقلب هـذا الصفاء الى كدر وبعـد مدة يحـدث الصـفاء وهكذا ٠

فالعلاقة بين المدرسين لم تكن على صفاء دائم لأن دوام الحال من المحال ، بل كان يشوب هـذه العلاقات احيانا منازعات ومخاصمات جر اليها التنافس على الوظائف وهـو أهم الأسباب ، وهناك أسبابا اخرى كسبب سكنى البيوت المخصصة لبعض المدرسين(٣٦٢) وبسبب المكانة التى يصل اليها بعضهم ، وبسبب سطـو وسرقة البعض مؤلفات البعض الآخر ونسبتها اليه(٣٦٣) وغـيرها ٠

وقـد وصل الصراع على الوظائف حـدا كبيرا لدرجـة أدت الى حبس بعضهم تعصبا للآخر ، فمثلا العلامة « السخاوى » عنـــدما حاول التدريس بالمدرسة الكاملية باذن من السلطان « قايتباى » فى ذى القعـدة سنة ٨٧٥ هـ سنة ١٤٧١ م نجـد الأمير تمر الحاجب يتعصب ضـده ويمنعه(٣٦٤) ٠

وليس معنى ذلك أن حياة المدرسين وعلاقاتهم ببعضهم كانت تدور فى فلك النزاع والتخاصم بل نجـد الكثير من المدرسين الذين زهـدوا فى الوظائف تنـازلوا عنها لطلبتهم او لزملائهم ، كما حـدث من العـلاء القلقشندى الذى عين للتدريس بالمدرسة الخشابية فاستعفى من ذلك لعلمه ان « البلاقنة » لهم فيها نحـو ستين سنة(٣٦٥) كما أن بعض المدرسين كان يزهـد فى اخـذ الأجرة عن التدريس ويقوم به احتسابا لوجـه الله تعالى مكتفيا بالسكنى فى المدرسـة فقط(٣٦٦) ٠

كيفية تخريج المدرسين وتعيينهم فى الوظائف :

كان طالب العلم يجلس فى حلقات العلم لدى الشيوخ حتى يتقن العلوم التى يدرسها سواء كان ذلك فى مسجد أو مدرسة أو خانقـاه او غيرها ، وكلما

---

(٣٦٢) الضوء اللامع حـ ١ ص ١٧٥ ، التبر المسبوك ص ٢٧٤ ٠
(٣٦٣) العيدروس : النور السافر ص ١١٣ وما بعـدها ٠
(٣٦٤) ابن الصيرفى : أنباء الهصر ص ٢٨٣ ٠
(٣٦٥) أبو المحاسن : حـوادث الدهـور ج ١ ص ٥٠ ٠
(٣٦٦) ابن دقماق : الانتصار حـ ٤ ص ٩٥ ـ ٩٦ ٠

أتم علوم مرحلة من مراحل التعليم انتقل الى علوم المرحلة التالية بعـد امتحان دقيق من شيوخه فاذا انتهى طالب العلم من مراحل التعليم كلها بمـا فيهـا المرحلة العالية ، ووجـد هـذا فى نفسه القـدرة على التدريس طلب من شيوخه امتحانه واعطائه الاذن بالتدريس فى المسجد أو المدرسة التى ينوى التدريس بهـــــا ٠

وحينئذ يحـدد له شيوخه قطعة من كتاب أو عـدة كتب ليستذكرها جيدا فى مدة معينة ، وفى يوم الامتحان ، يلقى هـذا الطالب على زملائه أمام شيوخه « تصـديرا » اى محاضرة ، يبدئها بحمد الله والبسملة والحوقلة ويدعـو لمشايخه وللحاضرين ولجميع المسلمين ، ثم يذكر المراجع التى رجع اليها فى درســه هـذا ، ثم يدخـل فى درســه متدرجا من السهل الى الصعب حتى ينهى درسه ويفتح للطلاب باب الأسئلة ، ويوســع صـدره لمـا ينزل عليه من وابل الأسئلة التى يوجهها الطلبة اليه بقصـد التعجيز ، فاذا نجح فى ادارة الحوار وضبط الطلبة والاجابة المقنعة على الأسئلة الموجهة كان ذلك بالنسبة اليـه نجاحا وعلى شيوخه أن يعطوه الاجازة العلمية المطلوبة ٠

واذا لم يوفق فى الاجابة وفشل فى السيطرة على الطلاب وثارت الغوغاء فعليه أن يلزم الحلقة ليشتغل بطلب العلم مع زملائه هؤلاء ٠

ولدينا محاضرة أو تصـديرا للعلامة السيوطى ألقاه بجامع شيخون بخط الصليبة ليتخرج به مدرسا ، وكان ذلك أمام جمع من الشيوخ والأفاضــل ، والتصـدير يقـع فى اثنتين وخمسين سطرا وهـو يعطينـا صـورة جليـة عن تخريج الأساتذة فى العصور الاسلامية الزاهرة ، ونظرا لندرة هـذا التصـدير آثرنا نشره بالكامل فى هـذا الكتاب ٠

تصــدير الامام جــلال الدين السيوطى(*) :
الذى القاه امام لجنــة اختباره ليحظى بدرجــة التدريس :

السيوطى : هــو العلامة : جــلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر ابن محمد بن سابق الدين ابى بكر بن عثمان بن محمد خضر بن ايوب بن محمد بن الشيخ همام الدين الخضيرى السيوطى الشافعى المسند المحقق المدقق صاحب المؤلفات النافعة الفائقة .

ولد فى أسرة ينتهى نسبها الى الشيخ همام الدين الخضيرى نسبة الى محلة ببغـداد تسمى الخضيرية(٣٦٧) وجاء هــذا الشيخ المتصوف الى أسيوط فى عهد الأيوبيين ترجيحا ، رحــل والد السيوطى الى القاهرة ٠

وقــد عنى والده بتعليمه عناية كبيرة ، فحفظه قــدرا كبيرا من القرآن ، واستصحبه الى مجالس العلامة ابن حجر العسقلانى فى الحــديث ، وقــد اختص بالرعاية والعناية — بعــد وفاة والده — من العلامة الكمال بن الهمام ، ونجح هــو وغيره فى تقريره على وظيفة والده فى تدريس الحــديث بالجامع الشيخونى فعاش — رغم يتمه — ناعم البال ٠

وقــد ولــد العلامة السيوطى عام ٧٤٩ هـ ١٤٤٥ م وتوفى عام ٩١١ هـ ١٥٠٥ م ٠

وقــد بلغ شيوخه واحــدا وخمسين شيخا كما ذكر تلميذه الداودى ، أما مؤلفاته المعتبرة فقــد بلغت عــدتها نحــوا من خمسمائة مؤلف اشتهرت فى حياته فى أقطار الأرض شرقا وغربا ، اذ كان له باع طــويل فى سرعة التأليف والكتابة جعلته ينجز ما لم يستطع انجازه عشرات العلماء ٠

وقــد تنوعت مؤلفاته وتصانيفه ما بين الكبير والضخم الذى يحتوى على عــدة مجلدات وبين المتوسط الذى يحتوى على ورقات وربما ورقة واحدة ٠

(*) راجع صورته المخطوطة فى ملاحق هــذا الكتاب رقم ١ ٠

(٣٦٧) خطط المقريزى (ط بولاق) جـ ١ ص ٣١٣ ، ٣٢٠ حســن المحاضرة (ط الحلبى) جـ ١ ص ١٥٥ ٠

ومن مؤلفاته الصغيرة ذلك التصـدير(٣٦٨) الذى القـــاه بجامــــع شيخون(٣٦٩) رحمه الله تعالى امام جمع من زملائه وشيوخه وجمع من القضاة والأفاضـــــــــل ·

وهـذا التصـدير عثرنا عليه ضمن مجموعة رقم ٢٠٤ بخط العــلامة السيوطى نفسه ، وهى مودعـة الآن بمتحف مكتبة الأزهر ص ٨٠ ، ٨١ وقـد نشرنا صورة لهـذا النص لأول مرة وسيلحظ القارىء مدى الجهـد الذى قمنــا به لتوضيح بعض الكلمات الغامضة وتفسير بعض العبارات وتسهيلها وترجمة بعض الأعـلام ممـا يجعل مهمة القارىء بعـد ذلك سهلة ميسرة ان شاء الله ·

خط النص صغير خليط من القلم الفارسى والنسخ المملوكى · بعضـه منقوط وبعضه مهمل وكان حقه النقط ·· والهمزة لم تذكر مطلقا ولذلك ذكرناها تسهيلا للقارىء ، ويفصل بين الجمل الكبيرة بعضها وبعض ما اصطلح عليـه علماء وكتاب عصر السيوطى (وقفة كاتب) وهى عبارة عن دائرة فى وسطها

---

(٣٦٨) التصـدير هـو : ان يتصـدر العالم حلقة العلم ليلقى على زملائه وغيرهم محاضرة أمام بعض شيوخه الذين سيمنحونه اجازة عامـة بالتدريس أو القضاء او الفتيا او بها جميعا ·

(٣٦٩) جامع شيخو أو شيخون : هـو الأمير الكبير سيف الدين أحـد مماليك الناصر محمد بن قلاوون ·· كان يدخـل ديوانه كل يوم من أملاكـه واقطاعاته ومستأجراته بالشام ومصر مبلغ مائتى الف درهم ، وجامعه وخانقاته التى بخط الصليبة لم يعمر مثلهما قبلهما ولا عمل فى الدولة التركية (المماليك البحرية) مثل أوقافهما وحسن ترتيب المعاليم بهما ·

مات رحمه الله تعالى ليلة الجمعه ١٦ من ذى القعدة سنة ٧٥٨ هـ ودفن بالخانقاه الشيخونية بالقاهرة ·

(راجع خطط المقريزى جـ ١ ص ٣١٣ ، ص ٣١٤) · أما خانقته (بيت الصـوفية) فهى تقـابل جامعة ، وموضعها من جملة قطائع ابن طـولون كانت مساحتها فـدان تقريبا ، وقـد رتب بها أربعة دروس للمذاهب الأربعـة ودرسا للحـديث ودرسا للقراءات السبع وجعل لكل درس مدرسا ومعه جماعة من الطلبة ورتب لهم يوميا الخبز واللحم وفى الشهر الحلوى والصابون والزيت :

نقطة ، ذكر السيوطى أحيانا بعض الكلمة فى آخر السطر وبعضها الآخر فى اول السطر الذى يليه ، ويقع هـذا التصـدير فى اثنين وخمسين سطرا · وبعض كلمات النص غير واضحه تحتمل اكثر من قراءة ولذلك اجتهـدت رأيى ووضعتها بين قـوسين مربعين وبعض كلمات التصـدير وأرقامه كتبت باللون الأحمر أما التصـدير فقـد كتب معظمه بالمـداد الأسود ونلاحظ أن العلامة السيوطى — رضى الله عنه — ختم التصـدير بشىء من علم التصوف لم نعثر على جزئه · نسأل الله التوفيـق ·

قال الامام رحمه الله :

تصـدير مبارك القيته يوم أجلست للتدريس بجامع شيخو(٣٧٠) رحمه الله تعالى — بحضرة شـيخنا قاضى القضـــاة شـــيخ الاســـلام علم الدين البلقينى(٣٧١) وجماعة من القضاة والأماضل وذلك يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة سنة ٨٦٧ هـ(٣٧٢) وقـد مضى من عمرى ثمانى عشرة سنة واربعـــة أشهر وثمانية(٣٧٣) ايام · الحمد لله طالعت على هذا التصدير الكشاف(٣٧٤) وتفسير الامام الرازى(٣٧٥) وتفســـير الامام بن العربى(٣٧٦) والبحر لأبى

---

(٣٧٠) هـذه الجملة كتبت باللون الأحمر فى الأصل ·

(٣٧١) نسبته الى « بلقينة » احـدى قرى مركز المحلة الكبرى طريق المحلة طنطا ، وهى من القرى الشهيرة بمحافظة الغربية ولو لم تنجب الا شيخ الاسلام البلقينى لكفاها فخرا · راجع (التحفة السنية ص ٧٣) ·

(٣٧٢) عمر هـذا التصـدير اذن ٥٣٦ ست وثلاثين وخمسمائة سـنة تقريبـــا الآن ·

(٣٧٣) لانه ولد فى القاهرة ليلة مستهل رجب سنة ٨٤٩ هـ ٣ أكتوبر سنة ١٤٤٥ م تقريبـا ·

(٣٧٤) هـو التفسير العظيم لمؤلفـه جار الله ابو القاسم محمود بن عمر ابن محمد الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ بجرجانية خـوارزم ·

(٣٧٥) هـو التفسير المسمى « مفاتيح الغيب » مؤلفـه فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى المتكلم الأشعرى المشهور وهـو شافعى فى الفقه ولد سنة ٥٤٤ هـ وقيل سنة ٥٤٣ هـ ومات يوم عيد الفطر سنة ٦٠٦ هـ ولم يتم تفسيره فأتمـه غـيره ·

(٣٧٦) هـو الشيخ محيى الدين محمد بن على الطائى الأندلسى الصوفى المعروف بالشيخ الأكبر مات سنة ٦٣٨ هـ ·

حيان(٣٧٧) وأسباب النزول للواحـدى(٣٧٨) وتفسير السـجاوندى(٣٧٩) وينبوع الحياة لابن ظفر(٣٨٠) وصحاح الجـوهرى(٣٨١)* والخطبة الى آخر الصلاة من كلام الامام الشافعى رضى الله عنه :

« **بسم الله الرحمن الرحيم • الحمـد لله الذى خلق السموات والأرض وجعـل الظلمـات والنـور ثم الذين كفروا بربهم يعـدلون(٣٨٢)** » والحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه الا بنعمة منه توجب على مؤدى ماضى نعمه بآدائها نعمة حادثة يجب عليه شكره بها ولا يبلغ الواصفون كنـه عظمته الذى هـو كما وصف نفسه وفـوق ما يصفه به خلقـه احمده حمدا كما ينبغى لكرم وجهـه وعز جلاله واستعينه استعانة من لا حـول له ولا قـوة الا به واستهديه بهـداه الذى لا يضل به من انعم به عليه وأستغفره لمـا زلفت وأخرت استغفار من يقر بعبوديته ويعلم انه لا يغفر ذنبـه ولا ينجيه منه الا هـو وأشهد ان لا اله الا الله وحـده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله(٣٨٣) صلى الله عليه وعلى آله كما صلى على ابراهيم وآل ابراهيم أنه حميد مجيد

---

(٣٧٧) البحر المحيط فى تفسير القرآن لأبى حيان محمد بن يوسـف الغرناطى الجيانى اثير الدين ولد فى آخر شوال سنة ٦٥٤ هـ وسمع بالأندلس وافريقية والاسكندرية ومصر والحجاز وهـو شافعى يميل الى الظاهر مات فى ٢٨ صـفر سنة ٧٤٥ هـ •

(٣٧٨) هـو اسباب نزول القرآن لأبى الحسن على بن احمد الواحـدى النيسابورى مات سنة ٤٦٨ هـ وكان أستاذ عصره فى التفسير والنحو •

(٣٧٩) هـو محمد بن طيفور أبو عبد الله السجاوندى الغزنوى مات فى حـدود سنة ٤٦٠ هـ •

(٣٨٠) هـو حجة الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر المكى مات بحمـاة سنة ٥٦٥ هـ •

(٣٨١) « الصحاح فى اللغـة » للجـوهرى وهـو نصر بن اسماعيل بن حماد الجوهرى الفارابى من ائمة اللغة مات بنيسابور فى حـدود سنة ٤٠٠ هـ •

(*) وقفة كاتب ، ويستعاض عنها بنقطة تشبه النجمة* ••

(٣٨٢) آية ١ ، ٢ سـورة الانعـام •

(٣٨٣) الى هنا انتهى كلام الشافعى فى خطبة الرسالة ، راجع ص ٧ ، ٨ من خطبة الرسالة للامام الشافعى من تحرير الشيخ أحمد محمد شاكر •

ورضى الله عن السادة الصحابة اجمين وعن امامنا الامام الشافعى المطلبى وسائر الأئمة وعن سيدنا ومولانا شيخ الاسلام(٣٨٤) ووالده شيخ الاسلام وسائر مشايخنا والسادة الحاضرين وجميع المسلمين ٠

قوله سيدنا ومولانا أقول هو شيخنا علم الدين البلقينى بن الشيخ سراج الدين* ٠

أما بعد فقد قال الله تعالى (انا فتحنا لك فتحا مبينا ٠ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) الى عزيز(٣٨٥) الكلام على هذه الآية من جهات :

الأولى : سبب النزول ومكانه وزمانه ٠

الثانية : علم اللغة ٠

الثالثة : علم الاعراب ٠

الرابعة : علم المعانى ٠

الخامسة : علم التفسير ٠

---

(٣٨٤) شيخ الاسلام هو علم الدين صالح بن الشيخ سراج الدين عمر بن رسلان الكنانى العسقلانى البلقينى الأصل القاهرى الشافعى ولد ١٣ جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ ومات فى رجب سنة ٨٦٨ هـ سنة ١٤٦٤ م كان قوى الحافظة فصيح العبارة سريع الادراك بشوشا طلق المحيا فاشيا للسلام لا يهاب ملكا ولا اميرا سريع الدمعة سليم الصدر تصدى لنشر العلم وحضر مجلسه السادة من الشيوخ والاقران ٠ راجع (الضوء اللامع ج ٣ ص ٣١٢ ـ ٣١٤ ، البدر الطالع ج ١ ص ٢٨٦ أما والده الشيخ سراج الدين البلقينى شيخ الاسلام المتوفى سنة ٨٠٣ هـ فقد تصدى للتدريس والافتاء وكان كثير النفع للطلبة ٠ من أكابر العلماء مع الوقار وحسن الخلق ٠ أنشأ مدرسة بخط بين السيارج بالقاهرة تخرج فيها كبار أئمة العلماء ٠ راجع (الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٢٥ ط القدسى ٠(*) وقفة كاتب ٠

(٣٨٥) سورة الفتح مدنية نزلت فى الطريق عند الانصراف من الحديبية آية ١ ـ ٣ ٠

قـولى الكلام على هـذه الآية من جهات الأولى سبب النزول الثانية الى آخره اقـول : قـدمت أولا الكلام على النزول وما يتعلق به ومناسبة تقـديمه ظاهرة وثنيت باللغـة وقـدمتها على الاعراب لأنها تبين المعنى والاعراب فرعه ومتوقف على معرفته وثلثت بالاعراب وقـدمته على المعانى الذى هـو ثمرة الاعراب ثم تلاه المعانى • ولـما انتهيت من الأدوات ذكرت المقصود بالذات من الآية وهـو التفسير وبيـان المراد ثم ختمت بالنهاية وهـو علم التصـوف وهـذا ترتيب حسن لطيف •

اما سبب النزول وما يتعلق به فقال الامام أبو الحسن الواحـدى رحمه الله روى عن بن عباس انه لـما نزل قـوله تعالى (وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم)(٣٨٦) •

قال المشركون كيف ندخـل فى دينـك وأنت لا تدرى ما يفعـل بك وبمن تبعـك فنزل قـوله تعالى (انا فتحنا لك) الى آخره •

قـوله روى عن ابن عباس الخ اقـول قـوله ابن عباس هـذا حكمـه حكم المرفـوع •

وروى انه لـما نزل (ليغفر لك الله) قال له أصحابه هنيئا لك رسول الله الجنة لك فمالنا(٣٨٧) ؟ فنزل (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات)(٣٨٨) الى آخره ولـما نزل (ويتم نعمته عليك) قالوا كذلك فنزل (اليوم اكملت لكم دينكم)(٣٨٩) ولـما نزل (وينصرك الله نصرا عزيزا) قالوا كذلك فنزل (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)(٣٩٠) وروى أن قوله تعالى (انا فتحنا لك) الى آخره نزل بين مكة والمدينة فى شأن الحـديبية قال أنس(٣٩١) رضى الله عنـه

---

(٣٨٦) سورة الاحقاف آية ٩ (مكية) •

(٣٨٧) أى هنيئا لك يا رسول الله •

(٣٨٨) سورة الفتـح •

(٣٨٩) سورة المـائدة آية ٣ (نزلت بعرفات فى حجة الوداع) •

(٣٩٠) سورة الروم آية ٤٧ (مكية) •

(٣٩١) الامام أبو حمزة أنس بن مالك بن النضر الانصـارى المـدنى لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن هاجر الى أن مات ، وكان آخر الصحابة موتا ، واختلف فى سنة وفاته فقيل ٩٠ هـ وقيـل ٩١ وقيـل ٩٢

لما رجعنا من الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا ونحن بالحزن والبكاء انزل الله تعالى (انا فتحنا لك) الى آخره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد انزل على آية هى أحب الى من الدنيا وما فيها وفى رواية مما طلعت عليه الشمس وفى الصحيح أنه نزل ليلا* .

واما ما يتعلق بالآية من جهة اللغة فقال الامام أبو نصر الجوهرى فى صحاحه الفتح يطلق على النصر وعلى الحكم ومنه (افتح بيننا وبين قومنا بالحق)(٣٩٢) وعلى الماء يجرى من عين أو غيرها .

والمبين من أبان الشىء اذا أوضحه ومنه بأن أى اتضح واستبان أى ظهر واستبنته أى عرفته والتبيين للايضاح والوضوح أيضا والبيان الفصاحة وما به يتبين الشىء من دلالة وغيرها ومبين أيضا اسم ماء قال الشاعر :

يا ريها اليوم على مبين .

أى يارى ناقتى على هذا الماء .

والمغفرة من الغفر وهو الستر والتغطية ومنه غفرت المتاع جعلته فى الوعاء والمغفر زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ويقال من هذه المادة استغفر الله لذنبه ومن ذنبه وذنبه والفعل غفر يغفر وجاء فى لغة غفر يغفر والمصدر مغفرة وغفرانا وغفرا وجاء فى لغة غفرا* .

والذنب الجرم والفعل منه اذنب .

والنعمة اليد والصنيعة وكذلك النعمى والنعماء والنعيم ويقال فلان واسع النعمة أى واسع المال والهدى يطلق على أمور :

أحدها : خلق الاهتداء ومنه (انك لا تهدى من أحببت)(٣٩٣) .

الثانى : الدلالة بلطف ومنه (انك لتهدى الى صراط مستقيم)(٣٩٤) .

(*) وقفة كاتب .

(٣٩٢) سورة الاعراف آية ٨٩ (مكية) .

(*) وقفة كاتب .

(٣٩٣) سورة القصص آية ٥٦ (مكية) .

(٣٩٤) سورة الشورى آية ٥٢ (مكية) .

الثالث : التقـدم ومنه هـوادى الخيل لتقـدمها ·
الرابع : التبيين ومنه (وأما ثمـود فهـديناهم) كذا قيل ·
ويظهر لى أن هـذا متحـد مـع الثانى ·

الخامس : الالهام ومنه (اعطى كل شىء خلقه ثم هـدى)(٣٩٥) اى ألهم لصالحـــــه ·

السادس : الدعاء ومنه (ولكل قـوم هاد)(٣٩٦) أى داع ·

والصراط هـو الطريق الواضح والصـــاد لغـــة قريش وعامة العرب يجعلونها سينا وكعب يجعلونها زايا وأهـل الحجاز يؤنثونه كالطريق والسبيل والزقاق والسوق وبنـو تميم يذكرون هـذا كله وجمعه صرط ككتاب وكتب ·

والمستقيم ضـد المعـوج والنصر مصـدر نصره على عـدوه ينصره والاسم منه النصرة ويقال نصر الغيث الأرض اى غاثها ونصرت الأرض اى مطرت ·

والعزيز هـو الغالب ويطلق على المحتاج اليه القليل الوجـود ·

وأما ما يتعلق بها من جهـة الاعراب فقوله (ليغفر لك الله) اختلف فى اللام هنا فقال صاحب الكشاف رحمه الله للتعليل ثم قال فان قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة قلت لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عـدد من الأمور الأربعة وهى المغفرة واتمـام النعمة وهـداية الصراط المســــتقيم والنصر العـــزيز(*) ·

وأجاب بجواب آخر وهو انه يجوز أن يكون فتح مكة من حيث انه جهاد للعـدو سببا للغفران والثواب :

قوله واجاب الخ أقول هـذا الجـــواب على تسليم أنه جعـــل مكة للمغفرة(٣٩٧) ·

---

(٣٩٥) سورة طـه آية ٥٠ (مكية) ·
(٣٩٦) سورة الرعـد آية ١٣ (مدنية) ·
(*) وقفـة كاتب ·
(٣٩٧) اى : جعل فتح مكة سببا للمغفرة ، واختصر للعلم بذلك مما تقدم ·

وأجاب الامام فخر الدين(٣٩٨) بجـوابين غير هـذين ٠

وقيل اللام هنا للعاقبة والمراد ان الله فتح لك لكى يجعل ذلك عـــلامة لغفرانه لك وقيل هى لام القسم وكسرت لحـذف النون من الفعل تشبيها بلام كى ، ورد هـذا الوجـه بأن لام القسم لا تكسر ، ولا ينصب بها ، ولو جاز هـذا لجاز ليقوم زيد فى معنى : ليقومن زيد ٠ قال أبو حيان – فى البحر مجيبا عن هـذا الرد : أما الكسر فقـد علل بأنه تشبيها بلام كى واما النصب فله أن يقول ليس هـذا نصبا لكنها الحركة التى تكون مع وجـود النون بقيت بعـد حـذفها دلالة على الحـذف ثم قال : وبعـد : فهـذا القول ليس بشىء اذ لا يحفظ من كلامهم والله لتقـوم ولا بالله ليخرج زيد بكسر اللام وحـذف النـون وبقـاء الفعل مفتوحا(*) ٠

وأما ما يتعلق بها من جهـة المعـانى :

ففى قـوله (انا فتحنا) وقـوله (ليغفر لك الله) التفات من التكلم الى الغيبة ونكتته انه لمـا كان الغفران واتمـام النعمة والهـداية والنصر يشترك فى اطلاقها الرسول صلعم وغيره بقـوله (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)(٣٩٩) وقـوله (يا بنى اسرائيل أذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم)(٤٠٠) وقـوله (يهـدى من يشاء)(٤٠١) وقـوله (انهم لهم المنصورون)(٤٠٢) ولم يكن الفتح لأحـد الا للرسول صلى الله عليه وسلم اسنده تعالى الى نون العظمة تفخيما لشأنه وأسند تلك الأشياء الأربعة الى الظاهر واشتركت الخمســة فى الخطـاب تأنيسا لـه وتعظيمـا لشـأنه ولم يؤت بالاسـم الظـاهر لأن

---

(٣٩٨) المقصود فخر الدين محمد بن عمر الرازى صاحب التفسير الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » ٠

(*) وقفـة كاتب ٠

(٣٩٩) سورة النساء آية ٤٨ (مدنية) ٠

(٤٠٠) سورة البقرة آية ٤٠ ، ٤٧ ، ١٢٢ (وهى جميعا مدنية) ٠

(٤٠١) مكرر فى أكثر من آية مثلا سورة البقرة آيات ١٤٢ ، ٢١٣ ، ٢٧٢ (وهى جميعا مدنية) ٠

(٤٠٢) سورة الصافات آية ١٧٢ (مكية) ٠

فى الاقبال على المخاطب ما لا يكون فى الاسم الظاهر وفى قـوله نصرا عزيزا اسناد العزة الى النصر وهـو مجاز فالعزيز حقيقة هـو المنصور (صم) وقيـل فيـه مجاز الحـذف والتقـدير عزيزا صاحبه وأعيد لفظ الله فى وينصرك الله لمـا بعـد عما عطف عليه وليكون المبتدأ مسندا الى الاسم الظاهر والمنتهى ٠

كذلك قـوله التفات الخ ٠

اقول لم يذكر ذلك فى الكشاف وأشار اليه أبو حيان فى البحر تلويحا لا تصريحـــا ٠

قـوله وقيل فيه مجاز الحـذف أقـول :

هـذا من تعبيرى وتصريفى ٠

وأما ما يتعلق بها من جهة التفسير قوله (انا فتحنا) فى المراد بالفتـح هنـــا اقـــوال ٠:

أحـدها : فتـــح مكة واختـــاره ابو بكر(٤٠٣) الرازى (من الجميع) وأبو حيـــان ٠

والثانى : عام الحـديبية عند انفكاكه منها ٠

والثالث : قاله(٤٠٤) مجاهـد فتح خيبر وفى بعض (الآى) ما يدل عليه ٠

والرابع : قال الضحاك(٤٠٥) المراد فتح الله له بالاسلام والنبوة والدعوة والحجة(٤٠٦) والسيف والفتح أبين منه واعظم وهـو رأس الفتوح كلهـا أولا فتح(٤٠٧) من فتوح الاسلام الا وهـو عنه ومشتق منه ٠

---

(٤٠٣) الاصح : أبو عبد الله او ابو الفضل ولقبه الرازى وهـو بلقبه اعرف ، اما « ابو بكر » فهو لا شك سهو من المصنف ٠

(٤٠٤) مجاهـد بن جبر المكى الامام المفسر الحافظ الضليع مات سـنة ١٠٣ بمكة عن ثلاث وثمانين سنة ٠

(٤٠٥) الضحاك بن مخلد الشيبانى البصرى الحافظ مات بالبصرة فى الرابع عشر من ذى الحجة سنة ٢١٢ هـ عن تسعين سنة ٠

(٤٠٦) لعله « الدعـوة بالحجـة » كما ورد فى تفسير أبى الســعود المطبوع بهامش تفسير الرازى ٠

(٤٠٧) لعله « ولا فتح » كما ورد فى تفسير ابى السعود المذكور ٠

الخامس قال غيره : المراد نصر الله (تعالى) على اهـل مكة انك تدخلها انت وأصحابك من قابل لتطـوفوا بالبيت ٠

قـوله (ما تقـدم من ذنبـك وما تأخر) قال ابن عباس ما تقـدم قبـل النبوة وما تأخر بعـدها وقال غيره ما وقـع وما لم يقـع على طريق الوعـد بأنه مغفور له وقال سفيان ما تأخر هـو ما لم يعلمه وقال آخر المتقـدم والمتأخر معـا ما كان قبـل النبوة وقال آخر تأكيدا للمبالغة كما تقـول احبك من عرفك ومن لم يعرفك وقال آخر ما تقـدم من ذنبك يعنى من ذنب أبيك آدم وحـواء وما تأخر ذنوب أمتك وقال آخر المعنى لو كان لك ذنب قديم او حديث لغفرناه ٠

قوله ويتم نعمته عليك قيل بالنبوة والحكمة وقيل بفتح مكة والطـائف وخيبر وقيل بخضوع من استكبر والصحيح بدخـول الجنة ٠

قـوله ويهـديك المراد يثبتك على الهـدى كما فى قـوله (يأيها النبى أتق الله)(٤٠٨) (يأيها الذين آمنوا)(٤٠٩) وامثال ذلك قـوله (صراطا مستقيما) المراد به هنا الاسلام واما من جهة علم التصوف أ٠ هـ٠

وقـد حصل السيوطى على درجـة التدريس وحصل كما حصل غـيره على الاجازة العلمية(٤١٠) ٠

❋ ❋ ❋

---

(٤٠٨) سورة الاحزاب آية ١ (مدنية) ٠

(٤٠٩) « يأيها الذين آمنوا آمنوا » ٠

(٤١٠) راجع صـورة لاحـدى الاجازات العلميـة فى الملاحـق بآخر هـذا الكتاب رقم ٢ ٠

ألقــاب العلمـــاء :

تمتع العلماء المسلمون بتكريم الخلفاء والسلاطين والأمراء لهم ، فأفاضوا عليهم الألقاب والخلع كنوع من التكريم والتعظيم لما يقــومون به من جهود موفقة لخــدمة الملة الاسلامية من كل الوجــوه ·· ومن هــذه الألقاب لقب :

الامـــام(٤١١) :

واستعمال هــذا اللقب كاسم لوظيفة من يلى أمور المسلمين ، معروف منذ عصر النبى (ص) « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالامـــام راع ومسئول عن رعيته ··· » ·

وهــو اسمى القــاب العلمــاء ، ويدل على تمكن صاحبه من علمــه بحيث يصير قــدوة للناس واماما لمن يتبعــوه فى هــذا العلم ، واشتقت منه عـــدة القــاب كأن يقال : امام الأئمــة وامام البلغاء وامام المتكلمين(٤١٢) ·

الحـــافظ(٤١٣) :

لقب أطلق أيضا على كبار علماء الحــديث ، واختص بهم لاحتيـــاجهم الى كثرة الحفظ لمتون الأحاديث وأسماء الرجال ونحــو ذلك ، وقــد اختلف فى عــدد الأحاديث المطلوب حفظها ليتمتع المحــدث بهــذا اللقب ، وقــد اشتقت منه بعض الألقــاب الأخرى مثل : لسان الحفاظ وحافظ المشرق والمغرب ، وأوحـــد

---

(٤١١) معناه : القدوة ويقال « أم القــوم فى الصلاة فهو امام » واللقب بمعناه المعروف موجــود فى القرآن الكريم متكرر فى آيات كثيرة منها « ··· قال انى جاعلك للناس اماما » (البقرة آية ١٢٤) ، « ... واجعلنا للمتقين اماما » (الفرقان آية ٧٤) (د· حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ١٦٦ ط سنة ١٩٧٨ م م دار النهضة العربية) ·

(٤١٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٨ ، وحسن الباشا : الألقــاب الاسلامية – نفس المرجع السابق ص ١٦٦ – ١٧٦ ·

(٤١٣) اسم فاعل من الحفظ بمعنى الاستظهار أو الحراسة ، وهــو من القاب المحــدثين ، وقــد اختص بهم لضرورة حفظهم للأحاديث وأسماء الرجال وتواريخهم ونحــو ذلك (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ١٢) ·

الحفـاظ ، وحافظ الجمهور ، والحافظى نسـبه الى الحـافظ ، وقـد يكون للمبالغـة(٤١٤) ٠

وقـد نعت بهـذا اللقب واشتهر به جماعة من الحفاظ منهم : عبد الغنى المقـدسى حتى أن كثيرا من أولاده كان يقال له ابن الحافظ(٤١٥) ٠

المحقـق :

المتقصى للحقيقة وهـو من القاب العلماء ، وربما استعمل للصوفية ، وكان يستعمل ايضا مضافا الى ياء النسب : المحققى(٤١٦) ٠

العـالم :

من القاب العلماء ، الا أنه كان فى الحقيقة من الألقاب المشتركة فى الاصطلاح بين رجال الحرب والادارة ، وكان من الألقاب التى يعتز بها الملوك ، وكان فى هـذه الحالة يردف غالبا « بالعـامل » و « بالعـادل » ٠

وفى عصر المماليك كان اللقب يأتى غالبا ضمن القاب السلاطين مجردا من ياء النسبة ، وفى حالة غيرهم من رجال الدولة فكان يزد بصيغة النسبة(٤١٧) ٠

الفقيـه :

من ألقاب العلماء ، ولم يستعمل هـذا اللقب فى عصر المماليك فى مصر الا نادرا على الرغم من سمو معناه وكان أهـل المغرب يعظمونه جـدا ، وكان يستعمل أحيانا مضافا الى ياء النسب (الفقيهى) ويطلق هـذا اللقب على العالم بالأحكام الشرعية وعلى من صار الفقه له سجية ، على أن هـذا اللقب

---

(٤١٤) صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢ ، د٠ حسن الباشا : الألقاب ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ٠

(٤١٥) ابن حجر : نزهة الألباب فى الألقاب ـ مخطوط ١٥ ٠

(٤١٦) صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٦ ، د٠ حسن الباشا : الألقـاب ص ٤٦٢ ٠

(٤١٧) صبح الأعشى جـ ٦ ص ٩٦ ، ١١٨ ، د٠ حسن الباشا : الألقاب ص ٣٩٠ ٠

صار يطلق ايضا على طلبة المدارس فى العصر المملوكى الجركسى ، كما يذكر القلقشندى ان اطلاقه على فقهاء المكاتب ونحوهم فهـذا على سبيل المجاز(٤١٨)٠

الرحــــــــلة :

فى اللغـة : ما يرحل اليه وهـو من ألقاب أكابر العلماء والمحـدثين ، وقـد لقبوا بذلك لانه يرتحل اليهم للاستفادة منهم ومن علمهم الغزير والنسبة اليـه الرحــــلى ٠

وصاحب هـذا اللقب من الذين بلغـوا درجـة عالية من العلم بحيث تخطوا المستوى الاقليمى ، واصبحوا مشهورين ومعروفين على مستوى العالم الاسلامى بحيث يرحـل اليهم طالبوا المعرفة من الأقطار الأخرى بالاضافة الى من يرحل اليهم من اقليمهم للأخـذ عنهم والتتلمذ على ايديهم ٠

ولما كان هـذا اللقب يطلق على من بلغ هـذه الدرجـة فى أى علم من العلوم ، فقـد تعـددت الألقاب فيه يذكر منها : رحلة الحفاظ وهـو لقب من القاب المحـدثين ، ورحلة القاصـدين من ألقاب كبار ارباب الأقلام ٠ ورحلة المحصلين وهـو من القاب العلماء ، ثم لقب عام آخر وهـو رحلة الوقت ويطلق على العالم الذى ينفرد بالرحيل اليه لأخـذ العلم عنه دون غيره ٠ هـذا بالاضافة الى الكثير من الالقاب كصدر المتصدرين وفخر المدرسـين ، وعلم العلماء الأعلام ويطلق على أكابر أهـل العلم ، وربما قيل : علم المفسرين او علم النحاة وغير ذلك من الألقــاب ٠

وكان للعالم أكثر من لقب وذلك كالمؤهلات العلمية للأســــتاذ فى العصر الحالى ، فمما يذكر من ألقاب العلامة العينى (الشيخ الامام العالم العلامة القدوة بدر الدين المفيد للطالبين صـدر المدرسين رحلة المحـدثين مفتى المسلمين ابى محمـد محمـود العينى)(٤١٩) ٠

---

(٤١٨) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٦ ص ٢٢ ، د٠ حسن الباشا : الألقاب ص ٤٢٢ ٠ حجة السلطان برقـوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق ، السبكى : معيد النعم ص ١٠٨ ، ١٠٩ ٠

(٤١٩) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٦ ص ١٤ ، ٢٢ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٦٠ ، حجة وقف المؤيد شيخ المحمودى ٩٣٨ أوقاف ، د٠ حسن الباشا : الألقــاب ص ٣٠٢ ٠

الحجـــــة :

الحجـة في اللغـة البرهان ، وقـد استعمل اللفظ كلقب فخرى اما بمفرده ، واما بالاضافة الى ألفاظ اخرى مثل « حجـة الاسلام » ونعت بالحجـة جماعة أقـدمهم محمد بن الحسين بن محمد بن على بن موسى الكاظم(٤٢٠) في النسبة اليـه يقـال « الحجى » وهـو من ألقـاب اكابر القضـاة والعلمـاء في العصر المـملوكى(٤٢١) ٠

وقـد نعت شعبيا بحجة الاسلام الامام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى ، اذ ورد هـذا اللقب على مقلمـة من النحاس المكفت بالفضة ـ ضمن القابه ـ من العراق سنة ٥٠٥ هـ وقـد تفرغ منه : حجـة المذاهب ، وحجـة العرب وغـير ذلك(٤٢٢) ٠

أمـير المؤمنـين :

اختص به كبار المحـدثين ، ولم يحظ بهـذا اللقب الا قلة بسيطة ، ومنهم العـلامة شيخ الاسلام ابن حجر العسقلانى(٤٢٣) ٠

ومن ألقاب الشيخ سـعد بن ابراهيم الطيبى : « الشيخ الامام العـالم العـامل العـلامة الحبر البحر الفهامة المحقق المدقق الحجة الحافظ المحـدث الرحلة المفيد الفريد العمدة قاضى القضاة محيى الدين لسان المتكلمين رحلة الطالبين سيف المناظرين مقحم المجادلين قامع المبتدعين ٠٠٠٠ »(٤٢٤) ٠

ملابس العلمــاء :

كان لكل طائفة من طـوائف العلماء شعارا خاصا يميزها في لباسها عن الطـوائف الأخرى ، وبمعنى آخر كانت الملابس ـ على حـد قـول بعض

---

(٤٢٠) ابن حجر : نزهـة الألباب في الألقاب مخطوط ١٦ ظ بالمتحف البريطانى تحت رقم ٧٣٥١ ٠

(٤٢١) صبح الأعشى جـ ٦ ص ١٢ ، ١٣ ٠ د٠ حسن الباشا : الألقـاب ص ٢٥٧ ٠

(٤٢٢) صبح الأعشى جـ ٦ ص ٤٥ ٠

(٤٢٣) نفس المرجـع والجزء والصفحة ٠

(٤٢٤) حجة وقف الغورى رقم ٨٣٠ أوقاف ٠

الباحثين « تختلف حسب مكانة الشخص ومركزه الاجتماعى حتى اصبح من السهل على أى زائر لعاصمة من العـواصم الاسلامية ، أن يحكم على كل شخص يراه ، ويحـدد فى سهولة طبقته الاجتماعية وحرفته أو عمله وديانته ان كان مسلما او ذميا ، وذلك بمجرد النظر الى هيئته العامة وملبسه(٤٢٥) ٠

وقـد كان للعلمـــاء فى العصـــور الاســـلامية زيا خاصـا ينقسم الى ثلاثة أقســـام :

(أ) لبـاس الرأس ٠

(ب) لبـاس القـدمين ٠

(ج) لبـاس بقيـة الجسم ٠

فالعمـــــامة :

تاج يتوج به المتعممون رءوسهم ، وشارة وعلامة للعزة والكرامة ، ومن حجمها وشكلها وهيئتها تكون قيمة الشيخ العلمية وعلو مكانته فى المجتمع ، وكانت هـذه العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ومن العلماء من كان يرسل بين كتفيه ذؤابة (طرف الشال) تلحق قربوس سرجه اذا ركب ، ويميلها الى الكتـف الأيمـن(٤٢٦) ٠

وكانت هـذه العمائم الكبيرة الحجم الفريدة فى الضخامة مألوفـــة فى العصور الاسلامية خاصة فى شرق العالم الاسلامى ٠

يحـدثنا السخاوى عن العلامة محمد الشمس الفيومى القاهرى الحنفى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ كان عفيفا دينا عاقلا يشار اليه بالبنان « كانت زنة قبعته نحـو عشرة أرطال بالمصرى ، وعمامته ازيد من ثوب بعلبكى »(*) ثم يعلل السخاوى ضخامة هـذه العمامة ـ بالاضافة الى علم الشيخ وفضلة ـ فيقول :

---

(٤٢٥) ماير : الملابس المملوكية ترجمة صالح الشيتى ص ٩٠ ، د٠ سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٤١٠ مرجع سبق ٠

(*) بعلبك احـدى مدن الشامى ، وهى الآن احـدى المدن اللبنانيـــة الشـــــهيرة ٠

(٤٢٦) راجع اللوحة رقم ١٩ سكل ١ ص ٢٠٥ من كتاب ماير ٠

« وذلك حفظا لدماغه وعينيه من النزلة »(٤٢٧) مما يدل على أن غطاء الراس بهذه الصورة من دواعى جودة الصحة وسلامة الجسم ٠

أما ملابس العلماء فى الأندلس فقد اختلفت فى شىء هام عن تلك التى كانت متبعة فى الشرق وهو العمامة ، والسبب فى ذلك يرجع الى ان مسلمى الأندلس قلدوا الفرنجة من جيرانهم فى الملابس وأدوات الحرب كما يقول المقرى(٤٢٨) ٠

ويرى الدكتور احمد شلبى نقلا عن « سيد امير على » أن العلماء فى « بلنسية » وغيرها من المدن الشرقية تركوا لبس العمامة واستعملوا نوعا آخر من غطاء الرأس هو بالقبعة أشبه « كاب » كما أن بعضهم ترك لبس العمامة ولم يتخذ لها بديلا وترك الرأس عاريا فى مجالس السلطان وأمام الناس ٠

أما فى المدن الغربية ومقاطعاتها كقرطبة واشبيلية فان الفقهاء والقضاة كانوا يلبسون عمائم لكنها أصغر كثيرا عن تلك التى كانت مستخدمة فى الشرق من العالم الاسلامى(٤٢٩) ٠

وكانت الطرحة أو الطيلسان عبارة عن وشاح يلبس فوق العمامة ، ويلف حول الرقبة ويسترسل على الكتفين ، وان ذلك فى الأصل امتيازا يمنح فقط لقاضى القضاة الشافعية(٤٣٠) ٠

وكان شكل الطيلسان الذى يلبس فوق العمامة فى الأصل مناسبا وأنيقا من حيث الطول والعرض ، لكننا نلحظ فى المنمنمات المملوكية (الصور) يشاهد القاضى عادة متشحا بطرحة أو طيلسان ، وكان يغطى العمامة والأكتاف مع حبكة نوعا ما(٤٣١) أما الاشراف فكانوا يضعون قطعة قماش خضراء فى عمائمهم(٤٣٢) ٠

---

(٤٢٧) السخاوى : الضوء اللامع ح ١٠ ص ١١٢ ٠

(٤٢٨) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٥ ط القاهرة سنة ١٢٨٩ هـ ٠

(٤٢٩) د٠ احمد شلبى : التربية الاسلامية ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ٠

(٤٣٠) صبح الأعشى ح ٤ ص ٤٢ ٠

(٤٣١) راجع لوحة رقم ١٧ شكل ١ ص ٢٠٢ من كتاب ماير الملابس المملوكية ٠

(٤٣٢) المقريزى : السلوك ج ٤ قسم ٢ ص ٨١٠ ٠

أما ملابس بقية الجسم فتنقسم قسمين : (أ) الفوقانى ، (ب) التحتانى ٠

(أ) فالثوب الفوقانى يطلقون عليه اسم (الفرجية) أو الجبة ، وقد جرت العادة أن تصنع من اقمشة متنوعة من قطن أو حرير حسب فصول السنة صيفا أو شتاء ، وكانت تزين بطراز (اطار او برواز)(٤٣٣) ٠

وكان من المألوف أن يرتدى القضاة والعلماء عموما « فرجية » لها أكمام طويلة بدون فتحات ، ويقول السيوطى « ان زى العلماء عبارة عن دلق من الصوف متسع بغير تفريق ، فتحته على كتفه(٤٣٤) »٠

(ب) اما الثياب التحتانية (الداخلية) فمن النادر الاشارة اليها لعدم وجود وصف لها ٠

(ج) واما الباس القدمين فهى احذية من نوع الاخفاف صنعت من الجلد الطائفى (نسبة الى الطائف) بدون مهاميز(*)(٤٣٥) ٠

وبالاضافة الى ذلك كانت الملابس تتخذ صيفا من القطن وفى الشتاء من الصوف وكان لون لباس الصيف هو الأبيض ، وفى الأيام المطرة كان العلماء عموما يرتدون عباءات من قماش سميك له وبر يطلق عليها « جوخة » وأصبحت هذه العباءات من الملابس مألوفة للغاية فى عصر المماليك الجراكسة ، وقد استاء المقريزى لذلك وتحسر على ما كان فى الحياة من مظاهر الترف(٤٣٦)

هذا وقد حرص العلماء بصفة عامة على ارتداء الملابس المباحة وعدم ارتداء الحرير والأطلس أو الأقمشة التى يغلب الحرير على خاماتها وغير ذلك(٤٣٧) ٠

---

(٤٣٣) دوزى : قاموس الملابس المملوكة ص ٣٢٩ وما بعدها ٠
(٤٣٤) حسن المحاضرة حـ ٢ ص ٣٢٠ (ط الحلبى) ٠
(*) جمع مهما زوهى قطعة من الحديد يكون فى خلف الحذاء يهمز بها الخيل لحثه على سرعة السير ٠
(٤٣٥) صبح الأعشى حـ ٤ ص ٤٢ ٠
(٤٣٦) الخطط حـ ٢ ص ٩٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور (ط المانيا) ص ٢٨٤ ٠
(٤٣٧) ماير : الملابس المملوكية ص ٢٩٩ ٠

مركـوب العلمـاء فى تنقـلاتهم :

تمتـــع المدرسون فى العصــور الاســلامية ولاقــوا من ضروب التـكريم والنعيم ما لم يتمتع به نظرائهم فى الوظائف الأخرى ، وكان بعض المدرسين ذا وجاهــة بحيث اقتنــوا الجــوارى والعبيد وركبـوا الخيل ولكن هــذا النــوع قليــل ، أما الغالبية العظمى من المدرسين فكان مركوبهم « البغال » النفيسة بلجم ثقال وسروج مدهونة ، وليست محلاة بشيء من الفضـة(٤٣٨) .

طـالب العـلم :

فى العصــور الاســلامية برهن الطالب المسلم فى طلبـه للعـلم على قـوة الارادة حيث استطاع التغلب على الصعوبات التى اعترضته ، وذلل ما صادفه من العقبات ، فلم يكن السبيل الى العلم مملوءا بالورود والرياحين ، ولا كانت الحياة سهلة ميسرة بل كان العكس هــو الصحيح ، ولكن الطالب المسلم برهن على حماسة منقطعة النظير ودل على عزيمة من حـديد وقـوة ارادة وصــبر لا ينفـذ ، فلم يكترث بالأشــواك ولم يبــال بالمخاطر والقى بنفسه فى اتون العلم ليصل الى هــدفه دون فتور أو تردد .

وكانت آيات القرآن الكريم واحاديث رسول الله العظيم تعمل فى طالب العلم عمل السحر ، فتحيل الصعب سهلا والعسير يسيرا .

وكانت الآيات والأحاديث التى تحث على طلب العلم تتردد على لســانه وتغمر قلبه ، فتتغلب على ما قــد يعتوره من تردد وتجــدد عزمه وتزكى همته .

وينقسم طــلاب العلم الى نوعين صغار وكبار :

(أ) الطـلاب الصــغار :

وهم طلاب المكاتب أو الكتاتيب ، وتربيتهم فى الاسلام لا تقف عند تعليمهم وانمــا تمتد الى تربية خلقهم وبعث الصفاء فى نفوسهم وتنظيم العادات الحسنة فيهم ، والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جـوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهــو قابل لكل ما نقش عليه ، ومائل الى كل ما يمــال به

---

(٤٣٨) صبح الأعشى حـ ٤ ص ٤٢ .

اليه، فان عـود الخير وعلمه نشأ عليه وسـعد فى الدنيا والآخر ، وشاركة فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وان عـود الشر وأهمل شقى وهلك وكان الوزر فى رقبـة القيم عليـه والوالى له ٠

البيت يساعد الكتاب فى توجيـه الطفـل وتربيته :

تنادى التربية الحـديثة بمساعدة المدرسة للطفل بمراقبته ومساعدته على عمـل واجبه ومذاكرته للدروس وغير ذلك ، ولعمرى أن ذلك كان مطبقا فى الاسلام منذ قرون عـديدة ولكن أكثر الناس نسى تقاليد التربية الاسلامية أو تناسـوها لكثرة ما مر بهم من محن سببها لهم الاستعمار ٠

فـولى أمر الصبى ينبغى أن يراقبه من أول أمره ، فلا يستعمل فى ارضاعه وحضانته الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال وأن يحسن مراقبته ويقـوى فيه خلق الحياء عند ظهوره فيه ، وان يعلمه الطريق المستقيم فى تناول الطعـام والمشاركة فيه ، وألا يبادر الى الطعام قبل غيره وأن يأكل مما يليه ، وألا يحـدق النظر الى الأكل أو الآكلين وألا يسرع فى الطعام وأن يجيد مضغة ، وألا يوالى بين اللقيمات ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، ويقبح عنده كثرة الأكل وأن يقنع بالطعام الخشن أحيانا ، ويحفظه عن الصبيان الذين عـودوا الرفاهية والتنعم ولبس الثياب الفاخرة ، وكذلك الصبيان الذين ساءت أخـلاقهم ، ولا يوبخـه الأب ألا أحيانا ، والأم تخـوفه بالأب ويزجره عن القبائح ، ويمنع عن النوم نهـارا فانه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ويصبره على الخشونة فى المفرش والمطعم والملبس ، ولا يكثر أهله عليه العتب فى كل حين فانه يهون عليه سماع الملامة ٠

وعلى المؤدب أن يراقب الصبى فاذا ظهر منه خلق جميل وفعـل محمـود ينبغى أن يكرمه عليه ويمـدحه بين أظهر الناس ويجازيه بمـا يفرحه ، ولا يهتك ستره ويتغافـل عنه اذا أخطـأ مرة واحـدة ويمنعه المؤدب أن يفتخر على أقرانه بشىء ممـا يملكه والده أو بشىء ممـا يملكه هـو كالملابس وادوات الكتابة ، وان يعوده التواضع والاكرام لكل من عشره ، والتلطف فى الكلام معهم والبشاشة فى وجـوههم ٠

ويمنعه المعلم أن يأخـذ من الصبيان شيئا ، وان كان غنيا يعلم أن الرفعة فى الاعطاء لا فى الأخـذ ، وان الأخـذ هـو لوم وخسة ، وأن كان فقيرا يعلم أن القناعة كنز لا يفنى وأن فى الأخـذ ذلة ومهـانة ٠

ويعـود الصبى الا يتمخط ولا يبصق فى مجلسه ولا يتثائب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجـلا على رجـل ولا يضـع كفـه تحت ذقنـه ولا يعمد راسه بساعده حيث يدل ذلك على الكسل بل يعـود كيفية الجـلوس الصحيح ويمنع كثرة الكلام واليمين أن صـدقا أو كذبا لغير ضرورة ..

ويعلم حسن الاستماع اذا تكلم من هـو اكبر منه سـنا ويمنع من لغـو الحـديث وفحشه ومن مخالطة من يجرى ذلك على لسانه ، وأن يقـوم لمن فوقه ويوسـع له المكان ، واذا ضربه مؤدبه فلا يكثر من العـويل والصراخ والتهويش والشغب ولا يستشفع بأحـد ، بل يصبر دأب الرجال الشجعان .

وعند انصراف الصبى عن الكتاب وفى الفسح ينبغى أن يؤذن له باللعب لعبا جميلا يستريح اليه من عناء مكثه بالمكتب ، بحيث لا يتعب من اللعب أى أن يكون اللعب بالنسبة اليه نوعا من تنشيط دورته الدموية لا أن يكون ذلك ارهاقا له ، فان منع الصبى عن اللعب وارهاقه بالعلم يميت قلبه ، ويبطـل ذكاءه وينغص عليه العيش(٤٣٩) .

ولابن سينا : وهـو طبيب وفيلسوف ــ راى فى حسن أخـلاق الصبى ، ويرى أن عناية ولى أمره ينبغى أن تصرف لمراعاة أخلاقه ، فيحفظه كيلا يعرض له غضب شـديد أو خـوف شـديد أو غم أو سهر ويتامل فالذى يشتهيه ويحن له فيقرب اليه ، وما الذى يكرهه فينحى عنه ، لا استجابة لأمره ولكن تيسرا للحياة عليه ، وفى ذلك منفعتان للصغير احـداهما لنفسه والثانية لبـدنه ، حيث ينشأ منذ صغره لين الخلق حسنه تبعا لحسن مزاجـه ، فالأخـلاق الحسنة تابعة لصفاء المزاج والأخـلاق الردية تابعة لسوء المزاج ، وحسن الأخـلاق يحفظ الصحة للنفس والبـدن جميعا .

ويعطينا ابن سينا برنامجا يوميا للصغير منذ استيقاظه من النـوم فمن الأحرى أن يستحم بعـد استيقاظه ثم يخلى بينه وبين اللعب ساعة ، ثم يطعم شيئا يسيرا ثم يطلق له اللعب وقتـا اطـول ثم يستحم ثم يغـذى .. فاذا

---

(٤٣٩) الغزالى : احياء علوم الدين ج ٣ ص ٥٧ — ٥٩ ط القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ ، د. احمد شلبى : التربية الاسلامية ص ٢٨٨ وما بعدها .

بلغ ست سنوات قـدم للمؤدب ويدرج فى ذلك فلا يحمل على ملازمة الكتـاب كرة واحـدة وبتقـدم السن ينقص من احمامهم ويزاد فى تعبهم(٤٤٠) ٠

امتيـازات للطـلاب :

كانت فرص التعليم فى العصـور الاسـلامية مكفـولة لكل الطـلاب فقراء وأغنيـاء لقـد بدأ التعليم فى المسجد ولا يختلف اثنان ان المسجد كان مفتوحا للناس جميعا وكان المدرس يعامل الفقير معاملة الغنى وكذلك الطـلاب كانوا يقفـون موقفـا ممـاثلا حيث أدركوا أنهم أمام معلمهم فى حلقـة العلم سواسية لا فرق بين شريف وسوقى بل الفضل للمجـد المهـذب مهما كان عنصره أو نصـيبه من الثروة ٠

فقـد كانت توجـه عناية خاصة من المؤدب للنابغين من التلاميذ والموهوبين الذين تبـدوا عليهم مخايل الذكاء والفطنة ، وكان يعـد من الظلم أن يحرم تلميذ نابغ من العلم لأى سبب من الأسباب(٤٤١) ٠

المدرسـون الأغنياء ينفقـون على التلاميذ الفقراء :

وممـا ينهض دليـلا على عظمة الاسلام رحمة المدرسين المسلمين بتلاميذهم ومساعدتهم والأخـذ بيـدهم حتى لا يحرموا من العلم ، يحكى الامام أبو يوسف قال : كنت أطلب الحـديث والفقـه وانا مقـل رث الحال ، فجاءنى أبى يوما وانا عند أبى حنيفة فانصرفت معه ، فقال : يا بنى لا تمـد رجلك مـع أبى حنيفة ، فان أبا حنيفة خبزه مشوى وانت تحتاج الى المعـاش ، فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعـة أبى ، فتفقـدنى أبو حنيفة رضى الله عنه ، وسأل عنى فعـدت الى مجلسه ، فلمـا كان أول يوم اتيت بعـد تأخرى عنه قال لى : ما شغلك عنـا ؟ قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدى ٠ فجلست فلمـا انصرف الناس دفع الى صرة وقال استمتع بها ، فنظرت فاذا فيها مائة درهم : وقال لى : الزم الحلقة واذا فرغت هذه فأعلمنى فلزمت الحلقة ، فلما مضت مـدة

---

(٤٤٠) ابن سينا : القانون حـ ١ ص ٧٩ ط روما سنة ١٥٩٣ م ٠

(٤٤١) راجع : احياء علم الدين للغزالى حـ ١ ص ٤٧ ٠

يســـيرة دفع الى مائــة اخرى ، ثــم كان يتعهــدنى حتى اســتغنيت وتمولت(٤٤٢) .

وسنشير الى ضروب من وجـوه الانفـاق والامتيازات الأخرى للطـلاب عند حديثنا عن أوقاف المسلمين على طلاب العلم فى الفصل الرابع من هذا الكتاب ٠

بقى أن نشير فقط ــ وقبل أن ننتقل الى نقطة أخرى ــ أن الامام الشافعى ــ رحمه الله ــ كان يتيما فى حجر أمه وكانت فقيرة لا تستطيع أن تمـده حتى بالورق والأقـلام ، ولكنه التحق بالمسجد وسمع من العلمـاء بعـد حفظ القرآن ثم انضم الى الامام مالك الذى شمله بعطفه ورعايته واحسانه حيث دبر امره ، وبهـذا استطاع أن يشق طريقه حتى أصبح أحـد الأئمة الأربعة الاعلام فى الفقه الاسلامى وصاحب المذهب الشهير(٤٤٣) ٠

وقـد أشرنا الى ذلك فى بداية هـذا الكتاب ٠

(ب) الطـلاب الكبـار :

وينقسم هـؤلاء الى طلاب فى المرحلة الثانية وطلاب فى المرحلة العاليـة أو التخصصية ٠

شروط طالب العلم :

وقـد اشترطوا فى طالب العلم عموما :

١ ــ أن تكون سيرته الشخصية ملائمة لشرف العلم والدين ٠

٢ ــ أن يحترم استاذه فى الدرس ، فلا يرفـع صوته عليه ، ولا يجلس بين يديه بهيئة تنافى الآداب ٠

٣ ــ أن يعامل جليسه فى الدرس بالحسنى ، فلا يؤذيه بالقـول ولا بالفعـل ٠٠ وغير ذلك ٠

---

(٤٤٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ٢ ص ٤٥١ ط القـــاهرة سنة ١٢٧٥ هـ ، د٠ أحمد شلبى : التربية الاسلامية ص ٢٩٣ ٠

(٤٤٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٦ ص ٥٦ ٠

آداب يجب أن يلتزم بهـا طالب العلم مـع نفسه :

ومن هـذه الآداب : ان يطهر قلبه من خبيث الصفات كالحسد وسـوء العقيدة والغش والدنس وأن يكون حسن النية فى طلب العلم بأن يقصـد به وجـه الله تعالى والعمل به والقرب من الله تعالى يوم القيامة واحياء الشريعة وتنـوير قلبه وتحليـة باطنـه ٠

وأن يبادر الى تحصيل العلم فى اوقات الشباب ، وبذل الاجتهاد والجـد فى التحصيل ، ويقطع ما يقـدر عليه من العـوائق الشاغلة عن طلبـه فان كل ساعة تمضى من عمره لا عـوض لهـا ولا بدل عنها ٠

قال الشـاعر :

بقـدر الكـد تعطى ماتروم   فمن رام المنى ليـلا يقـوم

وايـام الحـداثه فاغتنمهـا   الا ان الحـداثة لا تدوم

وأن يقنع طالب العلم باليسير من القـوت ، ومن اللباس بمـا يستره وان كان خلقـا ، فبالصبر على ضيق العيش ينـال سـعة العلم وتتفجر فيـه ينابيـع الحـكم ٠

تقسيم الوقت للطالب بين الليـل والنهار والعمل والراحـة يعين على التغلب فى حـل مشكلات العلم ومعضلاته وطرق مذاكرته وقـد قالوا ان اجـود الأوقات للحفظ الاسحار ، وللبحث الأبكار وللكتابة وسط النهار وللمطالعـة والمذاكرة الليـل ٠

وعلى الطالب ان يتحرى الحلال فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ويتورع عن الحرام ويتقى الله فى ذلك قال تعالى « واتقـوا الله ويعلمكم الله » ٠ ولا ينبغى أن يمـلأ الطالب بطنه بالطعام ، قال بعضهم : وضع العلم والحكمة فى الجـوع ، وجعل الجهل والعصبية فى الشبع ، ومن رام الفلاح فى العلم وتحصيل البغية منه ، مـع كثرة الأكل والشرب والنوم ، فقـد رام مستحيلا فى العادة ٠

وان يقلل طالب العلم من النـوم ما لم يلحقـه ضرر فى ذهنـه وبدنه ، ولا يزيد فى نومه فى اليوم والليلة على ثمان ساعات وهـو ثلث الوقت ، فان

احتمل حاله اقل منها فعل ، قال بعضهم من أسهر نفسه بالليل فقد فرح قلبه بالنهار ولا بأس بطالب العلم من اراحة نفسه وقلبه وذهنه وبصره ، اذا حس ضعفا أو كلالا ، وعليه أن يتنزه ويتريض بحيث يعود الى حاله ، ولا بأس بالمشى ورياضة البدن به حيث ينشطه وينعش حرارته ويذيب فضول أخلاطه ، وينبغى لطالب العلم الا يخالط الا من يفيده او يستفيد منه فاذا حدث العكس قطع الصحبة على الفور متلطفا فى ذلك ومعتذرا ، فمما يروى عن على رضى الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل	**وايـاك وايـاه**
فكم من جاهل أردى	**حليما حين وأخاه**
يقاس المرء بالمرء	**اذا ما هو ما شاه**

ولبعضهم :

ان اخاك الصدق من كان معك	**ومن يضر نفسه لينفعك(٤٤٤)**
ومن اذا ريب زمان صدعك	**شتت شمل نفسه لينفعك**

آداب الطالب مع شيخه :

عنى كثير من المربين المسلمين بالكتابة عن اخلاق الطالب مع شيوخه وواجباته حيالهم ومنهم من خصص لهذا الموضوع كتبا مخصوصة أو حيزا كبيرا منها وسنقتبس من المصادر الكثيرة موجزا منها نورده هنا ٠

وهناك أيضا آداب يجب على الطالب أن يتخلق بها مع شيخه ومن هذه الآداب :

أن ينظر الى شيخه بعين الجلال ، ويعتقد فيه درجة الكمال ، وينبغى الا يخاطب الطالب شيخه بتاء الخطاب وكافه ، ولا يناديه عن بعد ، بل يقول يا شيخى ويا استاذى ، وما رأيكم فى كذا وما تقولون فى كذا ولا يسميه فى

---

(٤٤٤) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم ص ٦٧ ــ ٨٥ ٠

غيبته ايضا الا مقرونا بمـا يشعر بتعظيمه كقـولهم قال شيخنا واستاذنا او قال حجـة الاسلام وغير ذلك ممـا يشعر باجـلال الشيخ وتكريمه ٠

ان المعلم والطبيب كلاهمـــا لا ينصحـــان اذا هما لم يكرما

قال الشافعى رضى الله عنه : كنت أتصفح الورقة بين يدى مالك صفحـا رقيقا هيبـة لئلا يسمع وقعها ، وقال الربيع بن سليمان تلميذ الشافعى : والله ما اجترات ان أشرب المـاء والشافعى ينظر الى هيبة له ٠

وأن يصبر الطالب على جفـوة شيخه او سوء خلق ويلتمس له عـذرا ، ويتأول أفعاله التى يظهر أن الصواب خلافها على احسن تأويل ، ولا يصـده ذلك عن ملازمته وحسن عقيـدته فيه ٠ ويعتـذر هـو لشيخه مبادرا بذلك فانه أحفظ لقلب الأستاذ وأبقى لمودته وانفـع للطالب فى دينه ودنياه وآخرته ٠

ولبعضـــــهم :

أصبر لدائك ان جفـوت طبيبه وأصبر لجهلك أن جفـوت معلما

وألا يدخـل الطالب على شيخه فى غير مجلسه العام الا بعـد الاستئذان سواء كان الشيخ وحـده أو كان معه غيره ، وليكن طرق الباب خفيفا بأظفـار الأصابع ثم بالأصابع ثم بالمطرقة قليلا قليلا ، وينبغى أن يدخـل الطالب على شيخه فى مجلسه العام طاهر الثياب والبدن نظيفهما بعـد قص شعـــره واظافره وازالة الرائحـة الكريهة بطيب أو نحـوه ، ويجب أن يكون الطالب فارغ القلب من الشواغل وذهنـه صاف ليس فى حال نعاس او غضب أو جـوع شـديد أو عطش لينشرح صـدره ويعى ما يقال له وما يسمعه ٠ ولا يعطى للشيخ ظهره أو جنبه بل يجلس جلسة الأدب ولا يكثر التنحنح ولا يبصـق لغير حاجـة ولا يتنخم ما أمكنه ولا يلفظ النخامة من فيه بل يأخـذها من فيـه بمنديل أو خرقة أو طرف ثوبه ، واذا تثاءب سترفاه بعـد رده بقـدر الجهد ، ولا يعبث بيـديه أو رجليه ولا يعبث بأنفـه ولا يقرع سنه ولا يشـبك يديه ولا يضحك لغير عجب ، فان غلبه الضحك تبسم تبسما بغير صوت البتة ٠ واذا سمع شيخه يذكر حكما فى مسئلة أو فائدة مستغربة أو يحكى حكاية أو ينشد شعرا وهـو يحفظ ذلك ، أصغى اليه اصغاء المستفيد المتعطش الى المعرفة كأنه لم يسمعه قط ٠

وينبغى الا يقطع الطالب على الشيخ كلامه ولا يسابقه فيه بل يصبر حتى يفرغ كلام الشيخ ثم يتكلم هو فان عرض الشيخ عليه ذلك ابتداء والتمسه منه فلا مانع .

واذا ناول الطالب شيخه قلما ليكتب به ، فليملاه قبل اعطائه اياه ، وان وضع بين يديه دواة فلتكن مفتوحة الأغطية مهيأة للكتابة منها ، وان ناول الشيخ سكينا لبرى القلم فلا يصوب اليه شفرتها ولا نصابها ويده قابضة على الشفرة بل يكون عرضا وحد شفرتها الى جهته قابضا على طرف النصاب مما يلى النصل ، جاعلا نصابها على يمين الآخذ(٤٤٥) ٠

واذا مشى الشيخ يكون الطالب امامه ليلا وخلفه نهارا ولا يمشى جنبه الا لحاجة أو اشارة منه ويؤثره بجهة الظل فى الصيف وجهة الشمس فى الشتاء ، واذا صادف الشيخ فى الطريق بادره بالسلام قاصدا اياه(٤٤٦) ٠

آداب طالب العلم فى حلقته :

لما كان معروفا لدى المسلمين فى العصور الاسلامية ان الطالب له مطلق الحرية فى اختيار شيخه واستاذه الذى يعجبه ليلتحق بحلقته فنجد علماء التربية ينصحون طالب العلم الا يتعجل فى اختيار الأستاذ حتى يلاحظ فيه العلم والأخلاق ، ولا يتقيد بالأساتذة ذوى الشهرة ويترك خاملى الذكر منهم فقد يكون منهم من يفضل المشاهير ، فاذا اختار الأستاذ فليتعلم الصبر والثبات عليه ، فان تركه بعد الثبات عليه يسىء الى كليهما ، ولا ينبغى ان يبدأ بكتاب حتى يتمه ولا بفن من فنون المعرفة حتى يستكمله قبل البدء فى غيره ، ولا ينتقل الى بلد الى آخر بغير ضرورة ، فان ذلك مما يضيع الوقت ويشغل القلب(٤٤٧) ٠

---

(٤٤٥) المرجع نفسه ص ٨٦ ــ ١١٢ ، الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ١٢ ٠

(٤٤٦) د٠ أحمد شلبى : التربية الاسلامية ص ٣١١ ٠

(٤٤٧) تذكرة السامع والمتكلم ــ مرجع سبق ص ٨٥ ــ ٨٦ ، الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ١٠ ٠

ومهما تقدم الطالب فى تحصيل العلم فيحذر من ظنه أنه وصل الغاية فيه ، فالمرء لا يزال عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل(٤٤٨) .

ويجب على الطالب الا يتورع عن أخذ العلم من أى شخص ولو كان وضيعا أو صغيرا الشأن ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان بهوان الغواص الذى استخرجها ، وان يكون مملوءا بالحماس والنشاط فى طلب العلم ، وأن يقبل عليه برغبة وشغف(٤٤٩) .

واذا كتب الطالب لنفسه أو عن شيخه شيئا فيلزم أن يجود ما يكتب ، وان يترك حاشية ولا يكتب بين الأسطر(٤٥٠) .

وأن يبتدىء أولا بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظا ، ويجتهد على اتقان تفسيره وسائر علومه فانه أصل العلوم وامها واهمها ، ثم يحفظ من كل فن مختصرا يجمع بين طرفيه من الحديث وعلومه والأصلين والنحو والتصريف ، ويشتغل بشرح تلك المحفوظات على المشايخ وليحذر من الاعتماد فى ذلك على الكتب ابدا بل يعتمد فى كل فن على من هو أحسن تعليما ، يقولون : ليس العلم فى القرطاس انما العلم ما حواه الرأس .

وقد كان شيخ الاسلام النووى — رغم ذكائه وقوة حافظته يعتمد فى دروسه على شيوخه ، ونجده يتلقى عنهم يوميا اثنى عشر درسا شرحا وتعليقا : درسين فى الوسيط ودرسا فى المهذب ، ودرسا فى الجمع بين الصحيحين ودرسا فى صحيح مسلم ودرسا فى اللمع لابن جنى ودرسا فى اصلاح المنطق ودرسا فى التصريف ودرسا فى أصول الفقه ودرسا فى أسماء الرجال ودرسا فى أصول الدين ، وقد قال عن نفسه : وقد كنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة وضبط لغة ، وبارك الله فى وقتى(٤٥١) .

---

(٤٤٨) الغزالى : احياء علوم الدين جـ ١ ص ٤٩ .

(٤٤٩) نفس المرجع جـ ١ ص ٤٢ .

(٤٥٠) الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ١٤ .

(٤٥١) الدكتور مجاهد الجندى : من شيوخ الاسلام : محيى الدين النووى — مقال نشر بمجلة منبر الاسلام عدد صفر سنة ١٤٠٤ هـ نوفمبر ١٩٨٣ م ص ١١١ .

واذا حضر طالب العلم درس الشيخ سلم على الحاضرين بصوت يسمع جميعهم ويخص الشيخ بزيادة تحية واكرام ، ولا يقيم احـدا من مجلسه او يزاحمه قصـدا ، الا أن تكون فى ذلك مصلحة يعرفها القـوم وينتفعون بها من بحثه مـع الشيخ لقربه منه ، او لكونه كبير السن أو كثير الفضيلة والصلاح أو زائرا من الزائرين ٠

وقـد جرت العادة فى مجالس العلم والتدريس بجلوس المتميزين قبـالة وجـه المدرس ، أو المبجلين من معيـد أو زائر عن يمين او يسار الأستاذ ، وعلى زملاء الحلقة أن يجتمعوا فى جهة واحـدة ليكون نظر الشيخ اليهم جميعا عنـد الشرح ولا يخص بعضهم فى ذلك دون بعض(٤٥٢) ٠

وينبغى لطالب العلم الا يستحى من السؤال اذا ما أشكل عليه العلم ولم يتعقله لكن السؤال يجب أن يكون بلطف وحسن خطاب وأدب ، ولا يسأل عن شىء فى غير موضـعه الا لحاجـة أو علم بايثار الشيخ ذلك ، واذا سكت الشيخ عن الجـواب فلا يلح عليه ، فاذا أخطـأ الشيخ فلا يرد عليه الخطـأ فى الحال ٠

وكما لا ينبغى للطالب أن يستحى من السؤال فكذلك لا يستحى أن يقول لم أفهم اذا سـأله الشيخ لأن ذلك يفـوت على الطالب مصلحته العـاجلة وهى فهم المطلوب ، والآجلة هى اعتقاد شيخه فيه الصـدق وسـلامته من الكذب والنفاق واعتيادة كذلك(٤٥٣) وكان المدرس أحيـانا يقـوم مقام السائل فيلقى على طـلابه بضعة من الأسئلة ليختبر فهمهم ويجيب هـو عليها(٤٥٤) ٠

واذا حضرت نوبة الطالب فى القراءة ، فاذا اذن له الأستاذ ، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يسمى الله تعالى ويحمده ويصلى على النبى (ص) وعلى آله وصحبه ، ثم يدعـو للشيخ ولوالديه ولمشايخه ولنفسه ولسـائر المسلمين ، وكذلك يفعل كلما شرع فى قراءة درس أو مطالعته أو مقابلته أو تكراره

---

(٤٥٢) تذكرة السامع والمتكلم – مرجع سبق ــ ص ١٤٦ ــ ١٥١ ٠

(٤٥٣) تذكرة السامع ص ١٥٦ ــ ١٥٧ ٠

(٤٥٤) د٠ أحمد شلبى : التربية الاسلامية ص ٣٧٧ ٠

فى حضور الأستاذ او فى غيبته الا أنه ينبغى أن يخص الشيخ بذكره فى الدعاء عنـد قراءته عليـه(٤٥٥) ٠

جهود ورحلات الطلاب لتحصيل العلم وتجشمهم مشاق السفر :

تجشم طلاب العلم مشاق السفر ، وتعرضوا لألوان من التعب الجسمانى والنفسى فى سبيل تحصيل العـلم ، وكان سفرهم الى مراكز العـلم فى البـلاد الاسلامية يتم عن طريقين :

(أ) طريق برى :

عبر الصحراوت الواسعة ودروبها الطـويلة ، وهى غير مأمونة العـواقب حيث تعرض كثير من الطـــلاب لقطاع الطرق الذين سلبوهم أموالهم وكادوا يقتلونهم ٠ وقـد تعرض حجـة الاسلام الغزالى وهـو طالب للصوص الذين أخـذوا راحلته ومخلاته ونقـوده ، وكادوا يقتلونه ، وعندما هموا بالرحيـــل وتركوه وحيدا ، رجا كبيرهم واستحلفه ان يعطيه المخلاة فان بها أوراقا لاتفيدهم جمعها فى عـدة سنوات ، فاعطوها له ٠

(ب) طريق بحرى :

كان الطـلاب غالبـا ما يركبون سفنا شراعية يركبها التجار ويصـــحبون معهم العلمـاء حسبة لوجـة الله تعالى او يدفـع الطالب الأجرة ، وغالبا ما كانت هـذه الرحلة محفـوفة بالمخاطر ؛ فالمراكب كانت تتعرض للعواصـف والزوابع والأعاصير ، واحيانا كانت تنقلب السفن ويغرق جميع من فيها ٠ وشتان بين السفر اليوم والسفر فى تلك العصور فالسفر شاقا والرحلات مجهـدة ، فلم تكن الطرق معبدة ولم تكن القـوافل منتظمة ٠٠٠

ولكن الطلاب لم يأبهوا بعناء ولم يخشوا مشقة ، بل خرجـوا فى طلب العلم جماعات وفرادى يسعون فى عزم قـوى ومثابرة فائقة ، حيث بدالهم العالم الاسلامى كله وكأنه قطر واحـد ، وندر ان أحس مغربى فى مصر او عراقى فى الأندلس أنه غريب عن بلـده ٠

---

(٤٥٥) نفس المرجع السابق ص ١٦٢ ٠

وقـد أفاض العـلامة ابن خلـدون عن الرحـلات العلميـة وعقـد فصـلا لهـذا الغرض ملخصة : ان الرحـلة فى طلب العلوم مفيدة لأن البشر يأخـذون معارفهم وأخـلاقهم تارة علما وتعليما والقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، الا ان حصول الملكات عن المباشرة والتلقين اشـد استحكاما واقـوى رسـوخا ، والرحلة تفيد كثرة الشيوخ ، وعلى قـدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكـة ورسوخها ، فتعـدد المشايخ يفيد تعـدد الطرق ، اذ ان لكل منهم طريقته فى التعـــــليم(٤٥٦) ٠

والحقيقة أن الرحلات العلمية بدات فى العصر الاسلامى الأول حيث دعت الضرورة الى تفرق الصحابة فى الأمصار الاسلامية المفتوحة عقب الفتح مباشرة ليعلموا الناس امور دينهم ويفرعوهم القرآن ويروا لهم الأحاديث ، واتام كل واحـد من هـؤلاء حلقـة علمية فى مسجد البلـد الذى نزله ، واصبح لكل واحـد منهم مدرسة خاصة لهـا طابع معين ٠

ومن هـؤلاء الصحابة من كان استأثر ببضعة من احاديث الرسول (ص) لم يروها عنه غيرهم ومن ثم كان للناس شغف كبير برواية هـذه الأحاديث عنهم ، فأخـذوا يسعون سعيا الى هـؤلاء الصحابة لينتفعوا بعلمهم ٠

وكانت قيمة طالب العلم عند الناس تتناسب مـع ما قام به من رحـلات علمية وعـدد الشيوخ والأساتذة الذين تلقى عنهم ، وكل هـذه الظروف شجعت الطالب على تلقى العلم فى بقاع العالم الواسـع ٠

وهـذه بعض الأمثلة التى توضح ماذهبنا اليه :

نشأ يحيى بن يحيى الليثى فى قرطبة ، ورحـل الى المشرق وعمره ٢٨ سنة فسمع من مالك ابن انس الموطـا فى المدينة ، ورحـل الى مكة فسمع من سفيان بن عينيه ورحـل الى مصر فسمع من الليث بن سـعد وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم ثم عاد الى الأندلس(٤٥٧) ٠

---

(٤٥٦) المقـدمة ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ ٠

(٤٥٧) ابن خلكان ٠ وفيات الأعيان حـ ٢ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ٠

ولدينا فى العصور الاسلامية « محيى الدين النووى » الذى أكثر من التطواف والرحيل من مكان الى مكان طلبا للفقه والحديث ، فزار الحجاز وبيت المقدس وغيرهما من مراكز العلم ٠٠ قدم من بلدته الى دمشق سنة ٦٤٩ هـ وسنه آنذاك ثمان عشرة سنة فسكن الرواحية ، واكتفى بخبز المدرسة وحفظ « التنبيه » فى اربعة أشهر ونصف ، وربع كتاب « المهذب » فى بقية السنة ، ثم توجه مع أبيه الى الحجاز للحج والزيارة والدراسة فمكث هناك شهرا ونصف الشهر ، ثم عاد الى الشام وزار بيت المقدس ثم عاد الى بلدته « نوى » وقد نبه فى الفقه والحديث واللغة والأصول والمنطق ، وكان قدوة فى كل مرحلة يرتحل اليها ، وآية فى كل خطوة يخطوها تاليفا وتصنيفا وحديثا ورواية وافتاء وجمعا وشرحا ، حتى احبه الناس وتبركوا به(٤٥٨) ٠

الملمات والمهمات لم تعق الطالب عن تحصيل العلم :

كان حرص الطالب على درسه شديدا لما يعلم من الجزاء الذى أعده له الله فى الجنة ، ومما يدل على حرصهم على درس العلم حتى ولو ألمت بهم الملمات ما حكاه ابو يوسف قاضى القضاة انه قال : مات لى ولد ، فأمرت من يتولى دفنه ، ولم أدع مجلس أبى حنيفة خوفا أن يفوتنى منه يوم(٤٥٩) ٠

هذه بعض الأمثلة التى تسجل للطلاب المسلمين حماسه ربما كانت نادرة المثال ، وحرصا على طلب العلم يصل بهم الى القمة فى قوة العزم والاستهانة بالمصاعب ، وقد أردت بهذا التدليل على ما سبق ، وأن أطرى هذه الهمة العالية ، وأروح عن نفس القارىء ففى بعضها طرافة وجمال ٠

عدد الطلاب فى حلقة العلم :

شملت حلقات العلم المساجد والمدارس ، وبدراستنا للحجج الشرعية واللوائح الداخلية للمدارس التى أنشأت فى العصور الاسلامية نجد أن عدد الطلاب فى هذه المدارس يختلف من مدرسة الى اخرى ، كما يقل عدد طلاب المدرسة كثيرا عن عدد طلاب الجامع ، حيث تكون الحلقة فى المسجد مفتوحة ،

---

(٤٥٨) د٠ مجاهد الجندى : من شيوخ الاسلام محيى الدين النووى — مرجع سبق — ص ١١١ ٠

(٤٥٩) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف حـ ١ ص ٢٠ ٠

اما حلقة المدرسة فهى محـدودة بعـدد معين حـدده الواقف فى لائحـة المدرسـة الداخلية ، حسبما وقفـه وحبسه وسـبله على اهـل العـلم بمدرسته وحسبما تغله هـذه الأوقاف من ريع على المدرسة ٠

ومن ثم كانت حلقات مشاهير العلماء تتسع لمئات الطلاب روى القزوينى انه كان فى حلقة درس العلامة رضى الدين النيسابورى أربعمائة فقيـــه من الفضلاء(٤٦٠) وكان يحضر مجلس علم أبى الطيب الصعلوكى مفتى نيسابور اكثر من خمسمائة طالب علم(٤٦١) ٠

وكان عـدد الطلاب بالجامع الأزهر مثلا سنة ٨١٨ هـ سبعمائة وخمسون طالبا ٠ ذكر ذلك المقريزى فى كتابه « الخطط » ٠

اما عـدد طلاب العلم بحلقات الجامع الأحمـدى بطنطا فيختلف من حلقة الى اخرى ، فبينما كان عـدد الطلاب فى بعض الحلقات عشرة وصل عـدد بعضها الى ثلاثمائة طالب ويزيد(٤٦٢) ٠

وكانت حلقة محمد بن سليمان النعالى امام المـالكية بمصر فى عصره ، تحوز حـول سبعة عشر عمودا فى الجامع من كثرة من يحضرها(٤٦٣) ٠

وفى المدرسة كان الواقف يعين المدرسين والطلاب ، ولا يصح تجاوز هـذا العـدد بحال من الأحـوال الا اذا زاد الريع الموقـوف على المدرسة فللناظر أن يزيد على ذلك ٠

وقـد بلغ عـدد الطلاب بمدرسة برسباى بالصحراء سبعة عشر طالبـا ومعهم مدرس حنفى(٤٦٤) ٠

---

(٤٦٠) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٣١٧ الطبعة الأولى ٠

(٤٦١) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٣ ص ١٧٠ ط القـاهرة سـنة ١٣٢٤ هـ ٠

(٤٦٢) سجل حصر المجاورين بالجامع الأحمدى سنة ١٣٠٣ هـ ٠

(٤٦٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣١٢ ط القاهرة سـنة ١٣٢١ هـ ٠

(٤٦٤) حجـة السلطان برسباى ٠ أرشيف وزارة الأوقاف ٠

أما الطلاب فى جامع المؤيد شيخ فقد بلغ عددهم : الأحناف خمسون ، والشافعية اربعون ، والمالكية عشرون والحنابلة خمسة عشر طالبا والمحدثون عشرون نفرا والقراء بالسبع خمسة عشر نفرا(٤٦٥) هذه تقريبا نماذج لعدد طلاب العلم فى الجوامع والمدارس ، لم تكن محددة فى المساجد عكس المدارس التى ارتبطت الدراسة فيها باللوائح والمراسيم التى يسير عليها ناظر الوقف ٠

ســن التعــليم :

لم يكن هناك سن محدد للتعليم اخذا من قول الرسول (ص) « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » بل كان كل مسلم يشتاق الى طلب العلم فى أى فترة من فترات عمره حتى ولو كان شيخا كبيرا جلس فى حلقاته دون ما مانع يمنعه ، قيل لحكيم ما حد التعليم فقال : حد الحياة ، ويروى الزرنوجى انه ليس لصحيح البدن والعقل عذر فى ترك طلب العلم مهما كان عمره(٤٦٦) فالعمر كله ينبغى أن يكون مسرحا لتلقى العلم غير ان علماء التربية المسلمين يحبذون التبكير فى طلب العلم لما له من فوائد جمة حيث نشاط الجسم وفراغ البال وصفاء النفس ٠

* * *

(٤٦٥) حجة وقف المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف ٠

(٤٦٦) تعليم المتعلم ص ٢٥ ٠

الفصـــل الرابع

اهم العلوم التى كانت تدرس فى العصور الاسلامية عند المسلمين وطرق تدريسها :

بعـد أن تحدثنا عن اهم معاهـد التعليم فى معظم العـالم الاســلامى كأوعية للعـلم يهمنا بعـد ذلك أن نتحـدث عما فى داخل هذه الأوعية من علوم وأهم العلوم التى كانت تدرس فى هـذه المعاهـد هى :

أولا – العلوم الشرعيـة أو النقليـة :

وهى العلوم التى انتقلت الينـا عن الشـارع الحكيم ، ولا مجـال لاعمال العقل فيهـا الا فى الحـاق المسائل الفرعيـة بأصولهـا ٠

وأصل هذه العلوم النقلية هى الشرعيـات من الكتاب والسنة التى هى مشروعة لنـا من الله ورسوله ، وما يتعلق بذلك من العلـوم التى تهيئهـا للافـــادة ٠

وهى مأخـوذة من الكتاب والسنة بالنص أو الاجمـاع أو بالالحـــاق وأصناف العلوم الشرعيـة أو النقلية كثيرة منهـا :

١ – علـوم القــرآن :

ومنها القراءات ، وعلم التفسير وعلم كتابة المصـحف وتذهيبه وغير ذلك ٠

٢ – علـوم الســنة :

وهى حديث رسول الله صلى الله عليـه وسلم رواية ودراية ٠

٣ – علوم الفقـه وأصـوله :

وعلم الكلام وعلم التصوف وعلم تعبير الرؤيا ٠

ولابد لمن أراد علوم الشريعـة أن يكـون ملمـا بعلوم اللسان العـربى من اللغة والنحـو والبيـان والأدب ؛ اذ مأخـذ الأحكام الشرعيـة كلهـا من الكتاب والسنة وهى بلغة العـرب ونقلتهـا من الصحابة والتابعين عرب ،

وشرح مشكلاتهـا من لغاتهم فلابد من معـرفة العلوم المتعلقة بهـذا اللســان لمن اراد علم الشريعـة(٤٦٧) ٠

واهم مقاصد علوم اللسان العربى هى : اللغـة ، النحـو ، البيـان ، الأدب كمـا ذكـرنا ٠ ولكـن العلامة شيخ الاســلام الشيخ زكريا الأنصارى يذكـرها فى اربعـة عشر علمـا وهى :

علم اللغة ، علم الاشـتقاق ، علم التصريف ، علم النحـو ، على المعانى ، علم البيـان ، علم البـديع ، علم العروض ، علم القـوافى ، علم قرض الشعر ، علم النثر ، علم الكتابة ، علم القراءات ، علم المحاضرات ومنه التواريخ(٤٦٨) ٠

ثانيـا ـ العلوم العقليـة أو الحكمية أو الفلسـفية :

وهـذا النـوع من العـلوم كان مشـــتهرا فى العصـــور الاســـلامية ويطلق عليهـا البعض علوم القـدماء أو الأول أو علوم العجم ، وهـذه العلوم يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكـره ، ويهتدى الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينهـا ووجـوه تعليمهـا بمداركه البشرية ٠

وتشـتمل على عدة علوم هى :

١ ـ علم المنطق ، وهو علم يعصم الذهن عن الخـطأ ٠٠٠

٢ ـ العلم الطبيعى : ويشتمل على المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكـونة عنها من المعدن والنبات والحيـوان والأجسام الفلكية وغيرها(٤٦٩) ٠ فهـذا العلم يشتمل اذن على مجمـوعة العلوم التى تعـرف اليوم بالعلوم الطبيعيـة والعلوم الحيـوية(٤٧٠) ٠

٣ ـ العلم الالهى : وهو النظر فى الأمور التى وراء الطبيعة من الروحانيات ولبحثه فى الالهيات سمى العـلم الالهى ويسميه البعض « العلم الأعلى » لعلو

---

(٤٦٧) مقـدمة ابن خلـدون ص ٤٣٥ ـ ٤٧٨ (ط التجارية) ٠

(٤٦٨) زكريا الأنصارى : اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم ص ٧ وما بعــدها ٠

(٤٦٩) المقـدمة ص ٤٧٨ (ط التجـارية) ٠

(٤٧٠) فتحية سليمان : المذهب التربوى عند ابن خلدون ص ٣٤

موضعه بسبب تجـرده عن المـادة ، ويسـمى علم ما بعـد الطبيعة لقـراءتهم اياه بعـد العلم الطبيعى(٤٧١) ٠

٤ — العلم الناظر فى المقادير : ويسمى « العلم الرياضى » ويشتمل على اربعة علوم تسـمى التعاليم وهى :

(أ) علم الهندسة : وهو النظر فى المقادير على الاطلاق ٠

(ب) علم الأرتماطيقى : وهو علم العـدد أو علم الحســاب ٠

(ج) علم الموسيقى : وهو معـرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقـديرها بالعـدد لمعرفة تلاحين الغنـاء ٠

(د) علم الهيئة : وهو تعيين اشكال الأفلاك وحصر اوضـاعهـا وتعـددها لكل كوكب ٠٠(٤٧٢) الخ ٠

٥ — العلوم الفلسفية : وتشـمل علوم السياسة والأخـلاق وعلم تدبير المنزل ، ويتفـرع كل منهـا الى فـروع ٠

بقى أن نشير الى قسم رابع من أقسام العلوم انفـرد به الشيخ زكريا الأنصارى وهو :

العلوم العقلية : وزاد فيها على من سبقوه : علم الطب وعلم الميقات علم النواميس وعلم الفلسفة وعلم الكيميـاء وعلم أصـول الدين ٠٠٠ الخ ٠

وينبغى ملاحظة أن العلمـــاء حرموا تدريس بعض العلوم كعلم السحر والطلسمات ومتعلقاتهـا ، وليس لدينـا دليل على تدريسها بأحـد معاهـد التعليم ، ويحتمـل انها كانت خاصة بأناس معينين يتوارثونهـا أو يعلمونها لبعضهم البعض خفيـة فى البيوت ٠

وقـد انعكس تقسيم العلوم الى مباحة ومحرمة عند المسلمين الى الاهتمام دائمـا ببعض العلوم واهمال البعض الآخر ، أو تجاهله تمـاما ، وكان حكم

---

(٤٧١) طاشكبرى زادة (أحمد بن مصطفى) مفتـاح السعادة ومصباح السيادة (ط الهنـد) ج ١ ص ٢٥٥

(٤٧٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٤٧٦ ــ ٤٧٨

علمـاء كل عصر لهـذا العلم او عليـه هـو الذى يحـدد هـذه النظرة من ناحيـة تحريمه أو اباحته أو فرضيته ٠

ومما هو جدير بالملاحظة أن العلوم الشرعية والعلوم العربية المساعدة لها حظيت عمـوما باهتمام كل العلماء وكانت موضع تقـديرهم ، ولذلك كانت تدرس تقريبا فى كل المؤسسات التعليمية ، وهناك نوع من العلوم المبـاحة كان موضع اهتمـام بعض العلماء دون جميعهم وهو علم الطب الذى اشتغل به علمـاء كثيرون ، لكن نسبتهم لاتقـــارن بدارسى العـــلوم الشرعية واللغـوية مثـلا ٠

وهـذه ـ باختصـــار شـديد(٤٧٣) ـ هى العـــلوم التى درست فى المؤسسات العلميـة الاسلامية وكانت اساسا للنهضة التى قامت فى اوربا فى العصور الحديثة وحتى الآن ٠

وسنتحدث الآن عن المنهج والطريقة التى استخدمت فى المرحلة الأولى ، واول هـذه العلوم هو : تعلم الكتـابة والقراءة ، وثانيهـا هو حفظ القرآن الكريم وثالثهـا : تعليم الطفل مبادىء العلوم الدينيـة والعربية ورابعها : تعليم الصبى علم الحساب أو علم الاستخراج كما تشير الى ذلك حجة برسباى وغـيرها من الحجج الشرعيـة ٠

منهج تدريس العلوم فى المؤسسات العلمية الاسلامية

اولا ـ تعـلم الكتـابة والقـراءة :

كان على الطفل الذى يذهب الى الكتاب وفى بدء حيـاته التعليمية ، أن يتعلم قبل كل شىء الكتابة والقـراءة ، ولتعليمهـا قواعد وأساليب يجب على المؤدب تطبيقهـا مراعيا التدرج بالطفل فيها حسب سـنه ومقـدرته العقليـة

---

(٤٧٣) الحقيقة أن شرح هذه العلوم ودراستها بالتفصيل يدخل فى نطاق مادة اخرى هى « تاريخ الحضـــارة والفـــكر الاســـلامى » وهـذا المؤلف فى (التربية الاسلامية) وبتوفيق الله وبحـوله وقوته سيظهر لنا كتاب فى الحضارة والتراث والفكر الاسلامى وبالله التوفيق والعون (المؤلف) ٠

من السهل الى الصعب فالأصعب وهكذا حتى يتعلم فى النهاية كيف يتهجى وكيف يقرأ قراءة صحيحة مع استخدام كل ما يقرب المعلومات الى ذهن الطفل بالشرح مع وسائل ايضاح كلما امكن ذلك ٠

والعلامة النويرى أحد اعلام العصور الاسلامية يضع لنا طريقة سهلة واضحة لتعليم الصبى الكتابة وكيفيتها ، حيث يبدأ تعليمه حروف الهجاء (الألفابت) مفردة أولا ثم مركبة بعد ذلك ، ثم يضع له المؤدب النقط على الحروف المعجمة(٤٧٤) ٠

فاذا أتم الصبى هذه المرحلة من التعليم اختبره المؤدب بتقطيع الحروف ، ويسأله عنها على غير ترتيبها المعروف ، كأن يسأله عن النون مثلا ثم الجيم ثم الضاد وغير ذلك ٠

فاذا علم المؤدب حال الصبى وأنه أتقن وأجاد هذه الحروف هجاها له حرفا حرفا بحيث يضع له كل حرف من حروف الهجاء مرة فى المرفوع ومرة فى المنصوب ومرة فى المجرور ومرة فى المجزوم ، فاذا اتقن الصبى ذلك وامتحنه المؤدب فيه ، جمع له كل حرف الى آخر كتابة ، على ان يبدأ معه بالباء مع الألف والتاء والثاء والياء والنون كذلك ، ثم يتبعها بالجيم والحاء والخاء مع الألف والسين والشين كذلك والصاد والضاد والطاء والظاء مع الألف والعين والغين والفاء والقاف والكاف واللام والميم والهاء واللام ، كل ذلك مضموما مع الألف ٠

فاذا اتقن هذه المرحلة نقله الى الجيم وزميلتها مع الألف وكذلك مع الباء وزميلتها ، ثم مع الجيم وزميلاتها وهكذا ٠

ثم يعلمه كتابة البسملة وكيفيتها ، وكيفية تركيب الكلمات من المقاطع السابقة بضم بعض المقاطع الى بعضها لتوليد الكلمات ، ويتدرج

---

(٤٧٤) راجع : اللؤلؤ النظيم – مرجع سابق – ص ٧ والحروف المعجمة خمسة عشر حرفا هى : الباء والتاء والثاء والجيم والخاء والذال والزاى والشين والضاد والظاء والغين والفاء والقاف والنون والياء ، وباقى الحروف الثمانية والعشرين تعتبر مهملة وهى الثلاثة عشر حرفا الباقية (المؤلف) ٠

معه المؤدب شيئا فشيئا فى الكتابة ، وتدريبه فى استخراج الحروف بالهجاء ، وما يتولد منها اذا اجتمعت الى أن يقوى فيها لسانه ويده ، ويقرأ ما يكتب له ويكتب ما يقترح عليه من غير منبه ولا مساعد(٤٧٥) ٠

ويرى العلامة القلقشندى وهو من العلماء البارزين ، ان ترتيب الحروف الهجائية يكون على ضربين : مفرد ومزدوج ، وفى كلا النوعين خلاف فى الترتيب بين المشارقة والمغاربة ، فأهل المشرق يرتبون الحروف كما ذكرنا ، ولكن أهل المغرب يرتبونها هكذا : أ (بتث) (جحخ) (دذ) (رز) (طظ) (كلمن) (صض) (عغ) (فق) (سش) (هولاى) ٠

وأما المزدوج فأهل المشرق يرتبونه هكذا : ابجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ ٠

وأما المغاربة فيرتبونه : ابجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص فرشت ، ثخذ ، ظغض(٤٧٦) ٠

الفرق بين الخط المغربى والمشرقى :

وقع خلاف بين أهل المغرب عن أهل المشرق فى جزئية من جزئيات التنقيط ، ذلك أن أهل المغرب رأوا أن ينقطوا حرف الفاء بنقطة واحدة من أسفل ، أما القاف فتنقط بنقطة واحدة من أعلاها عكس المشارقة الذين رأوا أن تكون نقط الفاء والقاف من أعلا ، للفاء نقطة وللقاف نقطتان(٤٧٧) ٠

تأتى مراحل تعليم الكتابة للأطفال بعد اجادة الحروف المفردة وصورها عن ظهر قلب ، وهو التمييز بين الحروف المعجمة(٤٧٨) والحروف المهملة التى أشرنا اليها ٠ أى أن الصبى يحفظ الحروف الهجائية بالمنقوط من حروفها وغير المنقوط فيعرف أن (أ) ليست منقوطة ، (ب) نقطة من تحت اى أن تحتها نقطة واحدة ، (ب) فوقها نقطتان فقط (ث) فوقها ثلاث نقط نقط ، وهكذا بقية الحروف ٠

---

(٤٧٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٩ ص ٢١٨ — ٢١٩ ٠

(٤٧٦) صبح الأعشى ج ٣ ص ١٨

(٤٧٧) المصحف الشريف — مرجع سابق — ص ٣٧ ، ٣٨

(٤٧٨) المعجمة التى أزيلت عجمتها بتنقيطها وتحديدها ، والمهملة هى الحروف غير المنقوطة (المؤلف) ٠

المرحلة التى تلى ذلك هى : حفظ الطالب لكل الحروف وصورها وترديدها من آن لآخر بصرف النظر عن كونه يعرف معنى الحرف ام لا .

والمرحلة التى تلى ذلك كما يقول النويرى : فيهجيه — اى المؤدب — الحروف بعد ذلك حرفا حرفا ، كل حرف هجاء فى المنصوب والمجرور والمرفوع والمجزوم مثل : (تا) ، (تى) ، (تو) ، (ات) وهكذا بقية الحروف مثل (طا) ، (طى) ، (طو) ، (أط) وغيرها .

أما المرحلة التى تلى ذلك وهى الأخيرة فهى : حفظ الحروف بحركاتها ، فيتعلم أولا كيف ينطق الحروف ذات الحركة الواحدة وهكذا :

(تَ) بالفتحة منصوبا ، (تِ) بالكسرة يكون مجرورا ، (تُ) بالضمة يكون مرفوعا ، (بْ) بالسكون يكون مجزوما .. وهكذا .

ثم ينتقل بعد ذلك الى الحركتين هكذا :

(باً) بالتنوين (وهو نون ساكنة) عليه حركتين نصب من فوق ، (بٍ) بالتنوين ثم ينتقل ثالثا بعد ذلك الى الحركات مع الشدة وهكذا :

(بّاً) أى أن الحرف عليه من فوق فتحتين مع شدة ، (بٍّ) أى أن الحرف عليه من فوق كسرتين مع شدة ، (بٌّ) أى أن الحرف عليه من فوق ضمتين مع شدة .

هــذه — تقريبا — هى المراحل التى يمر بها الصبى فى طريق حفظه للحروف بحركاتها وسكناتها **كما سبق** أن أشرنا — ويستطيع بعد ذلك كتابة كلمات وتهجيها ، **وعلى المؤدب أن يكثر من التعليم والتمرين للصبية** بعمل تطبيقات يومية على الدروس السابقة ، وبعد ذلك سيتحول الصبى شيئا فشيئا من كتابة الكلمة الى كتابة الجملة ، وعندئذ يكون قد أتقن الكتابة وأجاد القراءة ، ويصبح بعد ذلك متأهلا لحفظ القرآن الكريم ، وهى المرحلة التى تلى اجادة الكتابة والقراءة .

وهــذه هى الطريقة التى حفظنا بها القرآن فى الكتاب ومازال معمولا بها فى كتاتيب ريفنا العريق ، حيث ينفق عليها أصحاب النفوس الخيرة من الأغنياء والأثرياء . وقد حفظ معظم طلاب الأزهر القرآن الكريم بهذه الطريقة قبل أن يلتحقوا به .

ثانيا — طريقة تعليم وحفظ القرآن الكريم :

صحبنا الصبى الصغير وهو يتعلم الكتابة والقراءة فى الكتاب ، وسرنا معه فى طريق رحلته نمهد له الطريق فى تعلم الكتابة بطرقها المختلفة رويدا رويدا ، والتى قد تستغرق من الصبى عاما أو أقل أو أكثر حسب استعداده وطاقته وقدرته على الاستيعاب ، وما منحه الله من مواهب كامنة فيه ، وبعد أن يجيد الصبى تعلم الكتابة والقراءة ويتميز فيهما ننتقل به الى تعليم القرآن الكريم ، حيث لايجوز أن يقدم على حفظ القرآن الكريم غيره من العلوم .

ويذكر ذلك العلامة السبكى فى كتابه « معيد النعم » : واذا تعلم الصبى الكتابة فمن حق معلم الصغار الا يعلمهم شيئا قبل القرآن ، ثم بعده حديث النبى (ص) ولايتكلم معهم فى العقائد(٤٧٩) ويفيدنا هذا النص أن الهدف من تعلم الكتابة والقراءة هو فى الأساس القرآن الكريم .

وكانت طريقة حفظ القرآن الكريم هى أن ينقل الصبى نقلا حرفيا من المصحف بعض آيات يحددها له المؤدب أو العريف فيحاكيها ويقرأها مع التأمل بعد أن يقرئها اياه حتى يتعود لسان الصغير على القراءة الصحيحة .

يقول السبكى « ... وله (اى المؤدب أو العريف) عدم تمكين الصبى المميز من كتابة القرآن فى « اللوح » وحمله وحمل المصحف الشريف وهو محدث »(٤٨٠) .

وهذا النص يفهم منه ان طريقة حفظ القرآن الكريم هى بكتابته فى الألواح ، ثم حفظه بعد ذلك ، اى أن الصبى يحفظ القدر الذى كتبه فى اللوح من الآيات الكريمة دفعة واحدة ، أو يحفظه آية آية ، ثم بعد ذلك يعيد قراءة هذا القدر فى النهاية ، وكلاهما يؤدى فى النهاية الى حفظ جملة المكتوب فى اللوح.

---

(٤٧٩) معيد النعم ومبيد النقم — مرجع سبق — ص ١٧٠

(٤٨٠) معيد النعم ص ١٧٠

مراحـــل حفظ الصـــبية للقرآن

أما العلامة ابن الحاج فقــد حدد المراحل التى يمر بها الصــبية فى حفظهم للقرآن الكريم فقـــال : « وينبغى أن يكون وقت كتبهم الألواح معلوما ، ووقت تصـــويبها معلوما ، ووقت عرضها معلوما ، وكذلـــك قراءة الأحزاب ، حتى ينضبط الحال ولا يختل النظـــام ، ومن تخلف عن ذلك منهم لغير ضرورة شرعية ، قابله (أى المؤدب) بما يليق به(٤٨١) .

والذى نفهمه من هـــذا النص أن الصبى الذى كان يبغى حفظ القرآن فى الكتاب لابد أن يمر بعـــدة مراحل : فهو ينقل فى لوحه ما حدده لـــه (المؤدب) أو (العريف) من آيات القرآن ، والتى يتدرج فى مقدارهـــا بما يتناسب مع الصغير ودرجة حفظه واســـتيعابه ، ثم يزيد على هذا المقدار شيئا فشـــيئا كلما نضج عقل الصبى ، وعليه أن يـــذهب الى المؤدب فى وقت معين ليصـــوب عليه النص القرآنى من ناحية ســـلامة النقل ، ووضوح الخط والأخطاء الاملائية ، ثم بعـــد ذلك يقوم الصبى بقراءة النص القرآنى وعرضـــه على المؤدب ليصحح له ما يقع من خطأ او تلعثم فى القراءة أو عيب فى مخارج الحروف وغير ذلك حتى يستطيع الصبى أن يقرأ القرآن قراءة سليمة صحيحة بعيدة عن التحريف أو الخطأ .

ثم أن الصبى يقوم بترديد هذه الآيات التى كتبت فى اللوح الى أن يحفظهـــا حفظا جيدا ، حيث يقوم المؤدب بتسميعها له فى اليوم التـــالى ، فاذا اخطأ الصبى فى التســـميع صحح له المؤدب ذلك الخطأ ، فاذا كثرت اخطاء الصبى ، رده مرة أخرى ليعيد حفظ اللوح من جـــديد بعـــد أن يزجره بما يستحق .

ومن ثم نعلم أن طريقة الحفظ الســـائدة فى العصور الاسلامية هى : الكتابه والحفظ فى اللوح وهناك طريقة اخرى وهى الحفظ من المصحف مباشرة ، حيث يوضـــع المصحف على « رحلة » — (حامل المصحف) —

(٤٨١) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٢٩٨

من الخشـــب امام الصبى ، ويقوم هو بدوره بالتكرار فى القدر المحدد له حتى يتم له حفظه .

الا أن هناك طريقة اخرى لحفظ القرآن ، وهى طريقة « التلقين » وهـــذه لاتكون الا لمن حرموا نعمة البصر ، أو من ابتلى بالبلادة والتخلف عن الصـــبية.

وفى هـــذه الحالة كان المؤدب ينتحى ناحية بهذا النوع من الصبية ليلقنهم القرآن فيقرأ هو القرآن بصـــوت مرتفع وهم يرددون قراءته حتى يتم حفظ القدر المحدد لهم .

وكان العريف غالبا هو الـــذى توكل اليه هـــذه المهمة الشـــاقة ، واحيانا كثيرة كان يقوم بالتلقين بعض الصـــبية الذين قاربوا على الانتهاء من حفظ القرآن ، كما كان هؤلاء يقومون بالاضافة الى ما سبق بتسميع ما يسمى بالمـــاضى لأطفال الكتاب من الصـــغار ، كان على المؤدب ان يضطلع بهـــذه المهمة وحده ، وهـــذا هو ما يعنيه ابن الحاج حينما قال : « وينبغى له (أى المؤدب) اذا وكل بعضـــهم ببعض الا يجعل صـــبيانا معلومين لشخص واحـــد منهم ، بل يبدل الصـــبيان فى كل وقت علـــى العرفاء ، مرة يعطى صبيان هذا لهـــذا ، وصبيان هـــذا لهذا ، لانـــه اذا كان لواحـــد صبيان معلومون فقد تنشـــأ بينهم مفاسد بسبب الود لايشـــعر بها ، فاذا فعل ما تقدم ذكره ســـلم من هذا الأمر ، ويفعـــل هو فى نفسه مثل ذلك ، فيأخذ صبيانهم تارة ، ويـــدفع لهم آخرين فان كان الصبيان كلهم صـــغارا ، فلابد من مباشرة ذلك كله بنفســـه ، فان عجز عنـــه فليأخـــذ من يســـتنيبه من الحفاظ المـــأمونين شرعا باجرة أو بغيرها(٤٨٢) .

آداب كتابة القرآن على الألواح وازالتها :

لمـــا كان القرآن هو أشرف الكتب ، لأنه كتاب الله الذى« لا يأتيه البـــاطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، ولمـــا كان

---

(٤٨٢) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٩٧

كلامه أصـــدق الكلام « ان هو الاوحى يوحى » كانت هناك آداب وقواعد مرعية فى كتابة آياته على الالواح وازالتهـــا لاعادة كتابة لوح جـــديد مكانها وهكذا .

فمن الواجب على المؤدب أن يخصص مكانا طاهرا مصانا نظيفـــا لغســـل الألواح لايمشى فيه ولايداس بالأقـــدام ، ومع ذلك عليه ان يحفر حفرة ويجمع المـــاء المتجمع من غســـل الألواح ليضعه فيها أو يلقيه فى بئر ، أو يجعل فى اناء طاهر ، كما يجب أن تكون الخرقة التى يمســـح بها الألواح طاهرة ، وأن يكون المـــاء الذى تغمس فيه طاهرا .

وقـــد تعود بعض الصبيان على مسح الألواح ببصاقهم ، فيمنعهم المؤدب من ذلك لأن البصـــاق مستقذر وفيه امتهان ، والموضع موضـــع ترفيع وتعظيم فيجل من ذلك وينزه(٤٨٣) .

ثالثا — تعليم الصبيان مبادىء علوم الدين واللغة وحفظ متونها :

كان على مؤدب الأطفال بعد أن يفرغ من تعليمهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم أن يعلمهم مبـــادىء علوم الدين واللغة ، أى أن النشـــاط التعليمى داخل الكتاب كان يمتد ليشـــمل تعليم الأطفال بعض الأحاديث النبوية وآداب الـــدين ، وتعليمهم عقائد أهل الســـنة والجماعة ، بما يتناسب مع السن والفهم ، وكذلك قواعـــد اللغة وما يستحسن من المراسلات والأشعار « ويدرجه بذلك » حتى يالفه طبعا » .

تحسين الخطوط وتجويدها بوسائل الايضاح :

« وفى وقت بطالة المـــادة يأمرهم (أى المؤدب) **بتجويد الخط على المثـــال**(٤٨٤) » ويفهم من هـــذا النص وغيره من النصوص(٤٨٥) أن

---

(٤٨٣) نفس المرجع ج ٢ ص ٩٨ ، ٩٩

(٤٨٤) معالم القرية فى أحكام الحسبة لابن الاخوة — مرجع سبق — ص ٢٦٠ ، مقدمة ابن خلدون ج ٤ (ط وافى) ص ١٢٣٩ — ١٢٤١

(٤٨٥) راجع حجة برسباى — مرجع سبق .

الصـــفار أيضا فى اجازاتهم المعتـــادة كانوا يتعلمون تحســـين الخطوط وتجويدها بأمثله من وســـائل الايضاح توضع أمامهم فيقلدونهـــا ويكتبون مثلها أو يقوم المؤدب نفسه بكتابتها أمامهم ونحو ذلك(٤٨٦) .

كما كان على المؤدب ان يعلم الصـــبيان مبادىء العلوم العربيـــة من نحو وصرف وبلاغة وغيرها ، وأن يكلفهم بحفظ بعض متونها السهلة القريبة الى نفوسهم كالفية ابن مالك فى النحو والصرف ، ومتن ابى شجاع فى الفقه الشافعى ، فانه قد اشتهر لديهم **((من حفظ المتون حاز الفنون))** .

وكان الاطفال يكتبون هـــذه المتون على الواحهم أيضـــا من املاء مؤدبيهم ((ويكلفهـــم عرض ما املاه عليهم حفظا غائبـــا لانظرا))(٤٨٧) ويمنعون من ســـماع الأشعار التى فيها ذكر للعشق واهله ، ويحفظون من مخالطة الادباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس الفساد فى قلوبهم(٤٨٨) .

هذه هى — تقريبا — المواد التى كانت تدرس بالكتاتيب لطلاب العلم فى المرحلة الأولى وهى دراسات تمهيدية ينتقل الصبى بعدها الى المرحلة الثانية بعـــد عرضه على لجنة من الشـــيوخ الذين يمتحنون الصبى ويسمحون بانتقاله الى المرحلة التى تلى ذلك وهى المرحلة الثانية .

مراقبة سلوك الأطفـــال وعقوبتهم :

كان على المؤدب وهو يعلم الأطفال ان يراقب سلوكهم ليقوم بتربيتهم لأنه قدوة لهم ، فمثلا اذا بلغ الصبى ســـبع سنين علمه الصلاة فى جماعة ، وعاقبة على تركها بعـــد بلوغه الى سن عشرة سنين ، لحديث : علموا أولادكم الصـــلاة لسبع ، واضربوهم عليهـــا لعشر ، وفرقوا بينهم فى

---

(٤٨٦) ما يؤيد قولنا هذا أيضا عثورنا على مجموعة من الخطوط العربية بالخط الكوفى وبالقلم المغربى ، وهى نماذج نادرة وفريدة عثرنا عليها بدشت رواقى الاتراك والمغاربة (المؤلف) .

(٤٨٧) معالم القربة ص ٢٦١

(٤٨٨) المدخل جـ ٣ ص ١٨١

المضاجع » . كما أن عليه أمرهم ببر والديهم والسمع والطاعة لهما ، وتقبيل أياديهما عند الدخول عليهما .

فاذا خرج احد من الصبيان عن قانون الشرع كاساءة الأدب والفحش فى الكلام فانه يضربه على ذلك ، وعليه كذلك أن يمنعهم من لعب القمار بكل ضروبه واشكاله(٤٨٩) .

وقد شدد بعض المعاصرين من المؤرخين النكير على المؤدبين الدين يستخدمون الصبيان فى اعمالهم الخاصة ، واشغالهم التى فيها عار على أهليهم ، كنقل التراب والزبل وحمل الحجارة وغيرها ، كما منعوا مؤدبى الأطفال من اخراج الصبى مع المرأة بحجة كتابة كتاب ومحوه ، فان جماعة من الفاسقين يحتالون على الصبية بذلك(٤٩٠) .

العقوبات :

نادى علماء التربية عموما بالرفق بالصبيان وعدم ايذائهم لأول وهلة ولايجب ان يؤخذ البرىء بذنب المذنب ، بل ينبغى أن يثاب المطيع ويشجع ويعاقب فقط المسيىء المخالف .

ولكن الأمور لاتستقيم على وتيرة واحدة ، والأطفال فيهم الهادىء والمشاكس المعاكس لمؤدبه وزملائه معا ، ولن تستقيم حال هذا الصبى الا بالعلاج والصبر والمثابرة ، فهى أجدى نفعا من استخدام العنف والضرب وغير ذلك ، فاذا استعصى الداء ولم ينجع الدواء قام المؤدب بضرب الصبى ضربا غير مبرح حتى يستقيم على الجادة .

وقد اشترطوا فى عصا المؤدب التى يضرب بها الطفل المخالف : الا تكون غليظة تكسر العظم ، ولا رقيقة لاتؤلم الجسم ، بل يجب أن تكون وسطا « ويتخذ مجلدا عريض السير ويعتمد بضربه على الالايا (جمع اليه) والأفخاذ واسافل الرجلين ، لأن هذه المواضع لايخشى منها مرض ولا غائلة .

---

(٤٨٩) معالم القربة : مرجع سبق — ٢٦١
(٤٩٠) نفس المرجع والصفحة .

وهــذا النظام امتد الى الوقت القريب بالمكاتب الأهلية ، حيث كان مؤدب الكتاب يقوم بجلد الصبى الــذى لم يحفظ القرآن من اللوح والماضى ، وكذلك اذا اســاء الأدب أو خرج على الأعراف المتفق عليهــا ، وكانت « الفلقه » وعصا المؤدب الغليظة هما الأداتان اللتان يرهب بهما الأطفال فى الوقت المناسب .

أهمية القــدوة فى حياة الطفــل :

بما أن الطفل لايقلد من الاعمال الا ما يشــعر بأهميته فى ذاته ، أو بأهمية الشــخص الصادر عنه ، وأن أهمية الشخص الصادر عنــه العمل تنشأ عن حب الطفل له أو اجلاله اياه .

وهــذا الموضوع لم يستوف حقه من البحث حيث لايتســع المقــام لذلك .. وحسبنا أن نقرر أن علماء التربية فى العصــور الاسلامية اهتموا بالقدوة والاســوة الطيبة ، ويكادون يجمعون على أن الفضــيلة تغرس فى الأطفال بالأعمال اكثر مما تغرس بالأقوال ، وحمل الطفــل على محاكاة الأعمال أمثــل وأقوم فى تربيته وأعظم نفعا له وأســهل على مربيه من حمله على محاكاة الأقوال وعلى أن الصــورة التى تتكون فى ذهنه عقب عمل مرئى أقوى أثرا وادعى الى المحاكاة من الصــورة التى يؤلفها لديه كلام مســموع .

ويجب كذلك أن تكون أعمال الكبار الذين يشعر الطفل بالميل الى تقليدهم صالحة لاعداده للحيــاة المستقبلة اعدادا صحيحا من النواحى الجسمية والعقلية والخلقية وان يجنب الطفل مخالطة أهل السوء .

وكما أن الافراط فى الا عتماد على التقليد فى التربيــة والتعليم عامل من عوامل الجمود رغبة فى ســبيل التقدم الفردى والاجتماعى ، فانــه بذلك يقضى على شخصــية المتعلمين ويعوق ماعسى أن يكون لديهم من استعداد للنبوغ والابتكار .

لذلك فمن الواجب على المربين فى العصر الحاضر ان يختاروا أواسط الأمور ، ويجانبوا ناحيتى الافراط والتفريط ، فلا ينبغى أن يهملوا الانتفاع

بميل الطفل الى المحاكاة ففى ذلك اغفال لعامل هام من عوامل التربية ، ولكن لاينبغى كذلك ان يجعلوا كل اعتمادهم على التقليد ، ففى ذلك اعتداء على شخصيته الفردية ، وتقوية لوسائل الجمود على القديم ، وتعويق لعوامل التجديد والابتكار ومحاربة لسنن الارتقاء ، « وكان بين ذلك قواما » .

رابعا — تعليم الاستخراج « الحساب » :

شمل منهج التعليم بالكتاب ايضا تعليم مادة « الحساب » وهى ما يطلق عليها فى بعض الحجج الشرعية اسم « الاستخراج » ، بالاضافة الى تعليم الكتابة والقراءة وحفظ القرآن ومبادىء العلوم الدينية والعربية ، وبعض الناس كانوا يعلمون أولادهم الكتابة والقراءة وحفظ القرآن والمتون فى مبادىء العلوم الدينية والعربية ، ثم ينقلونهم الى كتاتيب النصارى ليتعلموا بها مادة الحساب .

وقد حذر ابن الحاج بعض عوام المسلمين الذين يخرجون أبناءهم من الكتاب « الذى يقرءون فيه كتاب ربهم عز وجل ، ويتعلمون فيه شريعة نبيهم عليه الصلاة والسلام ، ويذهبون بهم الى كتاب النصارى لتعليم الحساب » بحجة أن النصارى فى علم الحساب والطب احذق وأعرف فى تعليمهما من المسلمين .

وقد أكد بعض علماء التربية ان ذلك غير صحيح بالمرة لأن الصبى الصغير لم يلم بشىء بعد من الحساب ولاغيره « فلا حاجة تدعو الى التعليم عند النصارى وفى المسلمين من يعرف أكثر منهم ومن غيرهم » .

واستقبح من يفعل ذلك خوفا على عقيدة الطفل الصغير الذى لم يقرأ كتب العلم ولم يعرف أقوال العلماء ولم تحصل له بعد قوة الايمان ورسوخه فى نفسه .

وكان سبب هذه التحذيرات والتأكيد عليها خوف العلماء على عقيدة الطفل الصغير من المسيحيه لأن الصغير فى هذه السن المبكرة يحاكى ما حوله ويتأثر به ، فهو كالعجينة الطازجة من السهل تشكيلها بأى شكل من الأشكال(٤٩١) .

---

(٤٩١) راجع : المدخل لابن الحاج ، مرجع سبق — ج ٢ ص ١٠٣ ، ١٠٥

ثانيا : منهج وطريقة التدريس بالمرحلة الثانية :

أشرنا الى علوم المرحلة الثانيـــة عند حديثنا عن اهم العلوم التى كانت تـــدرس فى العصـــور الاســـلامية بمعـــاهد التعليم الاســـلامى وهى العلوم الدينية والعلوم العربية والعلوم الفلسفية والعلم العقلية .

ونضيف أن العلوم الشرعية كان لهـــا المقام الأول فى الاهتمـــام بتدريسهـــا فى كل المؤسسات العلمية على الاطلاق ، وذلك أن الثقافـــة العربية الاسلامية فى العصور الاسلامية كانت ثقافة دينية خالصة ، فهى صورة مشرقة لحياة الأمة العربية والاسلامية .

فقد كثرت المؤلفات والمصـــنفات فى جميع فروع العلم وعناصره ، وظهر فى أفق الحيـــاة العلمية شخصيات بارزة من العلماء امتازت بسعة الأفق والنبوغ والتفوق كان لهـــا الأثر الأكبر فى تقدم العلوم وازدهارها ، بالاضـــافة الى العاطفة الدينية المشبوبة والأعنـــاق المشرئبة للدفاع عن الاســـلام من الأخطـــار المحيطة بـــه كان هنـــاك الســـلاطين والأمراء والتجـــار والعلماء والأثرياء يميلون الى العلم وتشجيعه بكافة الســـبل ، فكتب التراجم والتـــاريخ والسير الذاتية تحدثنا عن حب هؤلاء للعلـــم والعلماء ، ولم يوجـــد سلطان فيهم قليل العناية بالعلم او فاترا فى تشجيع أهله ، بل كان أحـــدهم اما شاعرا أو فقيهـــا أو محدثا أو صـــاحب تصانيف(٤٩٢) .

كما اهتم الســـلاطين والأمراء والتجـــار والعلماء والأثرياء فى الدولة الاســـلامية بانشاء المدارس وغيرها من المؤسسات التعليميـــة واوقفوا عليهـــا الأوقاف وانفقوا بسخاء على العلماء والطلاب ، فأغنوهموأراحوهم من البحث عن الغذاء والكســـاء والسكنى ، فتفرغوا للعلم وبذلوا فيـــه طاقاتهم .

---

(٤٩٢) راجع كتاب « جواهر الكلام فى أحكام الصـــيام على مذهب ابى حنيفة النعمان » مخطوط بمكتبـــة الأزهر رقم ١٠٤٠ أباظة ٦٣٤٧ مجاميع (فقه حنفى) .

منهج الدراســـة :

لم يكن هنـــاك منهج محدد شامل عام بالدقـــة الموجودة فى العصر الحاضر ، يقرر ســـنويا فى كل سنة من الســـنوات الدراسية ، بل كان الطالب يختار المـــادة العلمية التى يرغب فى دراستها ويجد هوى نفسه فى الاقبـــال عليها ، وعليه ان يطلبها فى المدارس التى تخصصت فيهـــا كمدارس الحـــديث أو التفسير أو الفقه على مذهب كذا أو الطب أو الفلك أو غير ذلك .

كان طالب العلـــم فى العصـــور الاســـلامية بعـــدا انتهائـــه من المرحلة الأولى (الكتاب) يبدأ بقراءة الكتب السهلة المختصرة ، ثم يتوسع شيئا فشيئا فى الدراســـة والقراءة حتى يصل بفكره وجهده الى قراءة الكتب المطولة المتعمقة التى احتفظت بشـــهرة خاصة جعلتها مقصد طلاب العلم على مر العصـــور ، وعلى الطالب أن يختار منها ما يناسب مستواه الذهنى والثقافى وقدراته وامكاناته كمبتدى ومتوسط ومتعمق .

وعليه كذلك أن يختار الشيخ الذى يحبه ويفهم منه هـــذا العلـــم أو ذاك .

فان بعض الأساتذة كان بارعا فى تبســـيط الحقائق العلمية ذا أسلوب سهل يناسب عقول المبتدئين ، وهناك شـــيوخ آخرون ضليعون فى العلم قمة فى التحليل والمنـــاظرة والتفكير ، لكن اسلوبهم كان عاليا يحتاج الى أناس معينون يفهمون ما يقولون .

الا أن هنـــاك نوعا ثالثا من الشيوخ كانت شروحه وســـطا بين السهولة والصـــعوبة وللطالب ان يجلس فى الحلقة التى ترتاح اليها نفسه ان سهلا أو صعبا أو وسطا .

وكان بعض الشـــيوخ لهم اسلوب عال على الطلاب بحيث انهـــم استصعبوا هـــذا العلم ، وطلبوا من الشـــيخ ان ينزل بأسلوبه لهم حتى يفهموا منه لكن الشيخ رفض وقال لطلابه أصعدوا أنتم الى ، فبعد كذ وكذا تصيرون الى ما تريدون .

نظـــام الدراسة هو نظام الحلقات العلمية :

كانت الدراســـة فى معاهد التعليم فى صورة حلقات ، حيث يجلس الشـــيخ الجليل بجوار اســـطوانة من اساطين المدرسة او المؤسســـة العلمية والطلبة ملتفون عليه وهو فى هيئته الجميلة والطلاب ينصتون اليه وكان على رءوسهم الطير .

وكان الصـــف الأول فى الحلقة يقـــال له الطبقة الأولى ، والصف الثانى يقـــال له الطبقة الثانية ، والصـــف الثالث الطبقة الثالثة وهكذا الى نهاية الصـــفوف فى الحلقة .

وكان يجلس فى الصف الأول عادة اذكياء الطلاب وكبار الزوار وكبار السن وكان يجلس فى الصف الثانى الذين يلونهم فى الأهمية وكذلك بقية الصفوف وغير ذلك .

وقد تعددت الحلقات العلمية فى المؤسســـات العلمية واقلهـــا فى المؤسسة الصغيرة كالرباط والزاوية الصغيرة مثلا ثلاث حلقات : احداها للفقه على مذهب الواقف ان شافعى او حنفى او مالكى ، واخرى للحديث وثالثة للتفسير وغيرها .

اما المؤسسة العلمية الكبرى فكانت تحتوى على العديد من الحلقات : حلقات الفقه على المذاهب الأربعة ، والتفسير ، والحديث ، والقراءات ورسم المصـــحف ، وعلوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وعروض وقافية وغيرها وعلوما عقلية كالمنطق والتوحيد والفلســـفة والطب والهندســـة والطبيعة والجبر والموسيقى وتدبير المنزل والتربية وغيرها .

واحيانا كان لكل فرع من فروع المعرفة اكثر من حلقة ، بعضهـــا للمبتدئين فى العلم وبعضها للمتوسطين فيه ، وبعضها للمنتهين منه ولكل طالب حرية اختيار الحلقة المناسبة له(٤٩٣) .

---

(٤٩٣) الدكتور مجاهد الجندى : الأزهر ورحلة الألف عـــام بحث نشر فى مجلة المصور عدد ١٨ مارس سنة ١٩٨٣ مرجع سبق .

تقســـم الكتب :

كان الكتاب الواحـــد يتكون من عـــدة اجزاء تبلغ احيانـــا **عشرين** جزءا أو اكثر او اقل ، ولا يمكن للشـــيخ ان يشرح هـــذا الكتاب فى سنة واحدة لكل الطلاب ، فكانت العـــادة أن يقســـم مثل هذا الكتاب الى عدة أقسام : قســـم منه يدرس للمبتدئين وقسم منه للمتوسطين ، وقسم ثالث للمنتهين ، وقســـم رابع للدراسات التخصصية وهو ما يطلق عليـــه الآن اسم « الدراسات العليا » .

وهناك طريقة أخرى لتقســـيم مثل هـــذا الكتاب بتعين جزء منـــه لطلاب الســـنة الأولى ، فاذا انتهوا منه فى هـــذه السنة درسوا الجزء الثانى فى الســـنة الثانية ، فاذا وصلوا الى الســـنة الثالثة قرر عليهم الجزء المخصص لهم وهكذا حتى ينتهوا من دراســـة الكتاب كله فى نهاية الســـنة الرابعة مثلا وكان كل شـــيخ يختص بتدريس جزء من هـــذا الكتاب أحيانا حسبما تقتضيه لائحة المؤسسة .

طريقة القـــاء الدروس :

كان الشيخ يجلس فى صدر الحلقة على كرسى من الخشب أو الجريد مســـتندا الى عمود من الأعمدة ، وهـــذا الكرسى هو الذى انتقل الى جامعات العـــالم شرقا وغربا باسم « كرسى الأستاذية » وهـــذا التقليد أخذ من التربية الاسلامية فى مدارس الاسلام العظيم .

وكان الشـــيخ : يرتجل درسه ويلقيه من رأســـه واحيانا يلجأ الى الأمالى فيملى على الطلاب من كتابه أو كتاب غيره ، فاذا انتهوا من كتابة كتبهم راجعوها على الشـــيخ وتعتبر نموذجا صحيحا سليما ككتاب الشيخ تماما وهذا هو السر فى وجود نســـخ كثيرة من الكتاب الواحـــد بمكتبة الأزهر مثلا .

وكان الشـــيخ يختار أحد طلابه النوابغ من ذوى الأصوات العظيمة واللسان الفصـــيح ، ليقرأ له الدرس اليومى المقرر على الطلاب وهو ما يسمى بقارىء الشيخ ، وهو غير قارىء سورة الكهف يوم الجمعة .

وقارىء الشـــيخ هذا هو ما اطلق عليه اسم **المعيد** فى عصرنا الحاضر، وانتقل هذا التقليد شرقا وغربا الى جامعات العالم .

مهمة المعيـــد :

من مهام المعيد القراءة فى المخطوط ، فيقرأ عبـــارة عبارة او فقرة فقرة ، وفى كل نهاية الفقرة يقف ليشرح الشيخ الألفاظ الشاذة أو الصعبة ، فاذا انتهى الشـــيخ من الشرح انتقل القارىء الى فقرة أخرى وهكذا حتى ينتهى الدرس يوميا .

ومن مهام المعيد أيضـــا انه بعد نهاية الدرس للطلاب مع شيخهم يقوم المعيد باعادة ماالقاه الشـــيخ للطلاب بصورة مطولة مسهبة ، ويجيب على كل ما يوجه اليه من أسئلة .

والحقيقة أن المعيد كان يقوم بـــدور بارز فى تبسيط العلوم للطلاب بعـــد خروج الشيخ ، ذلك أن الشـــيخ له هيبة ووقار وسلطان فى نفوس الطلاب وقلوبهم وهـــذه الهيبة والوجل فى نفوسهم تجعلهم فى خجل شديد من توجيه الأسئلة الى الشـــيخ ولهذا كان وجود المعيد معهم وهو طالب منهم يتيح لهم كثيرا من الفرص للافادة والاستفادة .

بقى أن نشير الى طريقة المناقشة والمناظرة وهى أحسن الطرق السابقة لتحصيل العلوم :

فالشيخ كان يفجر قضـــية من القضايا ويلفت انظار طلابه الى توجيه الأسئلة فيهـــا والشيخ يسأل طلابه وهم يجيبون وهو يصحح لهم الاجابة ، ويسألونه فيما لم يستطيعوا فهمه وهكذا وهو يجيب على أسئلتهم ، حتى اذا ما انتهى الـــدرس لم يبق واحد من الطلاب الا وقـــد هضم العلم الذى هو بصدد فهمه ومناقشته والمناظرة فيـــه ، واحيانا تكون المناظرة بين المدرسين ، والطلاب ينظرون ويستمتعون .

كيف يبدأ الأستاذ الدرس :

كان الشيخ يفتح درسه ويبداه بالبسملة والحمدلة والحوقلة والصلاة والتسليم على رسول وعلى آله وصحبه والدعاء لشيوخه ولوالديه والحاضرين ولجميع المسلمين بالرضى والقبول والرحمة والغفران ، وقد يتلو الشيخ بعض آيات من القرآن الكريم او بعض احاديث الرسول الكريم التى يحث فيها الطالب على طلب العلم للعلم ، وعلى التواضع فى طلبه ، وعلى حسن السيرة والأخلاق ، مبينا وموضحا لهم أن ذلك يعين على فهم العلم وحل معضلاته وادراك معمياته ، ثم يبدا درسه بعد هذه المقدمة(٤٩٤) .

فاذا كان الشيخ المدرس سيملى على طلابه من مذكراته التى كتبها لأول مرة ، فان الدرس يسمى « املاء » وعليه فى هذه الحالة أن يلقى درسه ببطء فقرة فقرة ، أو حديثا حديثا مع اتصال السند والطلاب يكتبون خلفه ما يمليه عليهم ، وكلما أملى الشيخ فقرة أو فقرات وقف وعرج على الشرح والتفسير والتحليل والايضاح للألفاظ الغامضة فى الفقرة ، والطلاب يدونون على هوامش قراطيسهم ، هذه الشروح الزائدة عن الأصل ، حتى اذا اكتملت هذه الأمالى وكمل الموضوع ، فانه ربما قرأها أو قرءت عليه لتصحيحها ، فاذا انتهى من تمامها فان الشيخ قد يوقع على النسخ كلها أو بعضها ذاكرا أن هؤلاء الطلاب قرءوا عليه نسخة من كتاب كذا فى علم كذا ، ويضيف أحيانا انه اجازهم أو أجاز بعضهم أن يدرسوا ذلك باذنه أو يروا عنه .

ومن هذه الأمالى تكونت آلاف المخطوطات التى طبع منها الكثير ومازال الأكثر منها ينتظر النور ليخرج من الدهاليز والظلام ، واتخذت هذه الكتب أو المخطوطات عناوين مختلفة حسب موضوعها وبعضها احتفظ بلفظ « الأمالى » عنوانا لها كأمالى أبى على القالى وأمالى المرتضى

---

(٤٩٤) راجع مقدمة تصدير السيوطى الذى القاه بجامع شيخون ليحظى بدرجة التدريس مخطوطة بمكتبة الأزهر رقم ٢٠٤ مجاميع .

وابن الحاجب وغيرها . ويجب مراعاة الدقة التامة فى النقل والتصحيح(٤٩٥) .

وكان ممن عنى بالاملاء معظم العلماء المدققين الذين يرون تقييد العلم بالكتابة حتى لايضيع ومن هؤلاء : شيخ الاسلام : ابن دقيق العيد « محمد بن وهب بن مطيع القشيرى » والذى من أماليه « شرح عمدة الأحكام » وهو يدل على علو كعبه فى العلم ومنزلته فيه . وممن حضر مجلس املائه بمدينة « قوص » سنة ٦٥٩ هـ حمزة بن محمد بن هبة الله نجم الدين الاسنوى(٤٩٦) .

اصول ولوازم ينبغى مراعاتها فى تصحيح ونقل الامالى :

ينبغى عند مقابلة الكتاب وتصحيحه ومراجعته على اصله الصحيح او على شيخ أن يشكل المشكل ويعجم المستعجم ويضبط الملتبس ويتفقد مواضع التصحيح بضبط اللغات والأعلام والأسماء ، واذا احتاج الى ضبط ذلك فى الحاشية او ما بين السطور فعل ، حيث أن الاعتناء بضبط الأسماء وبيان ذلك مفصلا فى الحاشية أمر اعتاده المتقدمون فى تصنيف كتبهم ونسخ أسفارهم .

ويضرب « ابن جماعة » لذلك مثلا فيقول : « مثل أن يكون فى المتن اسم « حريز » فيقول فى الحاشية هو بالحاء المهملة وراء بعدها وبالياء الخاتمة بعدها زاى أو هو بالجيم والياء الخاتمة بين راءين مهملتين وشبه ذلك »(٤٩٧) .

---

(٤٩٥) د. احمد شلبى : التربية الاسلامية ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ (ط ٦) سنة ١٩٧٨ م .

(٤٩٦) الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد للادفوى ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

(٤٩٧) تذكرة السامع والمتكلم فى ادب العالم والمتعلم لابن جماعة ص ١٨٠ — ١٨١ ط جمعية دائرة المعارف العثمانية / حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٣ هـ .

واذا وقعت منه فى نسخته كلمة زائدة فان كانت كلمة واحـــدة فله أن يكتب عليها ((لا)) وان يضرب عليهـــا بالقلم ، وان كانت اكثر من ذلك ككلمات أو ســـطر مثلا ، فهو بالخيار بين ان يخط عليهـــا خطا دقيقـــا يضرب بـــه على الجميع ويحصل المقصود بهـــذا الخط دون تسويد للورق ، وان شـــاء كتب فوق الكلمات الزائدة ((**من**)) اولها ، او كتب ((**لا**)) وعلى آخرها ((**الى**)) ومعناه من هنا الى هنا ساقط ، ومنهم من يجعل مـــكان الخط المضروب نقطا متتالية (............) ومنهم من يجمع بين الاثنين (........) .

فاذا سها الكاتب وتكررت منـــه كلمة ، ضرب بخط على الثانيـــة لوقوع الأولى صـــوابا فى مكانها الا اذا كانت الأولى آخر السطر فان الضرب عليهـــا أولى صيانة لأول السطر ، فاذا كانت الأولى مضافا اليها فالضرب على الثانية أولى وأوفق الاتصال الأولى بالمضاف .

واذا نسى الكاتب شـــيئا اراد ان يخرجه فى الحاشية ويلحقه بها ، علم له فى موضـــعه بخط منعطف قليلا الى جهة التخريج وجهة اليمين أولى ان كان ذلك ممكنا ، ثم يكتب التخريج من محاذاة العلامة صـــاعدا الى أعلا الورقة ، لانازلا الى أســـفلها لاحتمال اضافة تخريج آخر بعده وهكذا .

ولا يوصل الناسخ الكتابة والأسطر داخل حاشية الورقة ، بل يدع مقدارا يحتمل الحك عدة مرات عند حاجته الى ذلـــك ، ثم يكتب فى آخر الشخريج ((صح)) وقالوا الضرب اولى من الحك لاسيما فى كتب الحديث ، لأن فيه تهمة وجهالة فيما كان أو كتب ((ولان زمانه اكثر فيضيع وفعله أخطر فربما ثقب الورقة وافسد ما ينفذ اليه فأضعفها ، فان كان ازالة نقطة أو شكله ونحو ذلك فالحك أولى))(٤٩٨) .

وقد جرت عادة طلاب العلم ونســـاخ الكتب من الشيوخ فى الكتابة ضـــبط الحروف المعجمة بالنقط ، واما الحروف المهملة فمنهم من يجعـــل

---

(٤٩٨) تذكرة السامع والمتكلم: مرجع سبق — ص ١٨٦ ، ١٩٢

الاهمال علامة على الحرف ، ومنهم من ضبطه بعلامات يذكرونها عليها من قلب النقط « ٧ » أو بشكلة صغيرة كالهلال « (» وغيرها مثل سته ست وست مائة يكتب هكذا كما ذكر .

وعند مراجعة ومطالعة ما صححه الكاتب فى الكتاب وهو فى محل شك ، ينبغى أن يكتب « ح » صغيرة ، وكتب فوق ماوقع فى التصنيف أو فى النسخ « **كذا** » صغيرة يعنى كتب أو جاء هكذا ، ويكتب الصواب فى الحاشية ان كان متحققا منه ، والا فيعمل عليه « **ضبة** » وهى صورة رأس صاد تكتب فوق الكتابة غير متصلة بها ، فاذا تحققه فى المستقبل وكان المكتوب صوابا زاد على تلك الصاد حاء فتصير « **صح** » والا كتب الصواب فى الحاشية كما ذكرنا .

واذا كان الناسخ بصدد كتابة شىء من العلوم الشرعية فينبغى ان يكون على طهارة مستقبل القبلة ، طاهر البدن والثياب ، ويبتدىء كل كتاب بكتابة: « **بسم الله الرحمن الرحيم** » فان كان الكتاب مبدوءا بخطبة تتضمن الحمدلة والصلاة على رسوله كتبها بعد البسملة ، والا كتب هو ذلك بعدها .

وعلى الكاتب عند تفريقه بين التراجم أو بين كل كلام أن يكون ذلك بقلم غليظ تمييزا له عن غيره ولتسهيل الوقوف عليه عند قصده ، ولا يواصل الكتابة كلها على وتيرة واحدة لما فيه من تضييع الوقت فى البحث وعسر استخراج المقصود « ولا يفعل ذلك الا غبى جدا »(٤٩٩) .

وعليه ايضا أن يميز باللون الأحمر من المداد بكتابة الأبواب والفصول والتراجم والأسماء والمذاهب والأقوال والطرق والأنواع واللغات والأعداد وغيرها بهذا اللون ، وعليه فى مقدمة كتابه أن يشير الى هذه الاصطلاحات ليفهم القارىء معانيها .. وقد رمز بالأحمر جماعة من المحدثين والفقهاء والأصوليين وغيرهم لقصد الاختصار .

---

(٤٩٩) نفس المرجع ص ١٩٢

وبعض العلماء منع الكتابة باللون الأحمر قائلا انه من صنيع الفلاسفة لاصنيع السلف(٥٠٠) .

ولكن التمييز فى الكتابة بالحمرة جائز عند اكثر العلماء المتورعين .

ولابأس لكل من يملك كتابا أن يكتب الحواشى والتعليقات والفوائــد والتنبيهــات المهمة ولا يكتب الاها وهى المتعلقة بذلك الكتاب مثل تنبيه على أشكال أو احتراز أو رمز أو خطأ وغير ذلك .

ولا يسود الكتاب بكثرة الحواشى ونقــل المسائل والفروع الغريبة بحيث تظلم الكتاب أو تضيع مواضعها على طالبيها .

* * *

---

(٥٠٠) الزرنوجى : تعليم المتعلم ص ١١

الفصـــل الخـــامس

الأوقاف على اهل العلم ومعاهد التعليم

مقـــدمة :

حقيقة الوقف : هو تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة على بر أو قربة ، والمراد بالأصل : مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه .

الأصل فى الوقف : أن يكون لأجل التقرب الى الله ، الا أن الانسان قـد يوقف على غيره توددا ، أو على ولد خشـية بيعه بعد موته واتلاف ثمنه ، أو خشـية أن يحجر عليه ويباع فى دينه ، أو يقف رياء ، وحينئذ يكون وقفا لازما لاثواب فيه ، لانه لم يبغ به وجه الله .

والوقف مما اختص به المسـلمون ، قال الشافعى : « لم يحبس اهل الجاهلية ، وانما حبس أهل الاسلام » .

وحكم الوقف الندب اذا قصـد به وجه الله لقوله تعالى : « وابتغوا الخير لعلكم تفلحون » . **ودليل مشروعيته : ثبت** تشريع الوقف بالسـنة والاجمـاع .

أما السـنة : فمنها مارواه عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، قال : أصـاب عمر أرضا بخيبر ، فأتى النبى (ص) يستأمره فيهـا ، فقال : يا رسـول الله : انى اصبت ارضا بخيبر ، لم اصب قط مالا أنفس عندى منهـا ، فما تأمرنى فيه ؟ قال : ان شئت حبست أصلهـا وتصدقت بها ، غير أنه لايباع أصلهـا ولايباع‌ولا يوهب ولا يورث — قال فتصـدق بها عمر فى الفقراء وذوى القربى وفى الرقاب وفى سبيل الله وابن السـبيل والضعيف ، لاجناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف او يطعم صديقا غير متمول فيه (متفق عليه)(٥٠١) .

---

(٥٠١) فهرس مكتبة القصبى بطنطا ، ص ١٣٢ ، والوقف اما اهلى أو ذرى (ذرية) أو خيرى ، وقد الغى الوقف الأهلى فى أعقاب القانون رقم ١٨ لسنة ١٩٥٢ م .

كذلك ما روى عن النبى (ص) انه قــال : اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صــدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صــالح يدعو له .

وما اثر عن صدقات النبى (ص) وهى ثمانية : (انما الصــدقاء للفقراء والمساكين والعــاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ... الآية .

وأما الاجماع : فقــد قال جابر : لم يكن أحــد من أصحاب النبى (ص) ذو مقدرة الا وقف .

وهذه هى الأصول الرئيسية الأربعة التى يعتمد وجود الوقف عليها فى الفقه الاسلامى(٥٠٢) .

وقد ازدهر نظــام الأوقاف فى العصور الاسلامية ازدهارا كبيرا ، واعتبر القرن الثامن والتاسع الهجرى العصر الذهبى لانتشــار الأوقاف وكثرتها حتى شمل الوقف كل شىء ، وتطلع كل من لديه مال ثابت أو منقول الى وقفه لسبب أو لآخر .

فشمل الوقف على سبيل المثال الأراضى الزراعية والدور والحوانيت والبســاتين والطواحين ، والمصــابغ ، ومصانع النســيج ، والأفران والوكائل والرباع والقيساريات والأســواق والدكاكين ومحلات الحلاقــة والحمامات وغيرها من مخازن الغلال والأرز ، ومصانع الصابون ، ومعامل ترقيد الفروج(٥٠٣) .

وكان يشرف على هذه الأوقاف السلاطين والأمراء أنفسهم ثم أبناءهم (ابناء الظهور لا البطون) أو من يشترطه الواقف من كبار أمرائه وحاشيته كناظر على الوقف خاصة اذا كان ابن الواقف صغيرا .

---

(٥٠٢) د. احمد عثمان : الاسلام والمعاملات المــالية ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٥٠ — ٢٦٠ ، د. محمد محمد امين : تاريخ الأوقاف ، ص ٣

(٥٠٣) حجة وقف فروخ بن عبد الله ، ٢٣٢ محفظة ٣٧ دار الوثائق القومية ، بتاريخ ٨٢ ذو الحجة ٩٠٦ هـ .

اما**الأوقاف الخيرية** والموقوفة على الحرمين الشريفين ومختلف جهات البر الاخرى فالاشراف عليهـــا كان لقاضى القضـــاة الشافعى ، يعاونـــه ناظر الأوقاف ، وكان لكل من ديوان الأوقاف وديوان الأحباس مباشرين بالاقاليم .

اما الأوقاف الاهلية او التى امتزج فيها الوقف الأهلى بالخيرى فكانت تحت يد النظار طبقا لشروط الواقف(٥٠٤) .

والواقع أن الأوقاف والأحباس التى كانت توقف على المـــدارس والمســـاجد والمكاتب والخنقاوات وغيرها هى التى دعمتهـــا ومكنتها من الانتظام فى أداء رسالتهـــا ، وقد جرت العادة أن ينشىء السلطان المدرسة أو المكتب ، ثم يوقف عليهـــا الأوقاف الواســـعة ليمكن عن طريقها ادامة هـــذا الجهد التربوى وتغذيته باستمرار ، وحتى يستطيع الشيوخ والطلاب التفرغ لأداء رسالتهم فى اطمئنان وراحة بال(٥٠٥) ، فالشيخ يأخذ راتبا نقديا كل شهر ورزقا كل يوم من خبز ولحم وغيره وكسوة مرتين سنويا شتاء وصيفا .

وكذلك الطلبة لم يكن التعليم مجانيا بالنســـبة لهم فحسب ، بل كفل لهم ايضا الملبس والمســـكن فضلا عن المطعم والمقرارات النقدية والعينية التى تصرف لهم وفق شروط الواقف(٥٠٦) .

ويبدو أن هـــذه المقرارات لم تكن موحدة بالنسبة للطلبة كلهم ، وانما كانت تختلف حسبما يراه ناظر الوقف من التسوية والفضل ، وقـــد أدى هذا الى اثارة التحاسد والتباغض بين الطلبة(٥٠٧) .

---

(٥٠٤) راجع تفصيل ذلك فى : د. محمد امين : تاريخ الأوقاف ص ٧٥ وما بعـــدها .

(٥٠٥) مصر فى العصور الوسطى ، ص ٣٩٥

(٥٠٦) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ص ٣٤١

(٥٠٧) ابن الحاج : المدخل ، جـ ٢ ص ١٢٨

ولما كانت ايرادات هذه الأوقاف غير ثابتة ، فقد ترتب على ذلك أن تغير المستوى المعيشى للطلاب والمدرسين ، حيث كان يتذبذب بين فترة واخرى من علو الى انخفاض وبالعكس(٥٠٨) .

ولم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم على أنه المورد المالى للمؤسسة التعليمية ، بل تعدى الأمر ذلك الى كافة جوانب العملية التعليمية ، حتى ليمكننا القول : أن وثيقة الوقف أو كتاب الوقف كان بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسة التعليمية والتى تضم الأسس التربوية للتعليم والشروط التى يجب أن تتوافر فى القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة وما الى ذلك من التنظيمات الادارية والمالية ، وذلك من حيث : الشروط الواجب توافرها فى المدرس والمعيد والمؤدب أو الفقيه والعريف ، وطرق التدريس ، والكتب الدراسية ، وعدد الطلبة ، ومواعيد الدراسة والأجازات السنوية (المسامحات) وانشاء المدارس وامدادها وتزويدها بالكتب مع تحديد الشروط التى يجب توافرها فى خازن الكتب ، ووضع نظم الاطلاع والاستعارة بما يكفل المحافظة على الكتب واستمرار اداء رسالتها(٥٠٩) .

ولايستطيع الباحث مهما أوتى من العلم والفهم والفن والمال أن يحصى كل الأوقاف التى أوقفها الخيرون على مؤسسات العلم فى الاسلام ولذلك سنكتفى فقط ببعض الأمثلة للدلالة على صحة ما نقول .

فمن الأمثلة للأوقاف على المؤسسات العلمية : « أراض بناحية فيشا سليم ونفيا ومحلة المرحوم بناحية طنطا ٥٧٢ فدانا على جامع الحاكم وامام محرابه ، ومن ذلك حصة مبلغها ربع سهم ونصف ثمن سهم : وهى : عشرة أفدنة وثلث فدان وقفها مولانا السلطان الغورى خلد الله ملكه على المدرسة المعمورة بقرية « فيشة » المعروفة بانشاء شمس الدين.

---

(٥٠٨) تاريخ التربية فى مصر ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٥٠٩) د. محمد محمد أمين : تاريخ الأوقاف ، ص ٣٠٨ .

محمد بن وهب الفيشى يصرف منه على ربع المدرســة المذكورة وقريتها وبنو برها ومعلوم امامها.. »(٥١٠) .

اما الوقف على طلاب المرحلة الأولى واســماع البخارى بالمســجد فتذكر حجة وقف الزينى عبــد اللطيف « بتاريخ ٢ جماد أول ٩٠٣ هـ ، ٢ رجب ٩١٧ هـ ، فيصرف للناظر فى كل شــهر **لســتة انفار من الأشراف الحسنيين والحسينيين الأيتام الــذين لم يبلغوا الحلم** بالسوية بينهم لكل منهم درهمين ونصف أو ما يقوم مقام ذلك . على أن يجلســوا مع المؤدب فى كل يوم من ايام الأســبوع بجوار المسجد المذكور .. من أول النهار الى وقت اذان العصر بالمكتب المذكور علو الســبيل ، ويعلمهم مايطيقون تعلمه من القرآن الكريم والخط العربى ، ويصرف للمؤدب بالاضافة الى الامامة ســتة عشر درهما فضة ، فان لم يوجد ايتام من الأشراف ، أبدل بهم أيتام غيرهم .

ويصرف للمؤدب بالاضــافة الى الامامة ستة عشر درهما فضــة .

ويصرف فى كل شهر من شهور الأهلة من الدراهم الفضــة المذكورة أعلاه ثمانية دراهم وثلث أو مايقوم مقامها من النقود عنــد الصرف لسيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشــيخ شمس الدين الفخرى أعزه الله ، جامكية له على وظيفة اسماع صحيح البخارى بالمسجد المذكور .

ويصرف من ذلك فى كل يوم من الأيام من الدراهم الفضة المذكورة أعلاه ، درهم واحد يشترى به **خبز البر الســوقى** ويفرق على الأيتــام الســتة ومؤدبهم والقيم بالمسجد المذكور .

ويصرف فى العشر الأول من شهر رمضــان من كل عام ثمن مايكسو به كل واحــد من الأيتام : قميصا من قماش الكتان الخام ، وملوطة طرح مبطنة وقبعــا ومنديلا غزليا ونعلا ، يشــترى لهم ذلــك على وجــه السرعة(٥١١) .

---

(٥١٠) راجع : حجة وقف قرقماس بن عبــد الله ، ٢٤ شــعبان ٩٠٧ هـ ، رقم ٢٣٣ محفظة ٣٧ م دار الوثائق .

(٥١١) راجع حجة رقم ٢٢٢ محفظة ٣٥ دار الوثائق أماكن متفرقة .

كذلك فى حجة وقف عبد اللطيف المنصـــورى بتاريخ ٢٧ من شوال ٨١٨ هـ ، حـــدد الواقف كتابا وحانوتا لتعليم الأيتام القران الكريم والخط العربى بكل منهما خمسة أطفال ومعهم مؤدبهم : « ويصرف لرجل من أهل الخير والدين حافظا لكتاب الله العزيز عارفا بتعليم الخط العربى وهجائه واستخراجه ، يرتب مؤدبا لأطفال المســـلمين ، ويرتب معه خمسة أنفس من أيتام المســـلمين الذين لم يبلغوا الحلم يجلس معهم بالمسجد المذكور أعلاه لتعليمهم ما يطيقون تعلمه من كتاب الله العزيز وهجائه واستخراجه فى كل يوم من أيام الأسبوع .. » وتكون الأجازة « يوم الجمعة بكماله ويوم الثلاثاء والخميس بعد أذان الظهر وفى أيام الأعياد من كل ســـنة على العادة فى مثل ذلك » .

اما **الحانوت** الموجود بخط التبانة بجوار سكن الواقف بجوار مدرسة السيدة « خوند بركة » فيرتب الناظر به مؤدب معه خمســـة من الأيتام أيضـــا .

الجامكية(*) : « يصرف لجميعهم فى كل شـــهر من شهور الأهلة من ريع الأوقاف المذكورة مائتا درهم ، ما هو لمؤدبهم المذكور خمسون درهما ، وما هو لكل يتيم من الخمسة ثلاثون درهما من الفلوس المذكورة أو مايقوم مقامها من النقود . أما مرتب اطفال الحانوت ومؤدبهم كأطفـــال المكتب ومؤدبهم تماما » .

شروط الأيتام : « شرط الواقف أن من بلغ من الأيتـــام — بالمكتب المذكور هنا واعلاه — الحلم قطعه الناظر ونزل غيره مكانه ممن عســـاه يكون مترددا الى المكتب من أيتام المســـلمين الذين لم يبلغوا الحلم ... الا أن يكون البالغ قـــد حفظ كتاب الله العزيز وبقى عليه اليسير منـــه وهو ممن يرجى فلاحه وخيره فيبقى بالمكتب المذكور الى أن يكمل حفظ كتاب الله .

(*) معناها المرتب الشهرى (المؤلف) .

ويصرف الناظر من ريع الوقف المذكور مايحتاج لصرفه رسم المكتب المذكور بالتبانة من ثمن حصر رسم جلوس الأيتام والفقيه عليها ، وثمن الواح وماء رسم الأيتام ومداد ودوى واقلام ... وما يحتاج اليه المسجد وما يحتاج اليه الأيتام من المشروط ترتيبهم فيه ثمن **الواح ومداد ودوى** على العادة فى مثل ذلك(٥١٢) .

كما يرتب الناظر رجلا من اهل الخير والدين من الفقهاء الشافعية ، يكون اهلا للاشتغال بمذهبه مشاركا فى علمى الاصلين(*) والتفسير والحديث النبوى والنحو ، يكون شيخا **متصدرا بالمسجد المعلق الكاين بخط الكرمانى** ... المعروف بانشاء الواقف .. الصفوى جوهر اللالا المذكور اعلاه ، منتصبا لمن يقصد الاشتغال عليه بالعلم الشريف من ساير الناس اجمعين ، يجلس لهم مجلس ... والتعليم ، ويرتب معه عشرة أنفس من طلبة العلم الشريف الشافعية على انهم يجلسون جميعا بالمسجد المذكور فى كل يوم من الايام التى جرت العادة بالاشتغال فيها من كل أسبوع وهى السبت والأحد والأربعاء فى الشهور التى عادة الناس الاشتغال فيها فى حضور الدروس ... ثم يلقى المدرس لطلبته درسا من فروع مذهبه من صدره او بقراءة احد من الطلبة عليه فى كتاب من كتب الفقه على مذهب الامام الشافعى رحمه الله ، ويقرر المدرس ذلك لهم ويحل لهم ما اشكل عليهم من ذلك وما عسر فهمه عليهم من كشف غامض وحل مشكل ، واذا طلب أحد من الطلبة اشغاله بعلم من العلوم وهى تفسير القرآن العظيم والحديث النبوى واصول الفقه واصول الدين .. وغير ذلك وكان المدرس عارفا بها فيشغله المصدر فيه .

اما وقت الدرس فهو لمقدار ساعة من النهار ما بين طلوع الشمس الى الزوال بحسب راى الشيخ واتفاقه مع طلبته على ذلك ، ويصرف لهم من ريع الأوقاف المذكورة ما مبلغه من الفلوس المذكورة اربعمائة درهم

---

(٥١٢) راجع حجة عبد اللطيف المنصورى ، رقم ٧١ محفظة ١١ ب ، دار الوثائق .

(*) المقصود بالاصلين : علم اصول الفقه وعلم اصول الدين (المؤلف) .

فى كل شـــهر من شهور الأهلة او ما يقوم مقام ذلــك من النقود ما هو للشـــيخ المدرس المــذكور ، مائة درهم لكل واحــد من العشرة ثلاثون درهما . وشروط الدرس والحضـــور والبطالة فى الأيام الجارى العـــادة بها فى البلد ..(٥١٣) .

نماذج من المعاليم بحجج وقف السلاطين :

(أ) حجة وقف المؤيد شـــيخ(٥١٤) :

عين الواقف رحمه الله مدرسون للمذاهب الأربعة : الأحناف والشافعية والمـــالكية والحنابلة ومع كل منهم طلبته بالاضافة الى مدرس للتفسير ومدرس للحـــديث ومدرس للقراءات وامام للجامع وخطيب له كذلك ، كما عين خازنا للكتب وغير ذلك من الوظائف بجامعه الكائن بجوار باب زويلة (أو بوابة المتولى) وشرط لذلك شروطا .

١ — **فالمدرس الحنفى** : يكون رجلا من اهل العلم والصلاح عالمـــا بمذهب الامام المطلق ابى حنيفة النعمان ... يكون شـــيخا للصوفية ، ويكون حسن الهيئة حســـن الاعتقاد ، حافظا لنقول الفقهاء ... ويكون الرجل المذكور .. هو القائم بدرس الحصـــة من كل يوم من أيام الأسبوع ويحضر **وظيفة التصوف** بعـــد العصر من كل يوم على ما جرت به العادة بالخوانق والجوامع بالديار المصرية .

ويصرف له فى كل شهر من شـــهور الأهلة من الفضة البيضـــاء خمسمائة نصـــف ، أو ما يقوم مقام ذلــك من النقود علـــى الوظيفتين « ... ويرتب معه من طلبة العلـــم الحنفية المقلدين للامـــام ابى حنيفة المستعدين لطلب العلم الصـــالحين ... **خمسين** شخصا يحضرون معه فى الوقت الذى يعينه الناظر المذكور ... ويبين الشـــيخ المذكور لكم منهم ما يشـــكل عليه ... من كشف غامض وحل مشكل ... ويحثهم علـــى

---

(٥١٣) المصدر السابق .

(٥١٤) تاريخها ٤ جماد آخر ، ٨٢٣ هـ ، توجد بأرشـــيف وزارة الأوقاف تحت رقم ٩٣٨.

الاشتغال بالعلم الشريف ويفعل معهم ما يفعله المتصدرون للتدريس على العادة فى ذلك . . » .

« ويصرف لكل شخص من الخمسين شخصا **الطلبة الصوفية** المذكورين فى كل شهر من الشهور المذكورة ما مبلغه من الفضة الأنصاف المذكورة **أربعون** نصفا .. وفى كل يوم من أيام الاسبوع **اربعة ارطال** من الخبز القرصة ، يتناول ذلك كل واحد من الخمسين شخصيا .

٢ — والمدرس الشافعى :

« ... يكون رجلا من أهل العلم كاملا من فقهاء الشافعية متصفا فى مذهبه بالصفات المذكورة فى مدارس الحنفية المذكور اعلاه ويرتب **الناظر معه من طلبة العلم الشريف المقلدين** للامام الشافعى ... ممن هم **متصفون بالصفات المذكورة فى طلبة الحنفية المذكورين اربعين** شخصا ، ويشغلهم الرجل المذكور شيخهم المذكور ... ويفعل معهم نظير ما شرط على شيخ الحنفية . . » .

ويصرف لشيخ الشافعية ما مبلغه من الفضة الأصناف فى كل شهر « مائة نصف واحدة وخمسون نصفا » ويصرف لكل واحد من الطلبة الشافعية الصوفية ... **اربعين** نصفا ... وفى كل يوم من أيام الاسبوع **أربعة أرطال** من الخبز القرصة .. يتناول ذلك كل واحد من الأربعين شخصيا الطلبة الشافعية الصوفية .

٣ — **والمدرس المالكى :** ويرتب الناظر رجلا كاملا من أهل العلم من فقهاء المالكية .. ويرتب معه **خمسة عشر** شخصا من طلبة العلم الشريف المقلدين للامام مالك ... ويصرف للشيخ مامبلغه من الفضة الانصاف ... **ماية نصف** ... ويصرف لكل واحد من الطلبة المالكية الصوفية الخمسة عشر شخصا ... فى كل شهر من الشهور المذكورة مامبلغه من الفضة ... **اربعون نصفا** . وفى كل يوم من أيام الأسبوع **أربعة أرطال** من الخبز القرصة يتناول ذلك كل واحد من الخمسة عشر شخصيا الطلبة **المالكية الصوفية** .

٤ — **والمدرس الحنبلى :** رجلا كاملا من أهـل العلم من فقهـاء الحنابلة ... ويرتب معه **عشرة أنفس** من طلبة الحنابلة المقلدين للامـام المطلق الحجة احمد بن حنبل .

« ويصرف لشيخ الحنابلة ... مامبلغه **مائة نصـف** من الفضـة الأنصاف فى كل شهر من الشـهور المذكورة ويصرف لكل شـخص من الأشخاص الحنابلة العشرة المذكورين فى كل شهر من الشهور المذكورة .. **أربعين** نصفا ... وفى كل يوم من أيام الأسبوع **اربعة أرطال** من الخبز القرصـة .

٥ — **ومدرس التفسير :** رجلا كاملا من أهل العلم والصلاح عالمـا بالعربية ولغه العرب وتفسير القرآن الكريم ويكون فصيحا له معرفـة بالاعراب ، ويرتبه الناظر ويرتب معه **عشرين شخصـا** من أهل القرآن الكريم ... يشغلهم الرجل المذكور فى تفسير القرآن الكريم واعرابه ويبين لهم ماعسر عليهم فهمه ... ويصرف للرجل المذكور فى كل شهر من الشهور المذكورة مامبلغه من الفضة « **ماية نصف** واحدة **وخمسون نصفا** » ويصرف لكل واحـد من العشرين شخصـا المذكورين فى كل شهر من الشـهور المذكورة ... **أربعون** نصفا .

٦ — **ومدرس الحـديث :** رجلا كاملا من أهـل العلم والصـلاح **محدثا حافظا** عارفا بأسماء رجال الحديث النبوى دراية ورواية ، نحويا ذا سند عال .

يرتبه الناظر ويرتب معه **عشرين** شخصا من طلبة الحديث النبوى ويفهمهم ما أشكل عليهم .

ويصرف لشـيخ الحديث فى كل شهر من الشهور المذكورة مامبلغه من الفضـة الأنصاف « **ماية نصف** واحـدة **وخمسون نصفا ...** » ويصرف لكل شخص من العشرين المذكورين فى كل شهر من الشـهور المذكورة ما مبلغه من الفضـة الأنصاف **أربعون نصفا** .. وفى كل يوم من أيـام الأسبوع **أربعة** أرطال من الخبز القرصة .

٧ — **ومـــدرس القراءات** : رجلا كاملا من أهـــل العلــم عالمـــا بالقراءات السبع والقراءات الشواذ نحويا متقنا للمقصـــور والممدود وغير ذلك يرتبه الناظر ويرتب معه **عشرة** أشخاص من الطلبة المشتغلين ... ويشغلهم الرجل فى القراءات السبع ، ويجلس بهم فى المكان الذى يعينه الناظر ... فى الجامع المذكور .

ويصرف له فى كل شـــهر من الشهور المذكورة ما مبلغه من الفضـــة الأنصاف **ماية نصف** واحدة **وخمسون نصفا** ويصرف لكل واحـــد من العشرة أشخاص المذكورين فى كل شـــهر ... مامبلغه من الفضة **أربعون** نصفا وفى كل يوم من أيام الأسبوع أربعة أرطال من الخبز القرصة .

٨ — **والأطفال الأيتام : ومؤدبهم : خمسة وستين** من أيتام المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم ومؤدبا وعريفا .. يعلمهم المؤدب مايطيقون من القرآن الكريم والخط العربى ، ويتعدهم العريف المذكور بسماعه عليهم .. على ما هو بصدده ، ويصرف لكل يتيم منهم فى كل شـــهر **عشرة** أنصاف . وفى كل يوم **رطلان** من الخبز القرصة ، ويصرف للمؤدب فى كل شـــهر **ثلاثون** نصفا من الفضـــة وفى كل يوم **رطلان** من الخبز القرصة ، ويصرف **للعريف** فى كل شهر **خمسة عشر** نصفا من الفضـــة وفى كل يوم **رطلان** من الخبز القرصـــة .. هـــذا عن مكتب الجامع بباب زويلة أما كتاب القلعة فيرتب به خمسة عشر يتيما ومؤدبا لهم يعلمهم ما يطيقون تعلمه من القرآن الكريم والخط العربى ، ويصرف للجميع فى الشهر واليوم ما يصرف لزملائهم بمكتب الجامع المذكور(٥١٥) .

وقف السلطان قايتباى على بعض منشآته العلمية(٥١٦) :

خازن الكتب : ويصرف لرجل من أهل الخير والدين والأمانـــة يكون خازنا للكتب يتولى خزن كتب الوقف المنسوب وقفها للواقف مولانا المقام

---

(٥١٥) حجة وقف المؤية شيخ نفس المرجع .

(٥١٦) هذه الحجة كائنة بأرشيف المجلس الأعلى لرعايـــة الفنون والآداب (المجلس الأعلى للثقافة) تحت رقم ٥٠٣ ميكروفيلم .

الشريف ... بخزانة الكتب التى بالجامع المذكور اعلاه ويتولى حفظها وتنظيفها وتنظيف خزانتها من الغبـــار وغير ذلك مما تتأذى به وعمـــل مصالحها ويتفقدها على عادة خازنى الكتب فى ذلك كل شهر يمضى ... مامبلغـــه من الفلوس ... مايتا درهم ... أو ما يقوم مقـــام ذلك من النقود ... وفى كل يوم من الخبز ... رطلان ...(٥١٧) .

الأيتام : ويصرف **لعشرين** يتيما ... الـــذين لم يبلغوا يســـتقرون بمكتب الســـبيل ... الذى بالصـــحرا علو ســـبيل المـــاء المذكور اعلاه يقعلمون (**كتاب الله تعالى والخط العربى والاستخراج** على ما جرت بـــه عادة امثالهم فى الايام التى جرت عادتهم بالتعلم فيهـــا . ومن بلغ منهم اخرجه الناظر واســـتخلف يتيما غيره واجرى عليه ما كان لمن قبله من المعلوم الا أن يكون قـــد بقى عليه شىء يســـير من ختم القرآن العظيم فيستمر فى المكتب الى أن يستكمل حفظ القرآن العظيم ان كان يرتجى فلاحه وخيره ثم يستبدل به غيره ... فى كل شـــهر لكل يتيم منهم من الفلوس **مائة درهم** نصفها خمسون درهما أو ما يقوم مقامها من النقود عند الصرف وفى كل يوم لكل واحد من الخبز **رطلان** بالمصرى(٥١٨) .

المؤدب : ويصرف لرجل من اهـــل الخير والدين والأمانة والعفـــة والصيانة حافظا للكتاب الله العزيز يكون مؤدبا للأيتام يعلمهم كل يوم ... ما يطيقون تعلمه من القرآن العظيم والخط العربى ... فى كل شهر **يمضى** من شـــهور الأهلة الفلوس **اربعمائة** درهم ... وفى كل يوم من الخبز ... **ثلاثة ارطال** بالمصرى(٥١٩) .

العريف : ويصرف لرجل يكون عريفا للأيتام ... فى كل شهر ... **ماية درهم** ... وفى كل يوم من الخبز المذكور ... **رطلان** بالمصرى(٥٢٠) .

---

(٥١٧) ص ١٢٩ ، ١٣٠

(٥١٨) ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٥١٩) ص ١٣٥

(٥٢٠) ص ١٣٥ ، ١٣٦

كسوة العيد : ويصرف **كل سـنة** فى شهر **رمضـان** ... للأيتـام ومؤدبهم وعريفهم ما مبلغه ... **خمسة عشر الف درهم** ... على أن الأيتام المذكورين يستمرون أيام حضورهم بالمكتب المذكور من طلوع الشمس الى وقت العصر فينصرفون حينئذ وقبل انصرافهم يقرون سورة الاخلاص ... ماعدا يوم الخميس من كل جمعة فهم مستمرون بالمكتب الى الظهر ويوم **الجمعة بطالتهم** وكذلك أيام **الأعياد والمواسم** والأعذار الشرعية على العادة فى ذلك(٥٢١) .

كتاب قايتباى المنشأ اسفل الربع الظاهرى :

المؤدب : فيصرف لرجل من اهـل الخير والدين والأمانة والعفـة والصيانة حافظ لكتاب الله العزيز يكون **مؤدبا** للأيتام ... **وعريف وثلاثين يتيما** ... لهم فى كل شهر **أربع ماية درهم** ... وفى كل يـوم من الخبز الموصوف أعلاه **ثلاثة أرطال** بالمصرى(٥٢٢) .

مجمل اوقاف قايتباى بخط الأزهر :

صف حوانيت عدتهـا **أربعة عشر** حانوتا بينها **وكالة** تشـتمل علـى ثمانية وعشرين **حاصـلا** (اى مخزنا) وثلاث مطالع (سلالم) بها سـبعة وثلاثون سكنا وقاعة ورواق علوها داخل **درب الأتراك** وكتاب سـبيل علوه وسـاقية وبير ماء معين ... ومغازل ومسـاكن ومنافع ومرافق وحقوق خارجا عن حوض السبيل(٥٢٣) .

كتاب بخط الجامع الأزهر : ... **ويقرر النـاظر على ذلـك ٣٠ يتيما** .. من ايتـام المسلمين ... **المؤدب** : لتعليمهم ... **والعريف** يعينه على ذلك ... ويجب أن يتعاطى كل منهم ما شرط تعاطيه على المؤدب والأيتام والعريف المقررين بمكتب السـبيل ... الكاين ذلك سفل الربع الظاهرى بالقاهرة المحروسة من الجامكية والخبز وغير ذلك(٥٢٤) .

---

(٥٢١) ص ١٣٦
(٥٢٢) ص ١٤٩ ، ١٥٠
(٥٢٣) ص ١٤٩
(٥٢٤) ص ٢٤١

وقد شرط الواقف أن **من مات** من أرباب الوظائف وله ولد ذكر ، فيه أهلية لوظيفة ابيه صـــالح لمباشرتها قـــدم على غيره وقرر فى وظيفة ابيه ، واجرى عليه ما كان لأبيه من المعلوم ، فان لم يكن صالحا لذلك قـــرر غيره فى وظيفة المتوفى المذكور(٥٢٥) .

وتاريخ الحجة : ٧ شوال سنة ٨٨٤ هـ / ٢٤ ديسمبر ١٤٧٩ م .

أوقـــاف العلمـــاء

أوقف العلماء قـــدر استطاعتهم على العاملين فى حقل العلم بمراحله المختلفة من حرث وبذر وتعهد وعنايـــة وجنى وحصاد ، وذلك بمقـــدار ما يملك كل منهم من مال او ثروة ..

فبعضهم بنى كتابا او مدرسة او زاوية او مسجدا او خانقاه وماشابهها من معـــاهد العلم صغرت او كبرت ، واوقف عليهـــا الأوقاف المناسبة لاستمرار العلم والعبادة بها .

والبعض لم يتمكن من بناء مؤسســـة علمية ، فتبرع عن طيب خاطر بكتبه وقفـــا على طلاب العلم والبعض الآخر وقف الدوى والأحبار على طلاب العلم ونساخ الكتب .

والبعض من العلماء كان يتبرع بثياب بدنه لطلابه ، بل ان بعضهم كان يولم لطلابه ويقيم لهم الموائد الفاخرة بين الحين والآخر او فى المناسبات كالأعياد والمواسم او عند ختم شرح كتاب من الكتب ، وغير ذلك ، كنوع من الصلات الطيبة بين الطلاب وشيوخهم .

والبعض الآخر اوقف على ابناء جلدته خاصة دون غيرها .

وسنضرب لذلك بعض الأمثلة للتدليل على صـــدق ما نقول ، بالاضافة الى ماذكرناه عنـــد حديثنا عن بعض المؤسسات العلمية حيث ذكرنا ايضا

---

(٥٢٥) ص ٢٤٩

الأوقاف والمعاليم التى يتعاطاها الطلاب والشـيوخ بها — فليس المقصود حصر كل الأوقاف التى أوقفها المسـلمون على المعاهد العلمية فهى غاية بعيدة المنال بل تكاد تكون مستحيلة كما أشرنا الى ذلك من قبل .

ومن العلماء الخيرون :

١ — العالم العلامة **محمد بن شـعبة الفار سكورى** ... « بنى مدرسـة قرب بيته ، وعين **الشهاب البيجورى** مدرسا فيها »(٥٢٦) .

٢ — **حسن بن نصر الله بن حسن الفوى** ولد سنة ٧٦٦ هـ وتوفى سـنة ٧٩٠ هـ ، بنى بفوه مدرسـة حسنه على البحر فيهـا خطبـة وتدريس(٥٢٧) .

٣ — **أحمد بن عبد الرحيم بن محمود** عمل مدرسة جده للتـدريس والتصـوف(٥٢٨) .

٤ — **ابو البقاء بن الجيعان** بنى مدرسة بالزاوية الحمراء تقام فيها الجمعة والجماعات وتعلم بها الأوقات(٥٢٩) .

٥ — **يوسف بن ابراهيم بن على التلوانى(*)** القاهرى صـاحب المدرسـة التى خارج باب النصر والذى وقف عليها وعلى غيرها الأوقاف الكثيرة(٥٣٠) .

٦ — **أبو بكر بن محمد بن محمد الانصارى الدمشقى** القاهرى بنى عدة مدارس احداها مجاورة لبيته وواحدة بالقدس ورباطا ومدرسة بالمدينـة وسبيلين بمكة سنة ٨٩٣ هـ(٥٣١) .

---

(٥٢٦) الضوء اللامع — مرجع سبق — جـ ٧ ص ٢٦٦
(٥٢٧) نفس المرجع جـ ٣ ص ١٣٠ ، ١٣١
(٥٢٨) نفس المرجع جـ ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦
(٥٢٩) نفس المرجع جـ ١١ ص ٨ — ١١
(*) نسبة الى « تلوانة » احدى قرى مركز الباجور محافظة المنوفية
(٥٣٠) الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٩٢
(٥٣١) نفس المرجع جـ ١١ ص ٨٨ ، ٨٩

٧ — **محمد بن محمد بن احمد الطوخى القاهرى** كان يجمع العلماء والطلاب والقضاة فى بيته على طعام يصنعه لهم فى كل شهر ويتكلف لذلك الكثير ، فقد كانت له رزق ومرتبات من قبل اسلافه(٥٣٢) .

٨ — **عثمان بن محمد بن احمد السراجى** — نسبة لمنية سراح بالمحلة الكبرى — جلس لتعليم الأيتام احتسابا بالمدرسة السيفية ... وتزايد رفقه بهم طعاما وكسوة ويرفه عنهم مما يقصده الناس به(٥٣٣) .

٩ — **محمد بن عمر بن عبد الله الدميرى(*)** ابتنى لنفسه جامعا بالمنشية المجاورة للمحلة — الكبرى — وجلس به يدرس ويفتى ويربى المريدين ويعظ يوما فى الأسبوع(٥٣٤) .

١٠ — **احمد بن محمد بن يحيى المنزلى** اقام بمنية راضى — من أعمال المنزلة — وابتنى بها جامعا ، انتمى اليه الفقراء والطلبة والمريدون ، وكان يقوم بالصرف عليهم وتكاليفهم مما يفتح الله به عليه(٥٣٥) .

١١ — **احمد بن ابراهيم بن نصر الله العسقلانى القاهرى الأزهرى** انشأ مسجدا ومدرسة وسبيلا وصهريجا ومسجدا بشبرا ت سنة ٨٧٦ هـ(٥٣٦) .

١٢ — **محمد بن محمد بن عبد الرحمن** ت سنة ٨٦٤ هـ كان حلو اللسان محببا الى العامة والخاصة من ذوى النفوس الذكية كان يستخرج

---

(٥٣٢) نفس المرجع جـ ٢ ص ٨٩

(٥٣٣) نفس المرجع جـ ٥ ص ١٢٧

(*) نسبة الى « دميرة » احدى قرى الغربية ، وتتبع الآن مركز طلخا (دقهلية) .

(٥٣٤) الضوء اللامع نفس المرجع جـ ٨ ص ٢٤٨

(٥٣٥) نفس المرجع جـ٢ ص ٢١٠ ، ٢١١

(٥٣٦) نفس المرجع جـ ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٨

الأموال من التجار بطريقة ظريفة لوسلكهـا غيره لانتقدوه واستهجنوه ، ويبرمنها كثير من الطلبة والفقراء(٥٣٧) .

١٣ — **محمد بن يونس بن حسين** ت سـنة ٨٥٦ هـ كان يحضر عدة محابر واقلام وقراطيس (أوراق) للتصـدق بها لمن لعله يحتاج اليهـا محتسبا بذلك الأجر والثواب(٥٣٨) .

١٤ — **بدر الدين محمود العينى(**) ت سـنة ٨٥٥ هـ أنشـأ مدرسـة بحارة كتامة المجاورة للأزهر كان يدرس فيهـا لطلابه « صحيح البخارى » والف فيها كتابه « عمدة القارى لشرح صحيح البخارى » فى ستة عشر عاما(٥٣٩) .

١٥ — **احمد محمد الغمرى** بنى بالمحلة جامعا عرف بجامع التوبة ، كان معهدا للدراسة والعبادة(٥٤٠) .

١٦ — **محمد بن محمد ... بن العفيف الجهنى الانصارى** كان يحب طلبة العلم ويضمهم اليه ولكرمه وشهامته يجرى عليهم الأرزاق والمرتبات الشهرية والسـنوية ، وفى بعض السنين ارتفع سعر القمح وحسن لـه بعض جماعته أن يصرف للطلاب والشـيوخ دراهم بدل الغـلال ، فنهره قائلا : نعطيهم البر فى حـال كونه ترابا ، ثم نعطيهم التراب فى حالـة كونه ذهبا .. ، حمل معه فى حجه — اكثر من مرة — كثير من طلبة العلم

---

(٥٣٧) نفس المرجع جـ ٩ ص ٩٣ — ٩٥

(٥٣٨) نفس المرجع جـ ١٠ ص ١٠١

(**) من مؤلفاته : « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » حوالى ستين (مجلدا مخطوطا) فى التاريخ ، حقق زميلنـا الدكتور عبـد الرازق الطنطاوى القرموط الفترة من سنة ٧٢٤ — ٨٥٠ هـ حصل بها على درجة الدكتوراه . فى التاريخ والحضارة الاسلامية سنة ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

(٥٣٩) نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ أهل الزمان جـ ٢ ص ١٧٤ ، الضوء اللامع جـ ١٠ ص ١٣١ — ١٣٥

(٥٤٠) الضوء اللامع جـ ٢ ص٦١٦ ، ١٦٢

والمشايخ المعتقدين والفقراء بلغوا نحو اربعمائة نفر ولم يتكلف الواحد منهم شيئا فى حجه ، بل اشترى لهم ولأهليهم الهدايا(٥٤١) .

١٧ — **محمد بن محمد الجمال المزجاجى** الصوفى وسع الله عليه فى الدنيا ، كان لديه نســـاخ يكتبون له وآخرون برسم المقابلة (أى يراجعون) ولكليهما رزق واســـع .. وقف كل هذه المجلدات التى بلغت الفا بمسجد أنشـــأة(٥٤٢) .

١٨ — **محمد بن محمد الجوهرى الأحمدى** ابتنى الزاوية الشـــهيرة بقنطرة الموسكى ، وقرر مدرسهـــا البرهان الابناسى الصـــغير(٥٤٣) كما ابتنى زاويـــة اخرى « بفيشـــا المنارة(***) » جلس يـــدرس فيهـــا للمريدين(٥٤٤) .

١٩ — **محمد بن محمد القاياتى المصرى ت ســـنة ٨٠٨ هـ** وخلف أموالا طائلة ، وأوصى بثياب بدنه لطلبة العلم ففرقت فيهم(٥٤٥) .

* * *

(٥٤١) الضوء اللامع جـ ٩ ص ٢٣٦ — ٢٣٩

(٥٤٢) الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٣٦ ، ٣٧

(٥٤٣) الضوء اللامع جـ ٩ ص ١٠٥

(***) فيشا المنارة هى الآن « فيشا سليم » قريـــة بالقرب من طنطا (المؤلف) .

(٥٤٤) الضوء اللامع جـ ٨ ص ٤٦

(٥٤٥) الضوء اللامع جـ ٩ ص ٢٠١

اوقاف العلماء على بعض أروقة الأزهر

من هذه الأوقاف وقف على رواق المغاربـــة هو وقف « الستين المرتبين » وهو عبـــارة عن الخبز القرصة الجيد العلامة للطالب ثلاثـــة أرطال وللعالم ضعف ما للطالب .

٢ — وقف مكتبة كاملة على رواق المغاربة بالأزهر للشيخ **شرف الدين أبو الروح عيسى بن زين الدين الزواوى** وشملت مصاحف وربعـــات وتفسير وقراءات وحديث وفقه مالكى وتصوف وأصول ونحو وصرف وبلاغة وطب وغير ذلك .. والوثيقة كتبت على الوجهين(٥٤٦) .

٣ — **وقف الشيخ على ســـليمان الأبشـــادى على رواق الفوات التابع لرواق الريافة بالجامع الأزهر** وهو عبـــارة عن مكتبة كاملة حوث ما يقرب من ستمائة كتاب فى فنون المعرفة المختلفة التى كانت تـــدرس بالازهر فى القرن التاسع الهجرى وغيره(٥٤٧) .

ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة الكثيرة التى لايحصيها الحصر . لنخرج بانطباع عام أن طلاب العلم وشيوخهم لم يتحملوا مليما أو فلســـا واحدا فى حياتهم التعليمية ، حيث تحمل الواقفون عنهم كل نفقاتهم من مأكل ومشرب وملبس ومســـكن وغير ذلك ، وعلى الطلاب والشيوخ التفرغ فقط لطلب العلم واثرائه .

* * *

---

(٥٤٦) يوجد أصل هذه الوثيقـــة بدار الوثائق القوميـــة تحت رقم ١٨٦ م بتاريخ شوال سنة ٨٧٨ هـ .

(٥٤٧) راجع صورة جزء من هذه الوثيقة فى ملاحق هـــذا الكتاب

الفصـــل الســادس

تراثنا العربى والاسلامى كيف اهملناه فضيعناه !!
واهتم به المستشرقون غربا وشرقا

مقدمـــــة

عن علاقة المســـلمين بالغرب :

لم تكن علاقة المســلمين بالغرب منذ بدايتهـــا حتى الآن علاقة مودة واخاء وانما بدأت علاقة حرب وعـــداء ، وقـــد ظلت ســـيوف الفريقين مســـلوله ا ودماؤها لم تجف طوال قرون طويلة ، ولكن منذ موقعة مؤته سنة ٦٢٩ م حتى موقعة بلاط الشهداء ٧٣٢ م ، اى اكثر من قرن كامل كانت الغلبة الحربية للمسلمين ، وكان المسلمون يتوغلون يوما بعد يوم فى بلاد الدولة البيزنطية ، ولم يقف الزحف الاســـلامى بعد هذه الموقعة بل ظل للمسلمين زحف آخر عن طريق قبرص وجنوب ايطاليا ، ثم كان للأتراك العثمانيين زحف من الطرف الآخر من البحر المتوسط ، ولمـــا توقف الهجوم الاســـلامى بدأ هجوم الغرب فى اسبانيا أولا ثم فى بقية الأجزاء الاخرى التى اقتطعت من الدولة او الدول الاسلامية .

ثم كانت الحروب الصليبية التى امتدت طوال ثلاثة قرون ، ولمـــا يزل لهـــا الى الآن دبيب وكيد خفى ، ومهما يكن من اسبابها العديدة فيكفى انها توجت باسم الصليبية وانها كانت ضد الاسلام .

ثم كان عصر الاســـتعمار الذى تقلص ظلـــه السياسى ولم يتقلص سلطانه المـــادى .

هذا الموقف العدائى الممتد على طول هـــذه العصور جعل الغرب ينظر الى الاســـلام نظرته الى عدو لدود ، وجعله يجهد جهده للبحث عن نقائص للاســـلام وعيوب ويغضى عن كل ماله من مزايا ومثار طيبـــة ، وعندما بدأت كتابات المستشرقين عن الاســـلام لم تكن كتابه علمية ولا بحوثا

تتوخى حقائق التاريخ وانما كانت سلاحا من اسلحة الدعاية الحربية ، لذلك حرصت على ترويج اكاذيب ومختلقات عن الاسلام ، وتميزت الكتب التى صدرت خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر بكثير من التهور والاندفاع الذى لا يعنيه الا تحطيم الاسلام ، وقد اعلن القس بيتر المعروف باسم المبجل ، أن نقطة البداية فى حرب الاسلام هى القرآن الكريم .

وكان بيتر من أبطال التعصب ضد الاسلام والمسلمين وكان يلوم المسيحيين على مهادنتهم المسلمين وبستحثهم على العنف عليهم ، وعملا بالمبدأ الذى رآه قام بحركة نشيطة لترجمة القرآن الكريم الى اللغه اللاتينية ، وكان الغرض من هذه الترجمة تشوية القرآن أولا ثم الرد عليه وتفنيد ما يترجم منه ثانيا ، وفى منتصف القرن الثانى صدرت أربع تراجم ومقدمة بقلم هذا القس ، وكتب ايضا ترجمة لحياة النبى محمد (ص) وتاريخ الخلفاء حتى عهد يزيد بن معاوية ومقتل الحسين .

ولم تكن أى من هذه الترجمات القرآنية ترجمة كاملة ، ولا كان تاريخ النبى تاريخا صحيحا ، اذ كان الغرض من هذا العمل هو تنفير المسيحيين والمسلمين على السواء من الاسلام آنبى المسلمين .

وفى هذه الفترة كتب قس آخر من مشهورى رجال الدين المسيحى فى قرطبة كن يدعى الجيوس قرطبة (Elgeus of cordouq) بحثا عن حياة النبى محمد (ص) أيضا ، وهو ينم عن جهل فاضح أو كذب متعمد ، كما تبدو فيه الصبغة المسيحية ، اذا جاء فيه ان النبى محمد (ص) كان يخبر اصحابه انه بعد ثلاثة ايام من موته سيرفع الى السماء فلما مات بقى بدون دفن حتى يرفع جسده ، ولكنه لم يرفع حتى تعفن جسده واخذت الكلاب تنهش منه ... ولم يكن هذا القس يعرف اللغة العربية ولكنه اعتمد فى معلوماته على مخطوطة لاتينية عثر عليها صدفة فى مدينة بامبالونا (Pampalona) مما يدل على ان الكتابه ضد الاسلام قد بدأت قبل هذا الوقت .

هــذه بداية الكتابة الاستشراقية فى القرنين الحادى عشر ، والثانى عشر ولم تنقطع هذه الروح طوال هذه العصــور وان تغيرت طريقــة البحث وتفســير الأحداث التاريخية ، ولكن المبشرين والمستعمرين على السواء كانوا متفقين على المبدأ الذى وضعه بيتر وهو البدايــة بحرب القرآن ، حتى اننا نجد جلاســتون (Cladslone) وزير المســتعمرات البريطانية فى القرن العشرين يعلن فى مجلس العموم انه لن تستقر اقدام الانجليز فى الشرق الأوسط مادام القرآن يتلى بين الشرقيين .

ولعل حركة العداء التى قام بها الأسبانيون ضد المسلمين الاسبانيين كانت أعنف وأقسى ما شهد التاريخ البشرى من التعصب الدينى والارهاب ، ويصور جانبا منها ما قام به الكردينال شمتيه دى سيسروس .

وكان ذا مكانة (اذ كان هو الــذى تعترف الملكة ايزابلا امامه) ، وكان من اعماله انه دعا الى اكراه بقايا المسلمين الذين يعرفون باســم الموريسكو على التنصر وترك الاســلام ، ولكى يقطع صلتهــم بالعلوم الاسلامية اشار بحرق كتب المسلمين ، ثم انشئت محاكم التفتيش لمحاكمة الذين كانوا يمارســون سرا شعائر الاســلام ، وكان بعض المتقربين من أبناء أسبانيا قــد انضموا الى هؤلاء واصروا على الابقاء على اسلامهم ، وهؤلاء لاقوا هوانا وتعذيبا كثيرا ، حتى لقــد اصــدر الامبراطور فليليب الثانى ١٥٥٦ م قانونا يحرم على بقايا المســلمين فى اراجون كل شىء يربطهم بالاســلام حتى لغتهم واساليب معايشتهــم وبلغ من غلوائه أن اعتبر الحمامات التى انشأها المسلمون بقايا نجسة فاصدر قرارا بهدمها .

فاذا رجعنا الى ما حــدث فى البلقان وبلاد اليونان بعد جلاء الأتراك العثمانيين عنهــا وجدنا حكما يشابهه فى تحريم الاسلام والتضييق علــى المســلمين ولا يزال بعض المساجد فى أثينا والمجر وادرنة وغيرها متاحف أثرية لايسمح بممارسة العبادة فيها .

(هــذه هى البيئة التى نبتت فيهــا بذور الاستشراق ، بيئة كراهية واحقاد ، والذين مارسوا دراســة استشراقية لم يمارسوها لبحث ما فى الاســلام من حقائق ، ولكنهم زاولوها كلون من الوان الفكر التــاريخى ،

وهم قــد لقنوا واعتقدوا من قبل مبادىء وافكار خاصة عن الاســلام ، فهم يبذلون جهدا واسعا لاقامة الأدلة على صحتها ، وعلى غير شعور منهم يخطئون الفهم والاستدلال ويحسبون انهم على شيء) .

ومما لاريب فيه ان موقف المستشرقين اليوم قد تغير كثيرا عن موقفهم بالأمس ولكن هذا التغير يبدو فى التخلى عن الأكاذيب والاختلافات ، وليس ثمت تخل عن طعن الاسلام وتلمس مواطن للهجوم عليه منها(٥٤٨) .

وينقسم هذا الفصل الى قسمين

أولا — المستشرقون : ثانيا — تراثنا الاسلامى وكيف ضــيعناه وتلقفه المستشرقون :

(أ) المستشرقون :

يقصد بكلمة (المستشرقين) أولئك العلماء الأجانب الــذين توفروا على دراسة الثقافة العربية ، وتاريخ العرب والاسلام والمسلمين وعلومهم وآدابهم وعاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم .

ويرجع تاريخ الاستشراق الى القرون الوسطى .. وســاعد على نموه فتح العرب للأندلس ، واستيلاؤهم على جزيرة صقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط وتوغلهم فى جنوبى فرنسا ، واتصالهم بالحركة الفكرية فى أوربا .

كما ساعد على ذلك أيضا قيام الحروب الصليبية التى قوت اتصال الشرق بالغرب واطلعت العلماء الغربيين على آفاق جديدة من التفكير ،

---

(٥٤٨) راجع : د. عبد الجليل شلبى الاسلام فى مرآة المستشرقين بحث منفصل قدم للمؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية ص ١ — ٣ ، وج ٢ من (المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية) ســنة ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ص ٢٨٣ ، ٣٢١

ومجالات واسعة من الثقافة فعكفوا على دراستها والنظر فيها كما أشرنا الى ذلك منذ قليل .

كما كان سقوط الآستانة من العوامل الدافعة على نشر الثقافة العربية ، اذ اطلع علماء الغرب على ذخائر الفكر الشرقى .

وقد تكونت على أثر ذلك جمعيات تهدف الى دراسة العلوم الشرقية مثل « الجمعية الآسيوية الملكية » و « الجمعية الآسيوية الفرنسية » . وعملت هـذه الجمعيات على الاهتمام بدراسة العربية بوجه عام . وكثر عددها فى شتى انحاء أوربا . وضمت نخبة ممتازة من العلماء الغربيين ، الذين كرسوا حياتهم لخوض هذا الميدان كما عقدوا المؤتمرات للدراسة والبحث والتحليل .

ولا ينبغى أن نغفل فضل بعض الأفراد الى جانب جهود هذه الجمعيات .. ومثال هؤلاء « البرنس ليون كتيانى » الذى أصدر بين عامى ١٩٠٥ و ١٩٠٨ م فى ايطاليا ثمانية مجلدات ضخمة مصورة فى التاريخ الاسلامى . وهى ذات قيمة علمية كبرى ، فان المؤلف ذكر كل سنة ، ورتب جميع الحوادث الهامة التى حدثت فيها ، نقلا عن أهم المصادر العربية القديمة ، وعلق على حواشى مأخوذة عن أهم العلماء القدامى والمحدثين ، وزين كل ذلك بالرسوم والخرائط ، والأمثلة على ذلـك كثيرة وليس هنـا محل تفصيلها .

وازدادت جهود الجمعيات والأفراد ، فى المكتبات العربية ، الموجود فى أوربا ، اذ استطاع الغربيون أن يحصلوا على عـدد كبير من الكتب العربية النفيسة ، فى أثناء الحروب الصليبية ، وأيام المحن التى ألمت بالمسلمين فى الأندلس ، وفى فرنسا ، وفى ايطاليا ، وفى صقلية ، وفى أثناء احتلالهم للبلاد العربية الاسلامية . وقد نقلوا هذا العدد الضخم من الكتب الى شتى مكتبات أوربا ، كذلك السلطان سليم الذى نقل تراث الاسلام من الأزهر وغيره الى تركيا .

وساهم التجار والرحالة وسماسرة الكتب بدورهم فى هذا الميدان ، فحملوا معهم أنفس الذخائر العربية ، وباعوها للراغبين فى اقتناء الكتب ،

والمحبين للاطلاع بأزهد الأثمان ، حتى تجمع فى هذه المكتبات ما يبلغ حوالى مائتين وخمسين الف مجلد .. وأشهر خزائنها فى لينتجراد ، وموسكو ، وباريس ، وبرلين ، ولندن ، وليبزيج ، وميونيخ ، وفيينا ، وليــدن ، وأكسفورد ، وكمبردج ، والاسكوريال ، وميلانو ، وروما ، وبرنستون ، ونيويورك ، وشيكاغو .

كما وصلت بعض الكتب العربية الى نيودلهى فى الهند ، وغيرها من من الشرق الأقصى وايران .

ولم تكن هذه الكتب كلها مطبوعة ، وانما كانت تضم مجموعة كبيرة من المخطوطات النفيسة النادرة .

المؤتمــرات

وقامت المؤتمرات التى يعقدها المستشرقون فى عواصم أوربا بدور كبير فى نشر الثقافة الشرقية عامة ، والعربية خاصة ، اذ تدرس فيهــا البحوث ، وتناقش شتى المسائل والمشاكل المتصــلة بالشرق ، ويتناول المؤتمرون أحدث الأبحاث فى هذه المجالات .

واول مؤتمر عقــده المستشرقون هو مؤتمر باريس عام ١٨٧٣ . وتكررت بعد ذلك تلك المؤتمرات ، واشتركت مصر فى أغلبها . ومن الذين اشتركوا فى هذه المؤتمرات : عبد الله فكرى ، وحمزة فتح الله ، وحفنى ناصف ، وامين الخلولى ، ومراد كامل ، وغيرهم .

ومنذ عام ١٩٥٥ ، اخذ (معهد الدراسات الآســيوية والافريقيــة بجامعة لندن) على عاتقه القيام بدراسة تفصيلية دقيقة لموضوع (طرق كتابة تاريخ آســيا) عقد مؤتمر لدراســة طرق كتابة تاريخ الشعوب القاطنة فى جنوبى آسيا وجنوبها الشرقى عام ١٩٥٦

وعقــد فى يوليــة عام ١٩٥٨ ، مؤتمر لدرس طرق كتابة تــاريخ الشرقين : الأدنى والأوسط ، وركز جهوده فى درس الكتب المتعلقة بتلك المنطقة .

ووضع المؤتمر ، حيال الباحثين ، النقاط الآتية :

١ — كتابة التاريخ قبل أن يتأثر المسلمون بالنفوذ الأدبى الأوربى ، وهذا يشمل عدة أنواع من الكتابة باللغات : العربية ، والفارسية ، والتركية . واذا سمح المجال بذلت عناية لدرس طرق كتابة أديان الأقليات فى هذه المنطقة .

٢ — نماذج مما كتبه المؤرخون الاوربيون والأمريكيون ، فى الشرقين : الأدنى والأوسط ، من القرون الوسطى الى الآن .

٣ — دراسة أعمال التقدم فى البلاد العربية ، والفارسية ، والتركية، وما وراء القوقاز ، وأواسط آسيا ، وصلات الشرق بالغرب فى العصور الحديثة .

كما اهتم المؤتمر بجميع مراحل كتابة التاريخ الاسلامى ، من بدء جمع الأحاديث والسيرة النبوية الى الأيام الحاضرة ، ودرس تاريخ الاقليات كالسريان والموارنة والأقباط وغيرهم ، وما كتبه المؤرخون البيزنطيون عن الحروب الصليبية ، وعصر النهضة ، والعصور التى تلتها ، حتى القرن العشرين .

وهكذا قامت هذه الأسباب بنشر فكرة الاستشراق بين علماء الغرب. بيد أن الاستشراق ظهر لأول مرة بين طائفة الرهبان ، وأشهرهم « جربر » وهو راهب فرنسى رحل الى الأندلس طلبا للانتهال من الثقافة العربية هناك فأخذ العلم عن علماء الأندلس ، والتحق بمدارس اشبيلية وقرطبة . ثم سافر الى « روما » اذ ظهرت علامات نبوغه ومظاهر تقدمه على اقرانه ، فانتخب « حبرا أعظم » .

وظهر فى السنوات الأولى من القرن الثانى عشر من الميلاد ، راهب آخر ، ساهم بنصيب كبير فى دراسة الثقافة العربية ، وهو « جيراردى كريمون » (سنة ١١١٤ — ١١٨٧ م) فنقل الى اللغة اللاتينية فلسفة « الكندى » و « والفارابى » و « ابن سينا » و « الرازى » . ويقال انه ترجم سبعين كتابا فى جميع فنون المعرفة ، من علوم ، وآداب وطب .

وقد فقدت أصـــول هذه الكتب العربيـــة ، ولم تبق غير الترجمة اللاتينية .. وفى القرن الثالث عشر من الميلاد ، عاش فى ولاية « كتالونيا » من اعمال اسبانيا راهب اسمه « ريمون لل » وقد كرس حياته لدراســـة اللغة العربية ، ونادى بضرورة انشاء الكراسى لأساتذة يدرســـون اللغة العربية ومن يطالع كتابه يجد فيه آثارا بينة من كتاب « كليلة ودمنة » .

وقد قصد الى « روما » وحاول اقناع البابا « كليمنصوس » الخامس ، و « بنيفاس » الثامن ، بضرورة انشاء مدارس تبشيرية ، لتعليم العلوم الشرقية ، وظل ينـــادى بهذه الرغبة ، حتى توفى عام ١٣١٥ م ، وهو فى الثمانين من عمره .

وربما كان **الدافع الأول** الذى حمل هؤلاء الرهبان على دراســـة العربية هو « **العـــاطفة الدينيـــة** » فان كثيرين منهم ، وأخصـــهم من « الأكليريكيين » قد عكفوا على هذه العلوم ، حتى يتمكنوا من تأليف بعض الكتب ، لنشر الديانة المسيحية ، فى لغات عدة ، كما أسس أهل الشرق .

وأول مدرسة انشئت لهذا الغرض ، هى « مدرسة الجمعية المقدسة لنشر الايمان » تلك التى أسسها البابا « غريغوريوس » الخامس عشر عام ١٦٢٢ .

كما أسس البابا « أوريانوس الثامن » عام ١٦٧٢ مدرســـة أخرى وكان هدف هاتين المدرستين ارسال المبشرين ، وبعث الحملات التبشيرية ، وطبع الكتب الدينية للكنائس الشرقية . كما كان هنالك **ســـبب آخر ، دفع الى الاستشراق ، وهو سبب سياسى** ، لا يمكن تغافله أو اغضاء النظر عنه ، حتى ان الحكومة الفرنسية كانت تعمد الى ارسال بعض الشـــبان لدراسة اللغة العربية ، والتاريخ ، فى أثناء القرن الثامن عشر .

وغير خاف أن علماء الحملة الفرنســـية على مصر ، قد قاموا بنصيب كبير ، فى دراسة التراث العربى فى مصر . وتوفر هؤلاء العلماء على بحث الجوانب التاريخية ، والجغرافية ، والعلمية لوادى النيل ، وحملوا ثمرة أبحاثهم معهم ، عند انسحابهم من البلاد .

على أن الحال بقى على هذا المنوال ، فى حملة « فريزر » أو « ويكوب » أو « ويلزلى » ، أو غيرهم من قادة الانجليز . فقد كانت كل حملة تصاحب عددا كبيرا من العلماء المتوفرين على دراسة الشرق دراسة وافية دقيقة .

لذلك كان بعض أبحاث المستشرقين مشوبا بتلك **النزعة التبشيرية ، أو الاستعمارية** ، ولكننا مع هذا لابد أن نسجل للتاريخ تلك الجهود الجبارة التى قام بها نفر اخر من علمـاء المستشرقين ، دون التعرض لتيـارات السياسة الجارفة ، ودون الخوض فى نيات الحكام واهداف الدول الكبرى الاستعمارية .

وعلى الباحث الحر ، أن يفرق بين الغث والسمين من هذه الأبحاث ويدرك النزيه من المغرض ، والجيد من الردىء(٥٤٩) .

(ب) تراثنا الاسلامى وكيف ضيعناه وتلقفه المستشرقون :

ادرك الغرب ، منذ ماقبل عصر النهضة قيمة المخطوطات العربية . وسعوا جاهدين الى نقلها الى اللغة اللاتينية ، حيث كان لها الأثر العظيم على الحضارة الأوربية ..

فقد كان الغرب مفتوح العينين يجد فى جمع ذلك التراث اذن . فهم يدركون ونحن ندرك بأن النهضة الاوربية قامت على احياء التراث أيا كان مصدره ، حتى سمى عصر النهضة لذلك « عصر الأحياء » .

وقد سبق عصر الأحياء هذا حركة واسعة النطاق لترجمة المخطوطات العربية التى تسربت بكل طريق الى مكتبات العالم الشرقى والغربى .

وقد عكف المستشرقون ليل نهـار على قراءة هـذه المخطوطـات ومقارنتها ودراستها وتحقيقها وطبع بعضها ، وقد جاءت طبعات المستشرقين

---

(٥٤٩) نجيب العقيقى : المستشرقون .. الجزء الثـالث — اماكن متفرقة ، د. جمال الدين الرمادى : علماء اجانب فى خدمة الثقافة العربية ، د. نادر العطار : المستشرقون والتاريخ العربى . بحث مستخرج من المؤتمر الأول للأثار ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة .

لامهات الكتب الاســلامية والعربية مغلوطة ومشوهة بقصد أو بغير قصد ولذلك يجب الرجوع الى هذه الطبعات وتصحيحها واعادة طبعها من جديد بعد تهذيبها لتخرج الى حيز الوجود سليمة نظيفة .

● الغرب والشرق يحقق تراثنا ويترجمه ونحن عنه لاهون !

لم تكن علوم الجغرافيا وغيرها بأقل حظا من علوم التاريخ وغيره والادريسى وغيره من الجغرافيين العرب أشـــهر من أن يعرف بهم ولقد نال الدكتور « شرموفسكى » مؤخرا درجـــة « الكانديدات » عن بحثه فى مخطوطة « لأحمد بن ماجد » فى علم البحار .

لقد عرف اللاتين كبار علماء الاســـلام ومؤلفاتهم من أمثـــال جابر ابن حيان والرازى فى الكيمياء والخوارزمى فى الجبر ورســـتم القوهى فى التفاضل ، والبيرونى فى حســـاب المثلثات ، وابن رضوان فى الطب الى جانب ابن رشد ، وابن طفيل ، وابن ســـينا والكندى والفارابى والغزالى وابن ماجة فى الفلسفة .

وقد ترجم اللاتين أعمال هؤلاء ودرسوها ، وترجموا احصاء العلوم للفارابى ، وترجموا كتاب الشفاء لابن ســـينا وترجموا مقاصد الفلاسفة للغزالى وتهافت التهافت لابن رشد وغير ذلك .

● مكتبة الأزهر وما بها من تراث على من العصور !

عندما حول العزيز بالله الفاطمى الجامع الى جامعة على يد وزيره يعقوب ابن كلس الذى جمع بدوره ، عددا من الفقهـــاء بلغ نحو سبع وثلاثين فقيهـــا وجعل لهم بيتا حول الجامع الأزهر يقيمون فيه وهـــذا البيت كان اساسا للاروقة المشهورة كما أشرنا من قبل وانشأ لهم ايضا ضمن ما انشأ خزانة كتب كانت عامرة بالعديد من الكتب فى فروع العلوم التى تدرس بالجامع الازهر ، ليستفيد منها الطلاب فى القراءة والاطلاع والبحث والدرس .

فلما جاء عصر الايوبيين — كانوا أعداء تقليديين لكل ماهو شيعى ، ومن ثم اختفت مكتبة الازهر ، فلما حل المماليك البحرية محل الايوبيين أعادوا

فتح الأزهر للصـــلاة والدراسة على المذاهب الأربعة والتفسير والحديث وغير ذلك ، وحدث فى بداية العصر المملوكى البحرى أن قضى المغول على معظم تراث العباسيين وتصـــدى لهم المماليك فهزموهم هزيمة منكرة .. وفر علمـــاء المشرق والمغرب الى مصر الى الأزهر واعـــادوا كتابة تراث الاسلام من جديد ، وهنا غمرت مكتبة الأزهر بالعديد من الكتب والمخطوطات بالاضافة الى الخزائن الخاصـــة التى أوقفها الاثرياء على طلاب العلـــم بالجامع الأزهر وهذا هو العصر الذهبى للأزهر وقد أشرنا الى ذلك من قبـــل .

ولمـــا حل المماليك الجراكسة محل أسلافهم من المماليك البحريـــة واستقرت الدولة كثر الاهتمام وزاد بالجامع الأزهر وسمى هذا العصر بالعصر المـــاسى نظرا لوجود عدد كبير من علماء الأزهر واعلامه فى تلك الفترة .

وقد اســـتقر هؤلاء العلماء بالأزهر يلقون المحاضرات وينســـخون المخطوطات على طريقة الامالى .

ونرى كذلك فى هذا العصر يتبرع العلماء عن طيب خاطر ويوقفوا مكتباتهم على طلاب اروقة معينة أو على طلاب العلم عموما بالجامع الأزهر المعمور .

ولدينا وثيقتين نادرتين **احداهما** لشيخ مغربى يقف كتبه على طلاب بنى جلدته من شيوخ وطلاب رواق المغاربة .

الوثيقة الثانية للعلامة الشـــيخ على بن سليمان الابشادى الانصارى المالكى الأزهرى بوقف كتب وادوات كتابة وخزانتين وثلاث كراس ، على رواق الريافة — أهـــل الريف — بالجامع الأزهر وتحتوى هـــذه المكتبة على كتب كثيرة بلغت تقريبا ما يقرب من ستمائة كتاب ما بين مصـــاحف وربعات وتفاسير والكتب الصحاح والقراءات والفقه على المذاهب الأربعة وأكثرها المـــالكى وكذلـــك الطب والهندســـة والفلك والميقات والخطوط

العربية والاوفاق والزيرجة والحســـاب والجبر والمقابلة وغير ذلك وتاريخ هذه الوثيقة سنة ٩١٩ هـ(٥٥٠) .

● **نوادر بمكتبة الأزهر :**

يوجد من تراث الاســـلام مجموعة نادرة بمكتبة الأزهر بعضها متون وشروح وتعليقات وأراجيز وأسئلة واجوبة ، وبها أيضا مجموعات نادرة داخل متحف المكتبة منها مجموعة العلامة جـــلال الدين السيوطى المتوفى ســـنة ٩١١ هـ وهى بخط يده كما توجـــد مجموعة نادرة من صحف سيدنا ابراهيم الخليل وســـيدنا موسى عليه الســـلام ومن النوادر الفنية والأثرية مجموعة مصاحف كبيرة ومصحف كتب بالخط الكوفى على رق غزال من أوائل القرن الثالث الهجرى ، ومصحف شرحت بعض الفاظه الصعبة بين السطور وكذلك مصحف كتب على تسعة عشر ورقة من القطع المتوسط .

كما توجد « حبة قمح » كتب عليها سورة « لايلاف قريش ايلافهم » ، ويوجد مزولة وهى الساعة الفلكية التى كانت تستخدم فى التوقيت بالجامع الأزهر .

كذلك يوجد « مرصد فلكى » وهـــذا يدل دلالة قاطعة على أن الفلك كان يدرس بالأزهر وتوجـــد مجموعـــة من الرحلات « حوامل أو كراسى المصحف » كما توجد بمكتبة الأزهر ربعـــة وصندوقهـــا للناصر محمد بن قلاوون .

* * *

---

(٥٥٠) راجع ماكتبناه عن هذه الوثيقة فى مجلة الأزهر عدد ربيع الأول سنة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٢ م تحت عنوان « وثيقة وقف العلامة سليمان بن على الأبشادى » ص ٣٢٦ — ٣٣٣ (المؤلف) .

أهـــداء العلماء مكتباتهم

أهدى مجموعة من علماء الأزهر مكتباتهم الخاصة لمكتبة الأزهر حتى تستطيع أن تقف صامدة فأهداها الشيخ حسونة النواوى مكتبته والشيخ بخيت المطيعى والشيخ الجوهرى والشيخ الرافعى وسليمان باشا أباظه وغيرهم كثيرون .

● **مكتبة الأزهر تعتبر مخزنا للكتب** وليست مكتبة بالمعنى الصحيح الا مجازا :

تتمتع مكتبة الأزهر بشهرة واسعة بل من اشهر المكتبات فى العـــالم ويعرفهـــا الخبراء واهـــل البصر بالكتب والباحثون عنهـــا من الشرقيين والغربيين ، ويشيرون فى مؤلفاتهم الى ما بها من نفائس الكتب وفى جلسة لى مع المرحوم الشيخ ابو الوفا المراغى المدير الاسبق لمكتبة الأزهر أشار الى أن اطلاق كلمة مكتبة فيه تجـــاوز ، لانها بمخزن الكتب أشبه ولا حارس لها ولكن يحرسها الله تعالى .

● **ينكرون فضل العرب حسدا :**

يحاول كثير من مؤرخى العلم من المستشرقين انكار فضل العلمـــاء العرب على النهضـــة الاوربية ، ويؤرخ « شارل سينجر » للعلم بعصرين هما العصر الاغريقى وعصر النهضـــة الاوربية مشـــايما غيره فى ذلـــك متجاهلا ما قبل الاغريق من حضـــارات مصرية وأشورية وبابلية وسومرية

---

(٥٥١) د. مجاهد الجندى : « انقذوا مكتبة الأزهر » بحث فى العدد التذكارى لمجلة منبر الاســـلام بمناسبة الاحتفال بالعيد الالفى للأزهر ، ماذا صنعنا للتراث الاســـلامى فى الأحتفال بالعيد الالفى للأزهر مقـــال بمجلة التصـــوف الاسلامى — العـــدد الخاص بالعيد الالفى للأزهر ، « تراثنا الاســـلامى يجب أن نعض عليه بالنواجذ » مقالين بالعدد ٤٩ ، ٥١ من مجلة التصوف الاسلامى .

وفينيقية وغيرها والتى كان لهـا ولاشـك أكبر الأثر على الحضـارة الاغريقية ذاتهـا .

ونضـيف انه برغم انكار المستشرقين لفضـل علماء الاسلام فى النهضـة الانسانية العالمية — حيث جردونا من معظم تراثنا على الصورة المتقدمة — الا أنهم — أى هـذا الصنف المتعصب — لا يستطيع أن ينكر ضـوء الشمس ، فلدى العرب الحجج الدامغة والبراهين الساطعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم نعدم من يدافع عن علماء الاسـلام منهم ويؤكد دورهم فى الحضـارة العالمية ، فلولا الاسـلام ودوره فى النهضة العالمية لتغير وجه التاريخ ..

فلقد سـاهم الفكر العربى الاسـلامى فى الحضارات الانسـانية اسهاما غير منكر ، اثرى هـذه الحضارات ، وقدم لها نظريات جـديدة فى الفلسفة والأخلاق والسياسة والاقتصاد والعلوم . قدم التوحيد أساسا لفلسفته الجديدة ، وقدم الشورى والديمقراطية أساسا لسياسته الجديدة ، ويقـدم الزكاة — للقضـاء على الفقر والحاجة والجوع والرق — أساسا لاقتصـاده الجديد ، وقدم التجربة أساسا لعلومه الجديدة ، وقدم أخلاقا عملية جديدة قائمة على العـدل والمساواة وتراثا حضـاريا ضخما تخطى حدود العالم الاسلامى الى ربوع آسيا وأفريقيا وأوربا .

ونشر الثقافة بكافة الوسـائل وكل السبل ، فلقـد كانت هنـاك الجامعات وكانت هناك المكتبات العـامة الكبرى والتى تزخر بنتاج عقول واعية متفتحة جبارة ، وكانت هناك المسـاجد يتحلق الطلبة فيها من حول أساتذتهم وكانت هناك المدارس داخل الجوامع كما كانت هناك الزوايا هذه المنارات العلمية التى كان لهـا دورها الثقافى والحضـارى والسـياسى الى جانب دورها الدينى ، وكانت هناك بعد ذلك بيوت العلماء وقصـور الثراة تعقد فيهـا حلقات الدروس الممتازة يشترك فيهـا كبار زوار البلاد من العلماء .

وكان لزاما على أمتنا العربية والاسـلامية أن تعتنى بهذا التراث وأن تحافظ عليه ، وأن تيسر سـبل الافادة منه ، فان الامم تتفـاوت

حضارتها بقدر ما تتفاوت عنايتها بتراثها ، وان الامم التى تتوه عن تراثها تتوه عن ماضيها وتتخلف عن أصالتها .

والتراث العربى كما لا يخفى على احـــد يمتد زمانا فيشمل المــاضى والحاضر والمستقبل ويتسع مكانا حتى يشـــمل العالم الاســـلامى الكبير ومن ورائه العالم بأسره .. والمخطوطات العربية كجزء من ذلك التراث لا يستطيع جهد مهما بلغ أن يحيط بها ..

فلقد كان هناك مئات الالوف منهـــا فى مختلف العلوم والفنون حين كانت النهضـــة الفكرية دعامة اساسية من دعائم الحضـــارة الاسلامية ، وكانت دور الكتب علامات على طريق هـــذه الحضـــارة فى نيسابور والرها وبغداد والقـــاهرة وتونس والجزائر والأندلس فى زمن لم يكن العـــالم يعرف فيه غير الكتاب وسيلة لنشر الثقافة .

● **الغرب يترجم تراثنا :**

صارت طليطلة وبالرمو اكبر مركزين للترجمة فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر الميلاديين فقـــد أنشئت فى طليطلة مدرســـة تعرف بمدرسة المترجمين الطليطليين وتولى الأسقف « ريموندو » كبير مستشارى الملوك الأســـبان رعاية هـــذه المدرسة .

وقام « جيرار الكريمونى ١١٨٧ م » بترجمة المؤلفات العلمية العربية فى الطب والكيميـــاء والفلك والرياضـــة ، ترجم اكثر من مائـــة وثمانين مخطوطة ، كما قام المطران « دومنيك جند سالينوس ١١٥٠ م » بتقـــديم الفلاسفة العرب الى العالم اللاتينى .

أما فى بالرمو عاصمة صقلية فقد رعى حركة الترجمة بها « فردريك الثـــانى » هذا الذى كان له ولع شـــديد بكتابات فلاسفة العرب والـــذى حصـــل على كتابات ابن رشد كلها وأمر بترجمتها ولم يمض على وفـــاة ابن رشد ربع قرن والـــذى أرسل الى ابن سبعين أربعة أسئلة هامـــة ضمنها فكره الفلسفى كله ، وأجابه المفكر الاســـلامى عنها جميعا ، وبذلك

صارت بالرمو عاصمة للترجمة فى الغرب وصار على راس مترجميها هى الاخرى « ميشيل سكوت » .

ولم تكن هاتان المدرســتان فقط هما اللتان رفعتا راية الترجمة عن العربية ، فقــد فتح الفونسو العاشر مدرســة ثالثة للترجمة والنقــل عن العربية كان مكانها بادىء ذى بــدء فى « مرســية » ثم انتقلت الى « اشبيلية » وكان ضمن أساتذتها علماء ومترجمون مســلمون علاوة على الكثيرين من هواة التراث الذين كان هدفهم جميعا نشر الثقافة والآداب العربية بين المسيحيين فى سائر انحاء أوربا .

والأثر الذى تركته هذه المخطوطات فى الحضارة الأوربية يحتاج الى موسوعة كاملة يبرز فيهــا دور علماء الاســلام فى التراث الانسانى .

مغالطــة كبرى

أما المغالطة الكبرى التى تدمغ المؤرخين الأجانب من المستشرقين المتعصبين فهى أنكارهم لفضل علماء العرب ، ومحوهم لحقبة تمتد زهاء ثمانية قرون بعــد انحسار المد العلمى عن الاسكندرية وهجرة العلماء الى الشرق ، ثم بزوغ شمس الحضــارة العلمية العربية فى بغداد والعواصم العربيــة الاخرى كدمشق والقــاهرة والقيروان وقرطبة ، حين ماجت هذه العواصم بعدد من المســاجد والمكتبات ومؤسسات العلم ، كان لهــا اكبر الأثر فى بناء نهضة علمية رائعة ، قادها علماء يقرنون الى أعاظم العلماء فى كل عصر .

والواقع أن الأمة العربية قــد واتتها ظروف طيبة فى العصر الاسلامى الزاهر جعلت لهــا مركزا قياديا فى العلم ، فقد نهلت من العلم الاغريقى وأضافت اليه ومن المستحيل أن نتصــور أن تنقل أمة علوم أمة أخرى دون أن تكون قــد بلغت من التقــدم الحضارى ما يؤهلها لاشاعة هذا العلم الذى تنقله ، ولا تعرف أمة فى التاريخ عنيت بالعلم كما عنيت به الأمــة العربية فى العصر الذى نعنيه وهو ترجمة ونقل التراث العالمى الى اللغة العربية حتى كان العلم جزءا من حياتها بل من كيانها .

ولو كان العرب هم الــذين حفظوا لنا تراث الغرب والشرق ذلك عن طريق مئات الالاف من مخطوطاتهم هــذه لكفاهم فخرا ، فالعرب من طريق هــذه المخطوطات هم الــذين نقلوا مؤلفات بطليموس الجغرافى وارشيمدس الرياضى الكيميائى من العصر السكندرى ، وهم الذين ترجموا مخطوطات « اريابهاطا » و « براهماجوتيا » فى الرياضيات عن الهند ، وهم الذين لخصوا آراء هرمس الحكيم وابن وحشية الكلدانى البابليين ، وغيرهم كثير .

وفى الحق أن قلة من علماء أوربا من المستشرقين هم الذين أنصفوا العرب ، واعترفوا لهم بالفضــل كل الفضل فيما ادوه الى العلم والانسانية من خدمات تجل عن الوصف ، وتحتاج الى جهود من أولى العزم من العلماء لتقويم اعمالهم وتقدير انتاجهم وتصحيح تاريخنا العلمى ، بل تصــحيح تاريخ العلم بصفة عامة ، حتى يرجع الحق الى أصحابه .

ومن الــذين انصــفوا العرب من المستشرقين : « ســارتون » و « سيجريد هونكة » و « هوليــارد » و « ســميث » و « نيللينو » و « فوربس » وغيرهم فقد اعترفوا بسبق العرب وفضلهم على الحضارة والنهضة العالمية .

يقول المستشرق : « ر . ج . فوربس » أنه لايمكن مقارنة أهميــة الاســلام كوسيلة لنقــل الحضارات الأقــدم ، بأى وســيلة أخرى ، فلقد اتجهت الطاقة الهائلة التى سيرت التوســع السياسى للعرب من القرن الســابع فصاعدا بكفاءة ملحوظة نحو هضم ما استطاعت الحضارات الأقدم المقهورة تقديمه لهم ، ولو لم يفعل الاســلام شيئا اكثر من تمثــل وحفظ العلوم الاغريقية والهندية ، لكانت اهميته التاريخيــة بالنســبة لتطور العلم الطبيعى اكبر من اهمية روما وبيزنطة مجتمعتين ، ولكنه يفوقها اكثر واكثر ، لأن كثيرا من الدراسين الاســلاميين اثروا العلم عن طريق اكتشافات مستقلة أيضا .

وان اكبر انتصار صــادفه العالم العربى هو انتصار الأرقام العربية على الأرقام الرومانية التى كانت متداولة فى القرون الوســطى ، والى اختراعهم الصفر والنظام المكانى لكتابة الأعداد الصحيحة .

وهــذه العبقرية العربيــة الفذة دعت الرئيس الأمريكى الأســبق « دوايت ايزنهاور » فى خطبة له أن ينعى على العبقرية اليونانيــة التى انجبت سقراط وافلاطون وابقراط وارسطو الذين تركوا للعالم اغنى تراث فكرى كيف خانهم الحظ فلم يوفقوا الى ماوفقت اليه العبقرية العربيــة التى أهدت الى الانسانية نظام الترقيم العشرى ، الــذى ابتدعه أحــد روادها محمد بن موسى الخوارزمى وذلك عندما استعمل الترقيم بدلا من حســاب الجمــل العقيم وحســاب الجمــل هو نوع من الحســـــاب لكن بالحروف ، ويعرفه كثير ممن يعملون بالفلك قديما وكذلك بالطلسيمات وله اربعة خانات : خانة للأحاد بها تســعة حروف وثانية للعشرات وبها تسعة حروف وخانة للمئات وبها حرف واحد فقط وبهذا يصــير مجموع الخانات الثلاث ٢٨ حرفا هى حروف العربية ولكل حرف خانته رقم معين فالالف مثلا يواجد والباء باثنين الى تسعة والحرف فى العشرات بعشرة وفى المئات بمائة .

وحين ننادى بالنظــام العشرى تتغير قيمة الرقم حسب وضــعه ، فقيمته فى خانة الأحاد غير قيمته فى خانة العشرات أو المئات ، وفى الحق لقــد كانت تلك ومضة من ومضــات العبقرية العربية وهو الخوارزمى ، الذى تعتبر مؤلفاته فى الحســاب والجبر الأولى من نوعها فى التاريخ .

وتقول المستشرقة الالمــانية دكتورة « سيجر يدهونكة » فى كتابها : فضــل العرب على أوربا أو شمس الله على الغرب ، لقد شاء الله أن يظهر من الاوربيين من ينــادى بالحقيقة ، ولا يغمط العرب حقهم فى أنهم حملوا رسالة عالمية ، وادوا خدمة انسانية للثقافة البشرية قديما وحديثا أن هــذا النفر من الاوربيين المنصفين ، لايأبه من تحــدى المتعصبين الذين حاولوا جهد طاقتهم طمس معــالم هذه الحضارة العربية والتقليل من شــأنها .

وتضيف قائلة : « أن أوربا تدين للعرب وللحضــارة العربية ،وان الدين الذى فى عنق اوربا وسائر القارات الاخرى للعرب كبير جدا ، وكان يجب على اوربا أن تعترف بهــذا الصنيع منذ زمن بعيد ، ولكن التعصب

واختلاف العقائد اعمى عيوننا ، وترك عليها غشاوة حتى اننا نقرا ثمانية وتسعين كتابا من مائة فلا نجـد فيهـا اشارة الى فضل العرب ، وما أسندوه الينا من علم ومعرفة ، اللهم الا هذه الاشارة العابرة التى تقول : ان دور العرب لا يتعدى دور ساعى البريد الذى نقل التراث اليونانى » .

ثم تستطرد الدكتورة « هونكة » قائلة : « انها سبة أن يعلم اهـل العلم من الاوربيين أن العرب اصـحاب نهضة علمية لم تعرفها الانسانية من قبل ، وأن هـذه النهضة فاقت كثيرا مما تركه اليونان او الرومـان ولا يقررون هذا . ان العرب ظلوا ثمانيـة قرون يخرجون العـالم من الظلمات الى النور . ونشروا لواء المدنية انى ذهبوا فى اقاصى البـلاد ودانيها ، سـواء فى آسيا أو افريقيا أو أوربا ، ثم تنكر أوربا على العرب الاعتراف بهذا الفضل » .

فرطنا فى تراثنـا :

كتب المستشرق « الكونت فيليب دى طرازى » فى كتابه « خزائن الكتب العربية » يقول : فى منتصـف « القرن التاسع عشر م » عين رجلا يدعى ابن السليمانى خازنا ومشرفا علـى خزائن كتب مخطوطة لثلاثـة مسـاجد بالقاهرة ، وجعل له ديوان الأوقاف مرتبا شهريا قدره خمسـة وعشرون قرشا ، — وهى بالطبع لا تكفى رجلا وأسرته خبزا فقط طوال الشـهر — وكان الرجل يستعين على زيادة دخله وعلى العيش العادى ببيع قصـب السكر ، فجعل يقف فى زاوية تحت سـلم مدرسة السلطان حسـن ، يضع بجانب عيدان القصب اكواما من المخطوطات ويبذلها لمن يدفع له القرش أو القرشين .

وليس لهـذا من تعليق الا مايراه القارىء من هوان تراثنا علينـا والى اى حـد رخص حتى صار كما مهملا ، أو صار — كما يقال — من سقط المتاع .

حتى هذه المخطوطات التى كانت فى الخزائن الخاصة مضى جامعوها .. ماتوا ، فآلت الى خلف لهم يجهلون قيمتها ، ولم تكن المخطوطات بأيـدى الخلف هؤلاء بأحسـن منها حالا بين يدى ابن السليمانى وامثاله ، فهـم

يبيعونها تارة للباعة يغلفون فيهـا بضائعهم ، وهم يستخدمون أوراقها تارة اخرى فى مسح زجاج القنـاديل وغيرها من أهون الأغراض المنزلية .

كان الغرب وما زال لا يبخل بمال على تراثنا .. يجمعه ويصوره ويحققه ويفهرسه وينشره وقصـة المستشرق الايطالى « كايتانى » ليست بعيدة عن الأذهان ، فقد انفق هذا الرجل كل ثروته الطائلة فى سـبيل اصـدار حولياته التى اسماها « حوليات الاسـلام » والتى ظهرت فى تسعة مجلدات كبار .

وسواء أكان هدفه من حركته هـذه تبشيرا دينيا أم كان استعماريا فالمهم هنا أن نلفت النظر ونوجهه الى عناية الغرب الفائقة بتراثنا وأن نقرر أن حركة النهضة العربية الاسـلامية لايمكن ان تنفصل عن حركة احيـاء التراث ، واننا ونحن بسبيل الاحياء الحقيقى لنهضتنا لابد لنـا ان نعنى بتراثنا وأن ندرك أن ارتباط نهضتنا بالحضارة الأوربية الوافـدة وحدها ، معناه ان تفقد نهضتنا اصالتهـا ، وأن نقطع جذورها الضاربة فى أعماق التاريخ بأيدينا وان محاولة زرع شجرة جديدة دون أصول خطأ جسيم الله وحـده يعلم اى ثمار جديدة سوف تطرح ، وقـد لا تطرح ثمارا بالمرة .

لقد سرق المستعمرون تراثنا ليجردونا من كل فضـيلة وينسـبوا لأنفسهم كل الفضـائل ، ولقـد ساموا المسـلمين كل أنواع الخسـف والاحتقار ، وكروا عليهم بخيلهم ورجلهم ، وامتلكوا ديارهم وأموالهم .

فهذه دعوة الى شـباب الأمة العربية والعالم الاسلامى أن يعكفوا على دراسـة هذا التراث المجيد ، وأن يعملوا على تحقيقة ونشره ، حتى يكونوا جديرين بهـذا التراث العظيم ، وأن يتابعوا الدرس والبحث بهمة نشـيطة متوثبة ، حتى تستطيع أمتهم ملاحقة الركب الحضـارى والعلمى لتعود الى مجدها التليد ولتهيأ لهـا حياة احسن وافضل — والله هو الموفق لطرق الصـواب ، والواهب لسـبل الخيرات وحسن المـآب . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

خاتمـــة

وبعــــد

فاننى اخلصت لهــذا الكتاب وبذلت فيه غاية الجهد ، وعشت له وفيه سنين عــددا ، واحسست انى أرضيت ربى وقلبى بهذا الاخلاص ، وبقى شىء واحــد هو أن يرضى عنه القارىء ، وذلك مالا أملك الســبيل اليه ، بيد أننى أود أن يغفر لى مافرط منى من اعتزاز بما وصــلت اليه من نتائج ، واحمد الله على ان هــذا الاعتزاز لايحول بينى وبين التعرف على مواطن الضعف فى نفسى وكتابى ، فاننى مازلت أتعلم ، ومن ظن أنه علم فقــد جهل .

ولأن اعمــال بنى الانسان موصوفة بالخطأ والنســيان ، موصولة بمدد لاينقطع من عثرات الهفوات والزلات ، ومهما بلغ حرص المرء ويقظته فلابد له من العثار فى هافية القول أو غافية العقل .

والله نســأل أن يعصمنا من الزلل والخطأ وأن يهدينا سواء السبيل ، « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

هذا وبالله التوفيق ،،،

د. مجاهد توفيق الجندى

الجيزة فى الجمعة ٨ محرم سنة ١٤٠٤ هـ

١٤ أكتوبر سنة ١٩٨٣ م

اهم المصـــادر والمراجع

اولا ـ الحجج الشرعية والوثائق :

١ ـ حجج الأمراء وأهل الخير رقم ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٧٧ ، بدار الوثائق القومية .

٢ ـ حجة اوقاف الغورى رقم ١٩٤ ، أوقاف ، ٣٠٣ ميكروفيلم بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

٣ ـ حجة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف .

٤ ـ حجة جوهر اللالا رقم ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق القومية .

٥ ـ حجة جمال الدين الاستادار رقم ١٠٦ محفظة ١٧ دار الوثـائق القومية .

٦ ـ حجة قايتباى رقم ٨٨٦ أوقاف ، ٥٠٣ ميكروفيلم المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

٧ ـ حجة قايتباى رقم ٩١٢ أوقاف ، ٤٨٩ ميكروفيلم المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

٨ ـ حجة سليمان الأبشـادى رقم ٢٧٨ محفظـة ٤٣ دار الوثـائق القومية .

٩ ـ حجة وقف برسباى رقم ٨٨٠ أوقاف ، ٥٠٥ ميكروفيلم بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

١٠ ـ حجة السـلطان برقوق رقم ٥١ محفظـة ٩ دار الوثـائق القومية .

١١ ـ حجة وقف عز الدين محمد بن علاى الدين السعودى ، رقم ٢٨٢ محفظة ٤٣ دار الوثائق .

١٢ ـ حجة عبد اللطيف المنصورى رقم ٧١ محفظة ١١ ب دار الوثائق القومية .

ثانيا — مصادر مخطوطة ومطبوعة :

١ — الابيارى : عبد الهادى نجا (ت ١٣٠٥ — ١٨٨٧ م) : سعود المطالع ، جزءان ، القاهرة ، د. ت.

٢ — أحمد بن سعد الدين العثمانى العمرى : ذخيرة الأعلام بتواريخ ، الخلفاء الأعلام ، مخطوط بدار الكتب رقم ٤٠٤ تاريخ .

٣ — ابن الاخوة : محمد بن محمد بن أحمد القرشى (ت ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م) : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، نشر الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ م .

٤ — الادفوى : كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) : الطالع السعيد فى أسماء نجباء الصعيد ، الدار المصرية العامة للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

٥ — الاسنوى : جمال الدين بن الحسن (ت ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م) : طبقات الشافعية ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٧٣٦٨ ح .

٦ — ابن الأكفانى : شمس الدين محمد بن ابراهيم (ت ٧٤٩ هـ — ١٣٤٨ م) : ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد ، مخطوط بدار الكتب رقم ٩ مجاميع ، معارف عامة .

٧ — ابن اياس : أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ — ١٥٢٤ م) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور : أ — ط بولاق ، ٤ أجزاء ، ١٣١١ هـ ، ب — ط جمعية المستشرقين الألمان ، ٦ أجزاء ، ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦١ م ، جـ — المختار من بدائع الزهور ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

٨ — ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٩ هـ — ١٣٧٧ م) : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، المكتبة الأهلية الكبرى ، القاهرة ، د. ت.

٩ — البيضاوى : ناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر (ت ٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م) : موضوعات العلوم وتعاريفها ، مخطوط بدار الكتب ، رقم ٣٨٤ تاريخ .

١٠ — ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤ هـ — ١٤٧٠ م) : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، ٥ مجلدات ، مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور .

١١ — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، أ — طبعة كاليفورنيا ، د . ت ، ب — ط دار الكتب ، ١٦ جزءا ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٢ م .

١٢ — ابن جماعة : بدر الدين ابراهيم سعد الله (ت ٧٣٣ هـ ١٣٣٢ م) : تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، ١٣٥٣ هـ .

١٣ — ابن الجيعان : شرف الدين يحيى بن المقر (ت ٨٩٧ هـ — ١٤٩٣ م) التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية ، ط مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٤ م .

١٤ — ابن الحاج : أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى (ت ٧٣٧ هـ — ١٤٣٣ م) : المدخل الى الشرع الشريف ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٢٩ م .

١٥ — ابن حبيب : محمد أمين (ت بعد ١٢٢٥ هـ — ١٨١٠ م) : طبقات الفقهاء والعباد والزهاد ومشايخ الطرق الصوفية والمؤرخين والنحاة واللغويين والشعراء ، مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٦٦ تاريخ .

١٦ — ابن حجر العسقلانى : احمد بن على (٨٥٢ هـ — ١٤٤٨ م) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ٥ أجزاء ، تحقيق محمد جاد الحق ، القاهرة ١٩٦٦ م .

١٧ — الخطيب الجوهرى : علــى بن داود الصـــيرفى (ت ٩٠٠ هـ — ١٤٩٥ م) : نزهة النفوس والأبــدان ، ٣ أجزاء ، تحقيق د. حسن حبشى ، م . دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

١٨ — ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ — ١٤٠٥ م) : المقدمة : ا — ط المكتبة التجارية بالقاهرة ، د . ت ، ب — ط لجنة البيان العربى ، تحقيق على وافى ، ٤ أجزاء ، ١٩٦٢ م .

١٩ — الذهبى : أبو عبد الله شمس الدين محمد (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، ٣٤ مجلدا ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٤٢ تاريخ .

٢٠ — ابن رجب الحنبلى : زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الــدين (ت ٧٩٠ هـ — ١٣٨٨ م) : طبقات الحنابلة ، ٣ أجزاء ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٢٣ تاريخ .

٢١ — رضوان أبو هاشم الزرقانى : الروض الأزهر فى حدود مشاهير علوم الأزهر ، مخطوط رقم ٢٩٢٠ مكتبة الأزهر (امبابى) .

٢٢ — الزركشى : محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ — ١٣٩٢ م) : أعلام الساجد بأحكام المساجد ، تحقيق أبو الوفا المراغى ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م .

٢٣ — الزرنوجى : تعليم المتعلم ، تحقيق د. الأهوانى ، ط لجنة التأليف ، القاهرة ، ١٩٤٥ م .

٢٤ — زكريا الأنصـــارى : اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم ، ط دمشق ، د . ت .

٢٥ — الســـخاوى : شمس الـــدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، ١٢ جزءا ، ط القدسى ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .

٢٦ — السخاوى : ابو الحسن نور الدين على بن احمد بن عمر : تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات ، نشر وتصحيح محمود ربيع وحسن قاسم ، القاهرة ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م ، العلوم والآداب .

٢٧ — السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، ط الحلبى .

٢٨ — الشعرانى : عبد الوهاب (٩٧٣ هـ — ١٥٦٥ م) : الطبقـات الكبرى ، جزءان ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٢٥ م .

٢٩ — الشوكانى : شمس الدين محمد بن على (ت ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، جزءان ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ .

٣٠ — الشيزرى : عبد الرحمن بن نصر (ت حوالى ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق د. الباز العرينى ، بيروت ، ١٩٦٩ م .

٣١ — عبد الله مراد بن يوسف الرومى الآزهرى : الكنز المفيض الأنور فى ذكر نبذة يسيرة من فضائل الجامع الازهر ، مخطوط مصـور بدار الكتب المصرية ، رقم ٨٠٩٠ ح .

٣٢ — العجماوى : محمد بن محمد بن سرحان : نتائج الفهوم بمبادىء العلوم ، مطبعة المعاهد الأزهرية ، ١٣٤٦ هـ .

٣٣ — ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩ هـ — ١٦٧٨ م) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، مكتبة حاتم القدسى ،القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

٣٤ — العينى : بدر الدين محمود (ت ٨٥٥ هـ — ١٤٥١ م) : عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب ، رقم ١٥٨٤ تاريخ .

٣٥ — القابسى : آداب المتعلمين ، تحقيق د. الأهوانى ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ — ١٩٤٥ م .

٣٦ — القلقشندى : شهاب الدين أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزءا ، ط دار الكتب ، ١٩١٥ م .

٣٧ — صديق بن حسن بن على الحسينى : ابجد العلوم ، المطبعة الصديقية ، الهند ، ١٢٩٦ هـ .

٣٨ — المقريزى : تقى الدين احمد بن على (ت ٨٤٥ هـ — ١٤٤٢ م) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د. سعيد عاشور وآخر ط دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٢ م .

٣٩ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى ايضا ، جزاءان : أ — ط بولاق ١٢٧٠ هـ ، ب — ط النيل ، ١٣٢٤ هـ .

٤٠ — أبو الوفا المراغى : المعجم الأصغر لتراجم ومؤلفات علماء الأزهر ، مخطوط بمكتبة الأزهر ، ٤ مجلدات .

ثالثا – الرسـائل الجامعية :

١ – دولت عبد الكريم : الخوانق فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، رسالة دكتوراه بآداب القاهرة ، ١١٧٨ تاريخ .

٢ – عبد الرحمن أمين صادق : تحقيق كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف ، رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية ، ١٩٧٩ م .

٣ – مجاهد توفيق الجندى : تطور الخط العربى وأدوات الكتابـة ، بحث ماجستير بكلية اللغة العربية ، ١٩٧٥ م .

٤ – محمد أمين : تاريخ الأوقاف فى مصر ، فى عصر سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ، ١٩٧٣ م ، رقم ١٠٦٧

٥ – محمد عبد الرحيم غنيمة : مقدمـة لتاريخ التعليم الجـامعى فى الاسلام ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ، رقم ١٠٨

٦ – محمد جبر أبو سعدة : الحركة العلمية فى جامع عمرو بن العاص ، رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربيـة ، ١٩٧٤ ، رقم ٨٧٢ – ٨٧٨

٧ – محمد عبد العليم العدوى : الأزهر فى العصر الفاطمى ، رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية ، ١٩٧٩ م .

رابعا — المراجع الحــديثة :

١ — أحمد شلبى (دكتور) : تاريخ التربية الاسلامية ، ط ٦ ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ١٩٧٨ م .

٢ — أحمد عيسى (دكتور) : معجم الأطباء ، ط أولى ، مطبعة نورى بمصر ، ١٩٤٢ م .

٣ — أحمد فكرى (د.) مساجد القاهرة ومدارسها ، ٤ اجزاء ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ م .

٤ — أحمد مجاهد مصباح (دكتور) : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ط ٢ ، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ، ١٩٧٨ م .

٥ — أرفنج ادلر : ادوات العلم : ترجمة عبــد الرحمن فهمى ، دار الكرنك بالقاهرة ، ١٩٦١ م .

٦ — حسام الدين عبد الحميد (دكتور) : تكنولوجيا صيانة وترميم المقتنيات الثقافية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٧ — حسن الباشا (دكتور) : الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، النهضة العربية ، ١٩٧٨ م .

٨ — حسن الباشا وآخرون : القاهرة ، تاريخها وفنونها وآثارها ، مطابع الأهرام التجارية ، ١٩٧٠ م .

٩ — الفنون الاسلامية والوظائف على التحف والآثار ، ٣ أجزاء ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ١٩٦٥ م .

١٠ — خالد الحديدى (دكتور) : المكتبات الكبرى عند العرب ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

١١ — الزوايا السنوسية امتـداد للمدارس الاسـلامية ، بنغازى ، ١٩٦٨ م .

١٢ — فهرس مكتبة القصبى ، دار الوسـطانية للنشر بالقـاهرة ، ١٩٧٦ م .

١٣ — سعد مرسى احمد وآخر (دكتور) : تاريخ التربية فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

١٤ — سعيد اسماعيل (دكتور) : معاهد التعليم الاسـلامى ، دار الثقافة بمصر ، ١٩٧٨ م .

١٥ — سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية القاهرة ، ١٩٧٠ م .

١٦ — المجتمع المصرى زمن سلاطين المماليك ، م . النهضة المصرية ، ١٩٦٢ م .

١٧ — سعيد عاشور (دكتور) وآخر : مصر فى العصـور الوسطى ، النهضة المصرية ، ١٩٧٠ م .

١٨ — سليمان رصد الحنفى (الشيخ) : كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ، ١٣٢٢ هـ — ١٩٠٤ م .

١٩ — عبد العزيز مرزوق (دكتور) : المصـحف الشريف ، ط المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

٢٠ — عبد الكريم سالمان : اعمال مجلس ادارة الأزهر الأعلى ، القاهرة ، د . ت .

٢١ — عبد اللطيف ابراهيم : (دكتور) : دراسات تاريخية وأثرية فى عصر الغورى ، ط دار الشعب ، ١٩٦٢ م .

٢٢ — دراسات فى الكتب والمكتبات الاسلامية ، ط دار الشعب ، ١٩٦٢ م .

٢٣ — نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

٢٤ — عبد الوهاب حموده : صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ، دار التأليف بالقاهرة ، ١٩٦٥ م .

٢٥ — على حمودة (دكتور) : مصر ملاذ العالم الاسلامى ، مطبعة الأمانة بالقاهرة ، د . ت .

٢٦ — فتحية سليمان : المذهب التربوى عند ابن خلدون ، مكتبة نهضة مصر ، د . ت .

٢٧ — ماير : الملابس المملوكية : ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

٢٨ — محمد أسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٧ م .

٢٩ — محمد الأحمدى الظواهرى : العلم والعلماء ونظام التعليم فى الأزهر ، ط القاهرة ، د . ت .

٣٠ — محمد الصادق حسين البيت السبكى بيت علم فى دولتى المماليك ، دار الكاتب المصرى : طبعة أولى ، ١٩٤٨ م ، القاهرة .

٣١ — محمد عطية الابراشى : التربية الاسلامية ، ط ٣ ، الحلبى ، القاهرة ، د. ت.

٣٢ — محمد محمود الصياد (دكتور) : أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوربية ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ م .

٣٣ — محمود رزق سليم (دكتور) : عصر سـلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، مطبعة الآداب ، القاهرة ، ٨ أجزاء ، ١٩٤٩ — ١٩٦٥ م ٠

٣٤ — مصطفى السباعى (دكتور) : من روائع حضارتنا ، ط ٢ ، دار الارشاد ، بيروت ، ١٩٦٨ م ٠

٣٥ — يوسف الياس سركيس : معجم المطبوعات العربيـة والمعربـة مجلدان ، مطبعة سركيس ، ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م ٠

خامسا — الأبحاث والدوريات والمقالات :

١ — أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ٣ أجزاء ، ط دار الكتب ، ١٩٧١ م .

٢ — أبحاث ندوة البحر الأحمر فى التاريخ بجامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٣ — أبحاث ندوة ابن تغرى بردى : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤ م .

٤ — أبحاث ندوة السخاوى بالجمعية التاريخية المصرية ، مارس ١٩٨١ م .

٥ — أبحاث ندوة السيوطى ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٨ م .

٦ — أسس التربية فى الوطن العربى : مجموعة أبحاث قدمت فى الحلقة الدراسية الأولى للتربية وعلم النفس ، محرم ١٣٨١ هـ — يونيو ١٩٦١ م ، ط دار الشعب بالقاهرة ، ١٩٦٨ م .

٧ — المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٨ — عبد الرحمن عبد التواب : قايتباى المحمودى الأعلام رقم ٢٠ ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٨ م .

٩ — عمر رضا كحاله : المعاجم التاريخية والأثرية ، بحث مستخرج من كتاب التاريخ والآثار ، الحلقة الأولى ، القاهرة ، د. ت.

١٠ — مجلة النجم الثاقب : العدد الأول ١٩٧٠ م ، العدد الثانى ، ١٩٧١ م ، العدد الثالث ، ١٩٧٢ ، مطابع أخبار اليوم .

١١ — موفق الدين عبد اللطيف البغدادى : الذكرى المئوية الثامنة لميلاده ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م .

١٢ — نادر العطار (دكتور) : أهمية الوثائق وتاريخ الاقليم السورى بحث مستخرج من كتاب التاريخ والآثار ، الحلقة الأولى ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، د . ت .

١٣ — وزارة الأوقاف : فى عيد العلم العاشر ، القاهرة ، مطابع الأخبار ، ١٩٦٤ م .

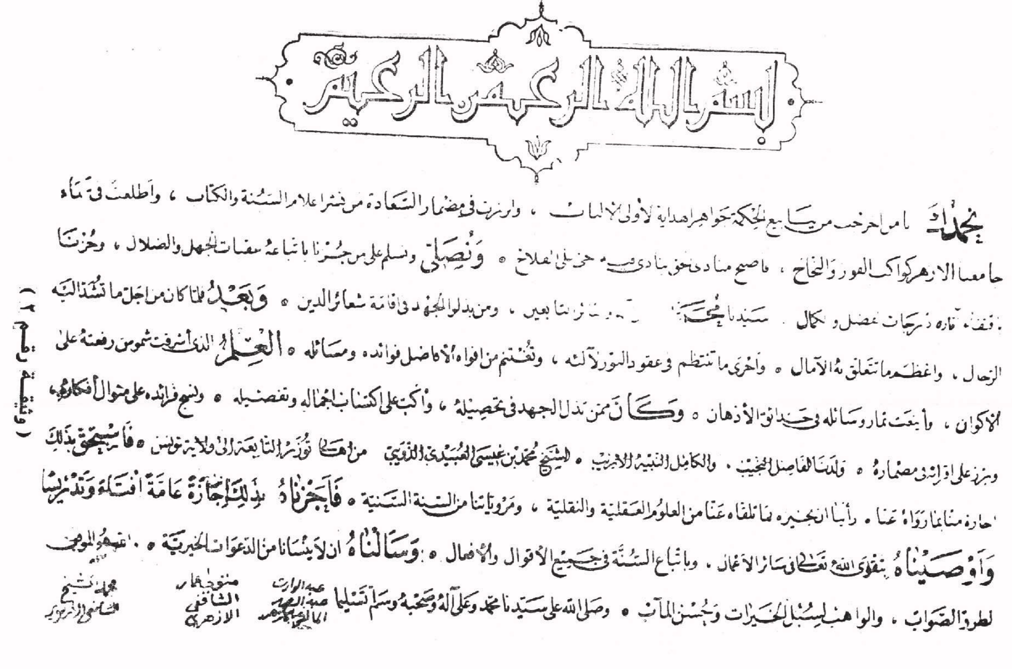
الملاحق

ملحق رقم « ١ » تصدير العلامة جلال الدين السيوطى وننفرد ولأول مرة بنشر صورته هنا .

ملحق رقم « ٢ » اجازة علمية لطالب تونسى ننفرد بنشرها أيضا لأول مرة .

ملحق رقم « ٣ » جزء من وثيقة الشيخ الأبشادى كنموذج لمكتبة الأزهر فى القرن التاسع الهجرى ، وينشر هذا الجزء هنا لأول مرة .

(وثيقة رقم ١)



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يا من اخرجت من ينابيع الحكمة جواهر الهداية لأولي الالباب ، وابرزت في مضمار السعادة من نشر اعلام السنة والكتاب ، واطلعت في سماء
جامعها الازهر كواكب النور والنجاح ، فاصبح منادي [illegible] حي على الفلاح . ونصلي ونسلم على من جسرنا باتباعه سفينات الجهل والضلال ، وحزنا
[illegible] درجات فضل وكمال . سيدنا محمد [illegible] تابعين ، ومن بذلوا الجهود في اقامة شعائر الدين . وبعد فلما كان من اجل ما تشد اليه
الرحال ، واعظم ما تتعلق به الآمال ، واحرى ما تنتظم في عقود النور لآلئه ، وتغتنم من افواه الافاضل فوائده ومسائله ، العلم الذي اشرقت شموس رفعته على
الاكوان ، وأينعت ثمار وسائله في حدائق الاذهان . وكان ممن بذل الجهد في تحصيله ، واكب على اكتساب اجماله وتفصيله ، ونسج فرائده على منوال افكاره ،
وبرز على اقرانه في مضماره ، ولدنا الفاضل النجيب ، والكامل النبيه الاريب ، الشيخ محمد بن عيسى العبيدي الذويبي من اهالي توزر التابعة الى ولاية تونس ، فاستحق بذلك
اجازة منا بما رواه عنا . رأينا ان نجيزه بما تلقاه عنا من العلوم العقلية والنقلية ، ومروياتنا من السنة السنية . فاجزناه بذلك اجازة عامة افتاء وتدريسا
واوصيناه بتقوى الله تعالى في سائر الاعمال ، وباتباع السنة في جميع الاقوال والافعال . وسألناه ان لا ينسانا من الدعوات الخيرية . انه هو الموفق
لطرق الصواب ، والواهب لسبل الخيرات وحسن المآب . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

عبد الوارث [illegible]

[illegible] الشافعي الازهري

محمد [illegible] الشافعي الازهري

(وثيقة رقم ٢)

(وثيقة رقم ٣)

تصـــويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	١٥	سناكى	سفاكو
٨	١٥	وبحوث	وبحوثا
٨	١٥	ولغوص	وللغوص
٨	٢٤	وينسبون	وينسبوها
٨	٢٧	ومايزمون	ومايرمون
٩	١	ميراثنا	تراثنا
١٢	٣	ديناموں	ويناموں
١٥	١٥	المحث	المحت
١٦	٢٨	النعام	التعليم
١٧	٣	والمحظ	والملاحظ
١٨	٣	الجزء	الجزاء
١٨	٤	مايطمع	مايطمح
١٨	١٥	نزكيهم	تزكيهم
٢٠	١٧	ولمدرسة	والمدرسة
٢٠	١٩	كؤسسات	كمؤسسات
٢١	١٨	أعلا	أعلى
٢٢	١٣	والرسو	والرسول
٢٣	٥	لخير	تحذف
٢٣	١٢	قدم	قد
٢٣	١٩	ونذارهم	وانذارهم
٣٢	٢٥	المقدرة	بالمقدرة
٣٥	١٣	يظر	يظهر
٣٨	٧	ما	من
٤٨	١١	بوقوق	برقوق
٤٩	١٣	وسسكر	وسنذكر
٥٢	٧	ولم يخشى	ولم يخش
٨٦	٢٧	كثيرا	كثير
٨٩	٢	محمو	محو
٨٩	١٨	احتفالا كبيرا مهيبا	احتفال كبير مهيب
٨٩	١٩	دورا بارزا	دور بارز
٩٠	٢٢	لسبع وثلاثين	لسبعة وثلاثين

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩١	١١	تسع وعشرون	تسعة وعشرين
١٠٦	١٠	الطلبة	للطلبة
١٠٦	١١	ومن	ومن
١٠٨	٨	عالم .. عارف	عالما .. عارفا
١٠٨	١٤	مهتهم	مهمتهم
١٠٩	١٠	والمفيد	والمعيد
١٠٩	١٨	اعتبونا	اعتبرنا
١٠٩	٢٤	الذهور	الدهور
١١٠	٩	أن ظهر	انه ظهر
١١٠	١٣	التى كانت	التى كان
١١٠	١٦	لم يتولى	لم يتول
١١٤	١٥	الظهور	الظهر
١١٥	٨	يتماوى	يتمادى
١١٧	١٢	مما يضمن	بما يضمن
١١٧	١٥	السكنة	السكينة
١١٧	٢٠	والمدرسون	والمدرسين
١١٨	١١	بل لن	بل ان
١١٩	١٠	وتسعى	وتسمى
١٢٠	٦	زتكى	زنكى
١٢١	٢٣	من المصاحف	ومن المصاحف
١٢١	٢٤	دار	بدار
١٢٤	٢	بن	ابن
١٢٤	١٧	عى	على
١٢٥	٢	كل	لكل
١٢٥	٢٠	الآ	الآن
١٢٦	٢	باصرغتمشية	بالصرغتمشية
١٢٧	٢	ودر	ودور
١٢٨	٣	مقول	معقول
١٢٨	٣	سامعين	سامعيه
١٣٠	٣	يعطوها	يعلوها
١٣١	١٥	وتسهيل	ويسهل
١٣٣	٩	حافظ	حافظا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣٥	٢٠	معظهم	معظمهم
١٤١	٢٠	البقاد	البقاء
١٤٤	٦	المخوطات	المخطوطات
١٤٤	٦	حلية	جلية
١٤٥	٩	لاشراف	الاشراف
١٤٨	٢٠	لمحبته	كمحبته
١٥٠	١٨	ونقاجه	ونتاجه
١٥٢	٩	اللزم	اللزوم
١٥٣	٦	المواقف	الواقف
١٥٣	١٦	الفسية	النفيسة
١٥٤	٢٠	الشريعات	الشريفات
١٥٨	٢	تأجير	تأخير
١٦٦	١١	النواع	النوع
١٦٧	٥	يشتغلين	يشتغلن
١٧٦	١٧	بالذهد	بالزهد
١٩٩	١٠	الباس	لباس
٢٠٣	١١	مخابل	مخايل
٢٠٦	١٢	لينفك	لينفعك
٢٠٦	١٣	لينفعك	ليجمعك
٢٠٨	٢٠	الى بلد	من بلد
٢١٩	٩	وهذه	هذه
٢٣٠	١٠	فى مبادىء	ومبادىء
٢٣٠	٢٤	المسيحيج	المسيحيين
٢٣١	٤	والعلم	والعلوم
٢٣١	١١	وازداهارها	وازدهارها
٢٣٨	١٢	الاتصال	لاتصال
٢٣٨	١٩	الثخريج	التخريج

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣٩	١٣	بكتاب	بكتابة
٢٤١	١٨	ولايباع	الثانية مكررة
٢٤٢	٤	الصدقاء	الصدقات
٢٤٧	١١	أنس	أنفس
٢٤٩	١٤	الأصناف	الأنصاف
٢٥١	٤٢	المؤية	المؤيد
٢٥٢	١٧	للكتاب	لكتاب
٢٥٥	١٣	الجاماعات	الجماعات
٢٥٧	١١	٩٤٠	٥٤٠
٢٦٠	٢٣	ومثار	ومآثر
٢٦١	١٦	آنبى	ونبى
٢٦٢	١٧	فليليب	فليب
٢٦٢	١٩	معايشتهم	معايشهم
٢٦٥	٧	من الشرق	مدن الشرق
٢٦٧	١٥	غريفوريوس	غريغوريوس
٢٧٦	٣	هذم	هذه
٢٧٦	٢٤	الدراسين	الدارسين
٢٧٧	١١	حرف خانته	فى خانته
٢٧٧	١٢	يواجد	بواحد
٢٧٨	٣	اسندوه	أسدوه
٢٧٩	٢٦	وسلم	وسلم(٥٥١)

فهـــرس الكتـــاب

(*) خطأ حدث فى الترقيم سيؤدى الى تعـديل بقية أرقام الجوامع

(**) خطأ فى العدد والأصح رابعا بدل خامسا وما بعــده سيتغير بالطبع .

الموضـــوع	الصـــفحة

* * *

رقم الايداع بدار الكتب القومية ٨٤/٢٤١٤